توفيق الفتّاح العليم

في

تيسير خُطب رحموني سليم

الجزء الأوّل

السيرة النّبويّة

(إرهاصات النبوّة-مراحل السيرة النبوية-مختصر السيرة)

جمعه

الشّيخ الفقيه الحاج سليم بن الطّاهر رحموني

إمام أستاذ خطيب ومُدَرِّس بمسجد التّجانيّة بمدينة بسكرة

-الجزائر-

الـسيـرة الـنّـبـويّـة

إرهـاصـات الـنّبـوّة

01- الفرح والبشرى بسيّد الدنيا والأخرى الذي بشّر به الأنبياء فنعم البشرى والذكرى

الحمد لله الذي أطلع في شهر ربيع الأوّل. شمس النبوّة المحمّدية. فأضاءت به سائر الآفاق. وأشرق بمظاهر تجلّي أسرار الصفات الأحمدية. قلوبا اختارها الله لهداه. فكانت مستنيرة بذلك الإشراق. فسبحانه من إله. أرسل رسوله ومصطفاه. سيّدنا محمّدا صلى الله عليه وسلم. رحمة عامّة. ونعمة تامّة. وبعثه متمّما لمكارم الأخلاق. وأيّده بآيات ظاهرة. ومعجزات باهرة. وخصائص فاخرة. لا يدرك حقيقة كنهها الحذّاق. نحمده تعالى على هذه النعمة الجليلة. ونشكره على إسداء هذه المنّة الجزيلة. حمدا وشكرا ننال بهما الفوز بالقرب والدنوّ والتلاق. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، شرّف شهر ربيع الأوّل الأنور. بميلاد نبيّه صاحب الجبين الأزهر. النبيّ المكرّم. والحبيب المعظّم. سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم. وشرّف وكرّم. ومجّد وعظّم. ووالى عليه ذلك وأنعم. ما تزيّنت بجواهر أمداحه مجالس المحبّين والعشّاق. وتحرّكت عند سماع أذكاره أرباب المواجد والأشواق .

لشهر ربيع آية لم تزل كبرى * به أطلع الرحمان في ليله بدرا

تبدّى ونور الحسن فوق جبينه * فنوّر منه الأرض والسهل والوعرا

وأظهر جبريل المسرّة معلنا * يقول لأهل الأرض جاءتكم البشرى

فيا ليت كل الدهر عندي مولد * لأحمد محبوبي أجلّ الورى قدرا

وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. نبيّ شرّف الله به الوجود. وكمّل بمبعثه السعود. فما أكمله وما أجمله وما أسعده من مولود. فتبارك الله الملك الكريم الخلاّق. سيّد الكونين. وإمام الثقلين. وجدّ الحسنين. وقامع الحزبين. أولي الشرك والنفاق. من شملت دعوته سائر العوالم على العموم والإطلاق. وتواطأت عوالم الأرواح العلوية والسفلية على أنّه سيّد جميع الخلائق بالإتّفاق.

يا مُصطَفَى مِنْ قَبلِ نَشْأَةِ آدمَ * والكونُ لم تُفتَح لَهُ أَغْلاَقُ

أَيَرُومُ مَخلُوقٌ ثنَاءَكَ بَعدَمَا * أَثنَى على أخلاقِكَ الخَلاَّق

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَى سيّدِنَا محمّدٍ. الذي توّجته بتاج الكمال. وجمّلته بصفات العزّ والجلال. وشرّفت بولادته الأصول والأعراق. وعلى آله الأجلّة المخصوصين بالتفضيل وكمال الشرف على الإطلاق. وصحابته مصابيح الهدى. ونجوم الإقتداء. المجاهدين لإعلاء كلمة التوحيد على قدم وساق. صلاة تفتح لنا بها الأغلاق. وتنفّس بها عنّا الخناق. وتكفينا ببركتها عن الخلائق وتفيض بها علينا مواهب الأرزاق. وتكون لنا ذخرا نفوز به يوم المعاد والتلاق. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. منذ أيّام قد أهلّ علينا شهر مبارك، شهر رفع الله قدره، وأعلى شأنه؛ إذ أبدى فيه للوجود نعمته السابغة، ورحمته الواسعة، بميلاد سيّد المرسلين، وإمام المتّقين، وقائد الغرّ المحجّلين، سيّدنا ومولانا محمّد صلى الله عليه وسلم؛ إنّه شهر ربيع الأنور، الذي فاضت فيه بحار الأنوار، بميلاد الحبيب المختار؛ اللهمّ اجعل هلاله يهلّ علينا باليمن والأمان. والعفو والعافية والغفران. فحقيق بيوم كان فيه وجود هذا النبيّ الكريم. صلى الله عليه وسلم. أن يتّخذ عيدا. وخليق بوقت ظهر فيه هذا الرسول العظيم. أن يعقد طالعا سعيدا. لقد كان مولده الشريف للدين سرورا. وللعالمين رحمة وحبورا. كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِين)). فالشكر لله تعالى على هذه النعمة العظمى. والرحمة الكبرى. قال تعالى في سورة يونس: ((قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)). فهنيئاً لكم يا أمّة الإسلام. بأشرف الأعياد عند الخاصّ والعام. واهتزّوا لقدومه طربا. وقولوا له أهلا وسهلا ومرحبا. ولقد أجاد من قال. عند إقبال هذا الشهر النبويّ في المقال:

أهلا بسلطان الشهور فإنّه * نور العيون وراحة المحزون

وربيعنا وربيع كل موفّق * لِمْ لا وفيه ولادة المأمون

وذكر الإمام القسطلاّني رحمه الله. في كتابه (المواهب اللدنية بالمنح المحمدية) في حكمة اختصاص مولده صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأوّل. فقال: وإنّما كان في شهر ربيع على الصحيح. ولم يكن في المحرّم. ولا رجب. ولا رمضان. ولا غيرها من الأشهر ذوات الشرف. لأنّه عليه السلام لا يتشرّف بالزمان. وإنّما الزمان يتشرّف به كالأماكن. فلو ولد في شهر من الشهور المذكورة. لتوهّم أنّه تشرّف بها. فجعل الله تعالى مولده صلى الله عليه وسلم في غيرها. ليظهر عنايته به. وكرامته عليه. وإذا كان يوم الجمعة الدي خلق فيه آدم عليه السلام خصّ

بساعة لا يصادفها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرا إلاّ أعطاه إيّاه. فما بالك بالساعة التي ولد فيها سيّد المرسلين. صلى الله عليه وسلم. وقال الشيخ إبن الحاج في كتابه المدخل: قد اتّفقوا على أنّ أشرف بقعة في الأرض. البقعة التي ضمّت جسده الشريف صلى الله عليه وسلم. فلم لا يكون الشهر الذي ولد فيه أفضل الشهور. واليوم الذي تشرّف بولادته أفضل الأيّام.

أكرم بمولده الكريم فيومه * عين الزمان وأشرف الأعياد

يوم به الإسلام في فرح وفي * طرب ودين الكفر في أنكاد

يوم به شمس المعارف أشرقت * للكائنات بمظهر الإرشاد

أيّها المسلمون. لقد أرادَ الله تعالى أن تسبق هذا النبيّ الخاتم. صلى الله عليه وسلم. علاماتٌ واضحاتٌ، ودلائلُ بيّناتٌ. على قُرْبِ رسالة مَنْ ختم الله به النبوّات، وتمّم به الرسالات. وما أكثر هذه البشارات، وما أوضح تلك الدلالات. منها أنّ الله تعالى أنزل البشارة بمبعث الحبيب المصطفى. سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم في الكتب السماوية المنزّلة على الأنبياء السابقين عليهم السلام، فقال تعالى في سورة الأعراف: ((الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيء الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)). كما أعلم سبحانه وتعالى جميع أنبيائه ببعثته صلى الله عليه وسلم، وأمرهم بتبليغ أتباعهم بوجوب الإيمان به واتّباعه. إن هم أدركوه، وأخذ عليهم العهد بذلك. في مشهد رباني رائع. فقال تعالى في سورة آل عمران: ((وَإِذ اخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيئينَ لَمَا آتَيْناكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُومِنُنّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنّهُ قَالَ آقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ)). واستجاب الله تعالى لسيّدنا إبراهيم عليه السلام دعاءه. أن يبعث في العرب رسولاً منهم، فأرسل الله عزّ وجلّ سيّدنا محمّداً صلى الله عليه وسلم. قال تعالى في سورة البقرة: ((رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)). وأخبرنا الله تعالى عن بشارة سيّدنا عيسى عليه السلام بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال سبحانه في سورة

الصف: ((وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)). وهذا ما أكّده النبيّ صلى الله عليه وسلم في التحدّث بنعمة الله عليه. فيما رواه الإمام أحمد والبزّار والبيهقي عَنْ الْعِرْبَاض بْن سَارِيَة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنِّي عِنْد اللَّه لَخَاتَم النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَم لَمُنْجَدِل فِي طِينَته. وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: أنا دَعْوَة أَبِي إِبْرَاهِيم. وَبِشَارَة عِيسَى بِي. وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ. وَكَذَلِكَ أُمَّهَات النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ. وإِنّ أُمّ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأت حين وضعته نورا أضاءت منه قصور الشام)). أيّها المسلمون. لقد تعدّدت البشارات في الكتب السماوية السابقة. بخاتم النّبيّين. سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم، حيث بشّر الأنبياء بقدومه، وأمروا أتباعهم بالإيمان به، وتصديقه إذا ظهر، ولولا ما حدث في هذه الكتب من تحريف وتزييف، وما أصاب علماء أهل الكتاب من كبر وحسد، لكانت النصوص الدّالّة على رسول الله صلى الله عليه وسلم واضحة وضوح الشمس في وسط النهار. قال تعالى في سورة البقرة: ((الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)). وروى ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق قال: حدّثني عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه الأنصار. قولهم: إنّ ممّا دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله لنا وهداه، ما كنّا نسمع من أحبار يهود، كنّا أهل شرك. وأصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب. عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون. قالوا لنا: إنّه تقارب زمان نبيّ يبعث الآن. نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنّا كثيراً ما نسمع ذلك منهم. فلمّا بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم. أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعّدوننا به. فبادرناهم إليه. فآمنّا به. وكفروا، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من سورة البقرة: ((وَلَمّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)). ورحم الله الإمام البوصيري إذ يقول في همزيته:

بَيَّنَتْهُ تَوْرَاتُهُمْ وَالأَنَاجِيـ*ـــلُ وَهُمْ فِي جُحُودِهِ شُرَكَاءُ

إِنْ تَقُولُوا مَا بَيَّنَتْهُ فَمَا زَا * لَتْ بِهِ عَنْ عُيُونِهِمْ غَشْوَاءُ

أَوْ تَقُولُوا قَدْ بَيَّنَتْهُ فَمَا لِلْــ*ـــأُذْنِ عَمَّا تَقُولُهُ صَمَّاءُ

عَرَفُوهُ وَأَنْكَرُوهُ وَظُلْماً * كَتَمَتْهُ الشَّهَادَةَ الشُّهَدَاءُ

جَحَدُوا الْمُصْطَفَى وَآمَنَ بالطَّـ*ـاغُوتِ قَومٌ هُمْ عِنْدَهُمْ شُرَفَاءُ

بَلْ تَمَادَتْ عَلَى التَّجَاهُلِ آبَـــ*ــاءٌ تَقَفَّتْ آثَارَهَا الأَبْنَاءُ

أَوَ نُورَ الإِلَهِ تُطْفِئُهُ الأَفْـــ*ــوَاهُ وَهْوَ الذِي بِهِ يُسْتَضَاءُ

كَيْفَ يَهْدِي الإِلَهُ مِنْهُمْ قُلُوباً * حَشْوُهَا مِنْ حَبِيبِهِ الْبَغْضَاءُ

أيّها المسلمون. هذا غيض من فيض، وقليل من كثير. من الدلائل الصادقة. والبشائر السابقة. عن مولد ومبعث سيّد العرب والعجم. الذي أنبأ بشرفه الفصيح والأعجم. سيّدنا ومولانا محمّد صلى الله عليه وسلم. ورضي الله تعالى عن سيّدنا خالد بن الوليد الذي قال عندما سئل: صف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: أتريدون أن أطيل أم أقصر؟ فقالوا له: بل أقصر. فقال: هو رسول الله، والرسول على قدر المرسل.

بمولد خير الخلق تمّ لنا الفرحْ * ولِمْ لا وصدر المومنين به انشرحْ

فيا حادي العشّاق فاحد بمدحه * فقد فاز من في العالمين له امتدحْ

وحدّث بما في المولد النبويّ * روته أناس فيه عندهم مرحْ

فتنتعش الأرواح عند سماعه * ويرقص من فرط السرور به الشبح

وأكثر من الأمداح فيه فإنّما * كمال السرور للمحبّ لمن مدح

هنيئا لكم دوموا على الحبّ واعمروا * بأمداحه عمرا تعمّكم المنح

وقل لكم البشرى بحبّ محمّد * فقوموا بأمداح بها يكمل الفرح

ومدْحُ رسول الله مدحٌ لربّه * ولا حمد إلاّ ما بحبّ النبي وضح

عليه من المولى كمال تحيّة * بحسن قبول منه عرف لها نفح

اللهم إنّا نسألك بحرمة هذا الشهر الفخيم. والموسم العظيم. والمولد الكريم. وبحقّ هذا المولود المبارك المسعود. سيّدنا ومولانا محمّد الحامد المحمود. الذي شرّفت به الوجود. وفتحت بولادته خزائن الكرم والجود. نسألك اللهم أن تجعل ألسنتنا

دائمة اللهج بمدحه في القيام والقعود. وترزقنا في خدمته سعيا مشكورا. وعملا صالحا مقبولا غير مردود. وتشفّعه فينا. وتجمع بيننا وبينه يوم القيامة في أعالي جنّة الخلود. وأن تزيدنا فيه محبّة وإيمانا. وتكشف عنّا حجاب الستر حتى نراه مشاهدة وعيانا. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. اهـ

02- دلائل وأعلام النّبوّة من بشائر وإخبار سَيْفِ بنِ ذي يَزَنْ ذي المُلك والفُتُوّة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُنْفَرِدِ بِاسْمِهِ الأَسْمَى، الْمُخْتَصِّ بِالْمُلْكِ الأَعَزِّ الأَحْمَى، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، وَأَسْبَغَ عَلَى عباده المؤمنين نِعَمًا جمًّا، وَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وأشرفهم عُرْبًا وَعُجْمًا، وَأَرْجَحَهُمْ عَقْلًا وَحِلْمًا، وَأَوْفَرَهُمْ عِلْمًا وَفَهْمًا، وَأَقْوَاهُمْ يَقِينًا وَعَزْمًا، وَأَشَدَّهُمْ بِهِمْ رَأْفَةً وَرُحْمًا، زَكَّاهُ رُوحًا وَجِسْمًا، وَحَاشَاهُ عَيْبًا وَوَصْمًا، وَآتَاهُ حِكْمَةً وَحُكْمًا، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، وَآذَانًا صُمًّا، فَآمَنَ بِهِ وَعَزَّرَهُ وَنَصَرَهُ مَنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ فِي مَغْنَمِ السَّعَادَةِ قِسْمًا، وَكَذَّبَ بِهِ وَصَدَفَ عَنْ آيَاتِهِ مَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاءَ حَتْمًا ، وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. صَلَاةً تَسْمُو وَتُنْمَى، وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا. وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، أرسل رسوله ومصطفاه. سيّدنا محمّدا صلى الله عليه وسلم. رحمة عامّة. ونعمة تامّة. وأيّده بآيات ظاهرة. ومعجزات باهرة. وخصائص فاخرة. صلى الله عليه وسلم. وشرّف وكرّم. ومجّد وعظّم. ووالى عليه ذلك وأنعم. وأشهد أنّ سيّدنا محمّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى، وَنَبِيُّهُ المُجْتَبَى، وَرَسُولُهُ المرْتَضَى، بَعَثَهُ بِالنُّورِ المُضِيّ، وَالأَمْرِ الْمَرْضِيّ، عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَدُرُوسٍ مِنَ السُّبُلِ، فَدَمَغَ بِهِ الطُّغْيَانَ، وَأَظْهَرَ بِهِ الإِيمَانَ، وَرَفَعَ دِينَهُ عَلَى سَائِرِ الأَدْيَانِ؛

فعليه صلّوا كلّكم وتمتّعوا * يا حاضرين بمدحه وتتبّعوا

آثاره وتوسّلوا وتشفّعوا * فملاذُنا المولى المعظّمُ أحمدُ

صلّوا على خير البريّة تسعدوا

اللهمّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَى سيّدِنَا محمّدٍ الهادي إلى طريق الخير والرشاد. وعلى آله الأئمّة الزهّاد. وصحابته السادة الأمجاد. صلاة تستر بها عوراتنا بين العباد.

وتصلح بها منّا الأزواج والأولاد. وتكفّ بها عنّا يد أهل الظلم والفساد. وتجيرنا بها من شرّ البغاة والحسّاد. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. يقول تعالى في سورة آل عمران: ((لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)). إنّها لنعمة عظمى. ومنّة كبرى. أن بعث الله رسوله رحمةً للعالمين. وهدىً للمستبصرين. ونورًا يبدّد ظُلم الفتن والجاهليات. فأحيا به قلوبًا ميتة. وأسمع به آذانًا صمًّا. وأنار به أعينًا عميًا. وجعل رسالته خاتمة خالدة. فهي أعظمُ الرسالات وأشملُها، وقد أحاطها الله بعنايته، وشملها برعايته، وجعل لها دلائل باهرة، وعلامات ظاهرة، قبل مبعثه بل قبل ولادته صلى الله عليه وسلم، وكانت هذه الدلائل. إرهاصات وبشائر على مبعثه صلى الله عليه وسلم، فأوّل هذه البشارات وأهمّها. بشارة الأنبياء بمعثه عليه الصلاة والسلام، فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة الصف: ((وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)). وذلك أنّ الكتب السماوية المنزّلة على الأنبياء السابقين عليهم السلام، بشّرت بمبعث النبيّ الخاتم. صلى الله عليه وسلم. قال تعالى في سورة الأعراف: ((الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيءِ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)). كما أعلم سبحانه وتعالى جميع أنبيائه ببعثته صلى الله عليه وسلم، وأمرهم بتبليغ أتباعهم بوجوب الإيمان به واتّباعه. إن هم أدركوه، وأخذ عليهم العهد بذلك. في مشهد رباني رائع. فقال تعالى في سورة آل عمران: ((وَإِذ اخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيئِينَ لَمَا آتَيْناكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُومِنُنّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنّهُ قَالَ آقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ)). كما لم يقتصر سبحانه وتعالى على أخذ العهد من النبيين ببيان البشائر به صلى الله عليه وسلم، بل أخذ الميثاق من أهل الكتاب على تبيين بشائره للناس وعدم كتمانها، قال سبحانه في سورة آل عمران: ((وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)). أيّها

المسلمون. ولولا ما حدث في كتبهم من تحريف وتزييف، وما أصاب علماء أهل الكتاب من كِبْر وحسد، لكانت النصوص الدّالّة على رسول الله صلى الله عليه وسلم واضحة وضوح الشمس في وسط النهار. قال تعالى في سورة البقرة: ((الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)). وروى ابن هشام في سيرته عن ابْن إسْحَاقَ قال: حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ رِجَالٍ مِنْ قَوْمِهِ، قَالُوا: إنَّ مِمَّا دَعَانَا إلَى الْإِسْلَامِ، مَعَ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُدَاهُ لَنَا، لَمَا كُنَّا نَسْمَعُ مِنْ رِجَالِ يَهُودَ، وَ كُنَّا أَهْلَ شِرْكٍ أَصْحَابَ أَوْثَانٍ، وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ، عِنْدَهُمْ عِلْمٌ لَيْسَ لَنَا، وَكَانَتْ لَا تَزَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ شُرُورٌ، فَإِذَا نِلْنَا مِنْهُمْ بَعْضَ مَا يَكْرَهُونَ، قَالُوا لَنَا: إنَّهُ قَدْ تَقَارَبَ زَمَانُ نَبِيٍّ يُبْعَثُ الْآنَ نَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمٍ. فَكُنَّا كَثِيرًا مَا نَسْمَعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ. فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجَبْنَاهُ، حِينَ دَعَانَا إلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَعَرَفْنَا مَا كَانُوا يَتَوَعَّدُونَنَا بِهِ، فَبَادَرْنَاهُمْ إلَيْهِ، فَآمَنَّا بِهِ، وَكَفَرُوا بِهِ، فَفِينَا وَفِيهِمْ نَزَلَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ مِنْ الْبَقَرَةِ: ((وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)). ورحم الله الإمام البوصيري إذ يقول في همزيته:

بَيَّنَتْهُ تَوْرَاتُهُمْ وَالأَنَاجِيـــ*ــلُ وَهُمْ فِي جُحُودِهِ شُرَكَاءُ

إِنْ تَقُولُوا مَا بَيَّنَتْهُ فَمَا زَا * لَتْ بِهِ عَنْ عُيُونِهِمْ غَشْوَاءُ

أَوْ تَقُولُوا قَدْ بَيَّنَتْهُ فَمَا لِلْــــ*ــأُذْنِ عَمَّا تَقُولُهُ صَمَّاءُ

عَرَفُوهُ وَأَنْكَرُوهُ وَظُلْماً * كَتَمَتْهُ الشَّهَادَةَ الشُّهَدَاءُ

جَحَدُوا الْمُصْطَفَى وَآمَنَ بالطَّـ*ـاغُوتِ قَوْمٌ هُمْ عِنْدَهُمْ شُرَفَاءُ

بَلْ تَمَادَتْ عَلَى التَّجَاهُلِ آبَـ*ـاءٌ تَقَفَّتْ آثَارَهَا الأَبْنَاءُ

أَوَ نُورَ الإِلَهِ تُطْفِئُهُ الأَفْـــ*ـــوَاهُ وَهْوَ الذِي بِهِ يُسْتَضَاءُ

كَيْفَ يَهْدِي الإِلَهُ مِنْهُمْ قُلُوباً * حَشْوُهَا مِنْ حَبِيبِهِ الْبَغْضَاءُ

أيّها المسلمون. ومن تلك الأخبار والإرهاصات التي دلّت على صِدق بعثته ونبوّته صلى الله عليه وسلم، حديث سَيْفِ بنِ ذي يَزَنْ الحِمْيري. وذلك فيما ذكره علماء

السِّيَر والدلائل عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا ظَهَرَ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنَ عَلَى الْحَبَشَةِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَوْلِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَنَتَيْنِ، أَتَتْهُ وُفُودُ الْعَرَبِ وَشُعَرَاؤُهَا، تُهَنِّئُهُ وَتَمْدَحُهُ وَتَذْكُرُ مَا كَانَ مِنْ حُسْنِ بَلَائِهِ، وَأَتَاهُ فِيمَنْ أَتَاهُ وَفْدُ قُرَيْشٍ .فِيهِمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ، وَأُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُدْعَانَ، وَخُوَيْلِدُ بْنُ أَسَدٍ. فِي أُنَاسٍ مِنْ وُجُوهِ قُرَيْشٍ. فَقَدِمُوا عَلَيْهِ صَنْعَاءَ. فَإِذَا هُوَ فِي رَأْسِ غُمْدَانَ. فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْآذِنُ فَأَخْبَرَهُ بِمَكَانِهِمْ فَأَذِنَ لَهُمْ. فَدَنَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْكَلَامِ. فَقَالَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ بَيْنَ يَدَيِ الْمُلُوكِ فَقَدْ أَذِنَّا لَكَ. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَلَّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ مَحَلًّا رَفِيعًا. صَعْبًا مَنِيعًا. شَامِخًا بَاذِخًا، وَأَنْبَتَكَ مَنْبَتًا طَابَتْ أَرُومَتُهُ، وَعَزَّتْ جُرْثُومَتُهُ، وَثَبَتَ أَصْلُهُ، وَبَسَقَ فَرْعُهُ، فِي أَكْرَمِ مَوْطِنٍ. وَأَطْيَبِ مَعْدِنٍ. فَأَنْتَ أَبَيْتَ اللَّعْنَ. مَلِكُ الْعَرَبِ، وَرَبِيعُهَا الَّذِي تَخْصَبُ بِهِ الْبِلَادُ، وَرَأْسُ الْعَرَبِ الَّذِي لَهُ تَنْقَادُ، وَعَمُودُهَا الَّذِي عَلَيْهِ الْعِمَادُ، وَمَعْقِلُهَا الَّذِي يَلْجَأُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ، وَسَلَفُكَ خَيْرُ سَلَفٍ، وَأَنْتَ لَنَا مِنْهُمْ خَيْرُ خَلَفٍ. فَلَنْ يَخْمُدَ مَنْ هُمْ سَلَفُهُ، وَلَنْ يَهْلِكَ مَنْ أَنْتَ خَلَفُهُ، وَنَحْنُ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَهْلُ حَرَمِ اللَّهِ، وَسَدَنَةُ بَيْتِهِ. أَشْخَصَنَا إِلَيْكَ الَّذِي أَبْهَجَنَا مِنْ كَشْفِكَ الْكَرْبَ الَّذِي قَدْ فَدَحَنَا، وَفْدُ التَّهْنِئَةِ لَا وَفْدُ الْمَرْزِئَةِ. قَالَ: وَأَيُّهُمْ أَنْتَ أَيُّهَا الْمُتَكَلِّمُ؟ قَالَ: أَنَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ. قَالَ: ابْنُ أُخْتِنَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ادْنُ. فَأَدْنَاهُ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْقَوْمِ فَقَالَ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا. وَنَاقَةً وَرَحْلًا. وَمُسْتَنَاخًا سَهْلًا، وَمَلِكًا رِبَحْلًا. يُعْطِي عَطَاءً جَزْلًا، قَدْ سَمِعَ الْمَلِكُ مَقَالَتَكُمْ، وَعَرَفَ قَرَابَتَكُمْ. وَقَبِلَ وَسِيلَتَكُمْ. فَأَنْتُمْ أَهْلُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَلَكُمُ الْكَرَامَةُ مَا أَقَمْتُمْ. وَالْحِبَاءُ إِذَا ظَعَنْتُمْ، ثُمَّ أُنْهِضُوا إِلَى دَارِ الْكَرَامَةِ وَالْوُفُودِ. فَأَقَامُوا شَهْرًا لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ. وَلَا يَأْذَنُ لَهُمْ بِالِانْصِرَافِ. ثُمَّ انْتَبَهَ لَهُمُ انْتِبَاهَةً فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَأَدْنَى مَجْلِسَهُ وَأَخْلَاهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ. إِنِّي مُفْضٍ إِلَيْكَ مِنْ سِرِّ عِلْمِي، مَا أَنْ لَوْ يَكُونُ غَيْرُكَ لَمْ أَبُحْ بِهِ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُكَ مَعْدِنَهُ; فَأَطْلَعْتُكَ طَلِيعَهُ. فَلْيَكُنْ عِنْدَكَ مَطْوِيًّا حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهِ. فَإِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ: إِنِّي أَجِدُّ فِي الْكِتَابِ الْمَكْنُونِ. وَالْعِلْمِ الْمَخْزُونِ. الَّذِي اخْتَرْنَاهُ لِأَنْفُسِنَا، وَاحْتَجَبْنَاهُ دُونَ غَيْرِنَا. خَيْرًا عَظِيمًا، وَخَطَرًا جَسِيمًا. فِيهِ شَرَفُ الْحَيَاةِ، وَفَضِيلَةُ الْوَفَاةِ. لِلنَّاسِ عَامَّةً. وَلِرَهْطِكَ كَافَّةً. وَلَكَ خَاصَّةً. فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: أَيُّهَا الْمَلِكُ. مِثْلُكَ سَرَّ وَبَرَّ. فَمَا هُوَ؟ فِدَاكَ أَهْلُ الْوَبَرِ زُمَرًا بَعْدَ زُمَرٍ. قَالَ: إِذَا وُلِدَ مَوْلُودٌ بِتِهَامَةْ، غُلَامٌ بِهِ عَلَامَةْ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ شَامَةْ، كَانَتْ لَهُ الْإِمَامَةْ، وَلَكُمْ بِهِ الزَّعَامَةْ. إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةْ. قَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ أَبَيْتَ اللَّعْنَ، قَدْ أُبْتُ بِخَيْرٍ مَا آبَ بِهِ وَافِدٌ، وَلَوْلَا هَيْبَةُ الْمَلِكِ وَإِجْلَالُهُ وَإِعْظَامُهُ; لَسَأَلْتُهُ مِنْ سَارِّهِ إِيَّايَ مَا أَزْدَادُ بِهِ

سُرُورًا. قَالَ ابْنُ ذِي يَزَنَ: هَذَا حِينُهُ الَّذِي يُولَدُ فِيهِ، أَوْ قَدْ وُلِدَ. وَاسْمُهُ مُحَمَّدٌ. يَمُوتُ أَبُوهُ وَأُمُّهُ، وَيَكْفُلُهُ جَدُّهُ وَعَمُّهُ، وَلَدْنَاهُ مِرَارًا. وَاللَّهُ بَاعِثُهُ جِهَارًا، وَجَاعِلٌ لَهُ مِنَّا أَنْصَارًا. يُعِزُّ بِهِمْ أَوْلِيَاءَهُ، وَيُذِلُّ بِهِمْ أَعْدَاءَهُ، وَيَضْرِبُ بِهِمُ النَّاسَ عَنْ عُرْضٍ، وَيَسْتَبِيحُ بِهِمْ كَرَائِمَ الْأَرْضِ. يَكْسِرُ الْأَوْثَانَ، وَيُخْمِدُ النِّيرَانَ، وَيَعْبُدُ الرَّحْمَنَ. وَيَدْحَرُ الشَّيْطَانَ، قَوْلُهُ فَصْلٌ. وَحُكْمُهُ عَدْلٌ، يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَفْعَلُهُ. وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُبْطِلُهُ. فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: أَيُّهَا الْمَلِكُ. عَزَّ جَدُّكَ، وَعَلَا كَعْبُكَ، وَدَامَ مُلْكُكَ، وَطَالَ عُمُرُكَ، فَهَذَا نِجَارِي. فَهَلِ الْمَلِكُ سَارَّنِي بِإِفْصَاحٍ، فَقَدْ وَضَّحَ لِي بَعْضَ الْإِيضَاحِ. فَقَالَ ابْنُ ذِي يَزَنَ وَالْبَيْتِ ذِي الْحُجُبِ. وَالْعَلَامَاتِ عَلَى النُّقُبِ، إِنَّكَ يَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ لَجَدُّهُ غَيْرَ كَذِبٍ. فَخَرَّ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ سَاجِدًا. فَقَالَ: ارْفَعْ رَأْسَكَ. ثَلَجَ صَدْرُكَ، وَعَلَا أَمْرُكَ. فَهَلْ أَحْسَسْتَ شَيْئًا مِمَّا ذَكَرْتُ لَكَ؟ فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ. كَانَ لِيَ ابْنٌ وَكُنْتُ بِهِ مُعْجَبًا، وَعَلَيْهِ رَفِيقًا. فَزَوَّجْتُهُ كَرِيمَةً مَنْ كَرَائِمِ قَوْمِهِ. آمِنَةَ بِنْتَ وَهْبٍ. فَجَاءَتْ بِغُلَامٍ. سَمَّيْتُهُ مُحَمَّدًا. فَمَاتَ أَبُوهُ وَأُمُّهُ. وَكَفَلْتُهُ أَنَا وَعَمُّهُ. قَالَ ابْنُ ذِي يَزَنَ: إِنَّ الَّذِي قُلْتُ لَكَ كَمَا قُلْتَ. فَاحْتَفِظْ بِابْنِكَ، وَاحْذَرْ عَلَيْهِ الْيَهُودَ. فَإِنَّهُمْ لَهُ أَعْدَاءٌ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَيْهِ سَبِيلًا، وَاطْوِ مَا ذَكَرْتُ لَكَ دُونَ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ الَّذِينَ مَعَكَ؛ فَإِنِّي لَسْتُ آمَنُ أَنْ تُدْخِلَهُمُ النَّفَاسَةُ. مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكُمُ الرِّيَاسَةُ. فَيَطْلُبُونَ لَهُ الْغَوَائِلَ، وَيَنْصِبُونَ لَهُ الْحَبَائِلَ. فَهُمْ فَاعِلُونَ أَوْ أَبْنَاؤُهُمْ، وَلَوْلَا أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ مُجْتَاحِي قَبْلَ مَبْعَثِهِ؛ لَسِرْتُ بِخَيْلِي وَرَجِلِي حَتَّى أُصَيِّرَ يَثْرِبَ دَارَ مُلْكِي. فَإِنِّي أَجِدُ فِي الْكِتَابِ النَّاطِقِ. وَالْعِلْمِ السَّابِقِ. أَنَّ بِيَثْرِبَ دارُ مُلكه. واسْتِحْكَامُ أَمْرِهِ، وَأَهْلُ نُصْرَتِهِ، وَمَوْضِعُ قَبْرِهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أَقِيهِ الْآفَاتِ، وَأَحْذَرُ عَلَيْهِ الْعَاهَاتِ. لَأَعْلَنْتُ عَلَى حَدَاثَةِ سِنِّهِ أَمْرَهُ، وَلَأَوْطَأْتُ عَلَى أَسْنَانِ الْعَرَبِ عَقِبَهُ، وَلَكِنِّي صَارِفٌ ذَلِكَ إِلَيْكَ، عَنْ غَيْرِ تَقْصِيرٍ بِمَنْ مَعَكَ. قَالَ: ثُمَّ أَمَرَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِعَشَرَةِ أَعْبُدٍ وَعَشْرِ إِمَاءٍ، وَبِمِائَةٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَحُلَّتَيْنِ مِنَ الْبُرُودِ، وَبِخَمْسَةِ أَرْطَالٍ مِنَ الذَّهَبِ. وَعَشَرَةِ أَرْطَالٍ فِضَّةٍ، وَكَرِشٍ مَمْلُوءٍ عَنْبَرًا، وَأَمَرَ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِعَشْرَةِ أَضْعَافِ ذَلِكَ، وَقَالَ لَهُ: إِذَا حَالَ الْحَوْلُ فَأْتِنِي. فَمَاتَ ابْنُ ذِي يَزَنَ قَبْلَ أَنْ يَحُولَ الْحَوْلُ. فَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ كَثِيرًا مَا يَقُولُ: لَا يَغْبِطْنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ بِجَزِيلِ عَطَاءِ الْمَلِكِ. فَإِنَّهُ إِلَى نَفَادٍ، وَلَكِنْ لِيَغْبِطْنِي بِمَا يَبْقَى لِي وَلِعَقِبِي مِنْ بَعْدِي ذِكْرُهُ. وَفَخْرُهُ وَشَرَفُهُ. فَإِذَا قِيلَ لَهُ مَتَى ذَلِكَ؟ قَالَ: سَيُعْلَمُ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ. أيّها المسلمون. هذا غيض من فَيض، وقليل من كثير. من الدلائل الصادقة. والبشائر السابقة. عن مبعث سيّد العرب والعجم. الذي أنبأ بشرفه الفصيح والأعجم. سيّدنا ومولانا محمّد صلى الله عليه وسلم. فكل هذه الأخبار والأعلام.

اعتناء من الله عزّ وجلّ بنبيّه وحبيبه صلى الله عليه وسلم. عنايةً فائقة، ألم يقل سبحانه في سورة طه: ((وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)). وقال في سورة الطور: ((فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)). صلى الله عليه وسلم. وشرّف وكرّم. ومجّد وعظّم. ووالى عليه ذلك وأنعم. اللهم نوّر بصائرنا بنور محبّته. واستعمل جوارحنا لاتّباع سنّته. واختم أعمارنا على ملّته. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. والحمد لله رب العالمين.اهـ

03- الإرهاصاتُ الواضِحةُ الجلِيّةُ تمهِيدٌ لِبعثةِ خيرِ البرِيّةِ

الحمد لله الذي أرسل رسوله سيّدنا محمّدا صلى الله عليه وسلم. بالهدى ودين الحقّ. ليظهره على الدين كلّه. واختاره وقدّمه على جميع أنبيائه ورسله. وبعثه رحمة للخلق. فأرشدهم إلى طريق الحقّ بقوله وفعله. وجعله فاتحا خاتما تندرج الخلائق في شفاعته وتحت ظلّه. نحمده تعالى ونشكره أن أسبغ على عباده المومنين نِعما جمّا. وبعث فيهم رسولا من أنفسِهم وأشرفِهم عربا وعجما. وأرجحِهم عقلا وحِلما. وأوفرِهم عِلما وفهما. وأقواهم يقينا وعزما. وأزكاهم روحا وجسما.

مَدِيحُ رَسُولِ اللهِ أَشْرَفُ مَقْصِدِ * وأنفعُ ما يبرا بِه داءُ عِلّتِي

لقد زاد حُبّي فيه والقلبُ هائمُ * وَلَمْ يَبْقَ إلاَّ حُبُّ أَحْمَدَ عُمْدَتِي

تَوَسَّلْتُ يَا رَبِّي إِلَيْكَ بِحُبِّهِ * لِتَغْفِرَ زَلاَّتِي وَتَقْبَلَ تَوْبَتِي

فَقَد نَالَ من رَبّ العُلَى غَايَةَ الرّضَا * عَسَاهُ يُنَجِّينا إِذَا النَّعْلُ زَلَّتِ

صَلاَتُكَ رَبِّي وَالسَّلاَمُ عَلَى النَّبِي * وَآله والصَّحب العُلاَ خَيرَ أُمَّة

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، أسدى إلينا نعمًا غداقًا، وأولانا مِنَنًا دفاقًا، تفضّلا منه سبحانه. لا وجوبًا واستحقاقًا، فأكرمنا بسيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم. أزكى البرايا محتدًا وأعراقًا، وأظهرهم شمائلَ وأخلاقًا، وأسماهم سيرةً عمَّت الدُّنا إشراقًا، وأشهد أنّ سيّدنا محمّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى، وَنَبِيُّهُ المُجْتَبَى، وَرَسُولُهُ المرْتَضَى، بَعَثَهُ بِالنُّورِ المُضِيّ، وَالأَمْرِ الْمَرْضِيِّ، عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ

الرُّسُلِ، وَدُرُوسٍ مِنَ السُّبُلِ، فَدَمَغَ بِهِ الطُّغْيَانَ، وَأَظْهَرَ بِهِ الإِيمَانَ، وَرَفَعَ دِينَهُ عَلَى سَائِرِ الأَدْيَانِ؛

فعليه صلُّوا كلُّكم وتمتّعوا * يا حاضرين بمدحه وتتبّعوا

آثاره وتوسّلوا وتشفّعوا * فملاذُنا المولى المعظّمُ أحمد

صلّوا على خير البريّة تسعدوا

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد الهادي إلى طريق الخير والرشاد. وعلى آله الأئمّة الزهّاد. وصحابته السادة الأمجاد. صلاة تستر بها عوراتنا بين العباد. وتصلح بها منّا الأزواج والأولاد. وتكفّ بها عنّا يد أهل الظلم والفساد. وتجيرنا بها من شرّ البغاة والحسّاد. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنَّ الحديثَ عن الحبيب المصطَفى. والرسول المجتبى. والخاتم المقتَفَى. سيّدنا محمّد صلواتُ الله وسلامه عليه. لهو حديثٌ عَذبُ المذاق، مُجرٍ لدموع المآق، بَلسَم لجفوة القلوب. ولقَسوَتها تِرياق، كيف لا؟! وهو رسول الملِك العلاّم. وحامِل ألوية العدلِ والسّلام. ومُخرج البشريّة بإذن ربِّها من دياجير الإنحطاطِ. والوثنية والظلام. ووِهاد الأرجاس والآثام. إلى أنوار التوحيدِ والإيمان والوئام؟! أمَنُّ النّاس على كلِّ مسلم ومسلمة، وأحقُّهم نَقلاً وعقلاً بالمحَبّة الوادِقة. والطاعة الصادقة، قال تعالى في سورة آل عمران: ((لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)). إنّها لنعمة عظمى. ومنّة كبرى. أن بعث الله رسوله رحمةً للعالمين. وهدىً للمستبصرين. ونورًا يبدّد ظُلم الفتن والجاهليات. فأحيا به قلوبًا ميتة. وأسمع به آذانًا صمًّا. وأنار به أعينًا عميًا. وجعل رسالته خاتمة خالدة. فهي أعظمُ الرسالات وأشملُها، وقد أحاطها الله بعنايته، وشملها برعايته، وجعل لها دلائل باهرة، وعلامات ظاهرة، قبل مبعثه بل قبل ولادته صلى الله عليه وسلم، وكانت هذه الدلائل. إرهاصات وبشائر على مبعثه صلى الله عليه وسلم، فأوّل هذه البشارات وأهمّها. بشارة الأنبياء بمعثه عليه الصلاة والسلام، فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة الصف: ((وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)). وذلك أنّ الكتب السماوية

المنزّلة على الأنبياء السابقين عليهم السلام، بشّرت بمبعث النبيّ الخاتم. صلى الله عليه وسلم. قال تعالى في سورة الأعراف: ((الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)). ومنها، ما رواه الطبراني من حديث سيّدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما عن أبيه أنّ أمية بن أبي الصلت الثقفي قال له: إنّي أجد في الكتب صفة نبيّ يبعث من بلادنا، وكنت أظنّ أنّي هو، وكنت أتحدّث بذلك، ثم ظهر لي أنّه من بني عبد مناف، قال: فنظرت فلم أجد فيهم من هو متّصف بأخلاقه. إلاّ عتبة بن ربيعة. إلاّ أنّه قد جاوز الأربعين ولم يوح إليه، فعرفت أنّه غيره. قال أبو سفيان: فلمّا بُعث محمّد صلى الله عليه وسلم. قلت لأميّة عنه. فقال: أَمَا إنّه حقّ فاتَّبعه، فقلت له: وأنت ما يمنعك؟ قال: الحياء من نساء ثقيف أنّي كنت أخبرهنّ أنّي أنا هو، ثم أصير تبعاً لفتىً من بني عبد مناف. فهذه علامة وبشارة واضحة تدلّ على نبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما منع هذا الرجل من الإيمان به بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم مع علمه أنّه حقّ. إلا الكبر عياذاً بالله. أيّها المسلمون. ومن تلك الدلائل والبشائر، بشارات أهل الكتاب من أحبار اليهود ورهبان النصارى، فقد روى الإمام أحمد من حديث سلمة بن وقش قال: كان لنا جار من اليهود بالمدينة فخرج علينا قبل البعثة بزمان. فذكر الحشر والجنّة والنار، فقلنا له: وما آية ذلك؟ قال: خروج نبي يبعث من هذه البلاد. وأشار إلى مكة فقالوا: متى يقع ذلك؟ قال: فرمى بطرفه إلى السماء. وأنا أصغر القوم. فقال: إن يستنفد هذا الغلام عُمُره. يدركه، قال: فما ذهبت الأيام والليالي حتى بعث الله نبيّه صلى الله عليه وسلم وهو حي. أي اليهودي. فآمنّا به وكفر هو. بغياً وحسداً. أمّا العلامات والإرهاصات التي سبقت نبوّته صلى الله عليه وسلم وكانت عند مولده وبعده، فمنها ما رواه الإمام أحمد والبزّار والبيهقي عَنْ الْعِرْبَاض بْن سَارِيَة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنِّي عِنْد الله لَخَاتَم النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَم لَمُنْجَدِل فِي طِينَته. وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: أنا دَعْوَة أَبِي إِبْرَاهِيم. وَبِشَارَة عِيسَى بِي. وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ. وَكَذَلِكَ أُمَّهَات النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ. وإِنّ أُمّ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأت حين وضعته نورا أضاءت منه قصور الشام)). ومن تلك الإرهاصات التي دلّت على بعثته ونبوّته صلى الله عليه وسلم، حادثة الفيل. والتي

كانت تمهيدا لمبعثه عليه الصلاة والسلام، قال الإمام ابن كثير رحمه الله وهو يتحدّث عن حادثة الفيل: كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنّه في ذلك العام وُلد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرّفه ونعظّمه ونوقّره ببعثة النبيّ الأميّ محمّد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء. ومن هذه الإرهاصات أيضاً. ما جاء في قصّة حليمة السعدية حين أخبرت أنّها لمّا أخذته من أمّه، كثر اللبن في ثديها، ووجد زوجها اللبن في ناقته، وكثر اللبن في شياهها، إلى غير ذلك من الأمور التي خرجت عن مألوف العادة، وحصلت ببركة وجود النبيّ صلى الله عليه وسلم بينهم. ومنها حادثة شقّ صدره صلى الله عليه وسلم. ولمّا اقترب النبيّ صلى الله عليه وسلم من الأربعين من عمره الشريف، بدأت تباشير النبوّة وإرهاصاتها، تلوح في أفق حياته، فمنها تسليم الحجر والشجر عليه. زاده الله فضلا وشرفا لديه. روى ابن سعد في طبقاته عن برّة بنتِ أبي تِجْراة قالت: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله كرامته. وابتدأه بالنبوة. كان إذا خرج لحاجته أبعد. حتى لا يرى بيتا. ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية. فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله. وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحدا. فهذه أولى إرهاصات وتباشير النبوّة، صوتٌ يلقى في أذنه صلى الله عليه وسلم. "السلام عليك يا رسول الله". دون أن يرى أثراً أو أن يرى أحداً، يؤيِّد هذا ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم. عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنّي لأعرف حجرا كان يسلّم عليّ قبل أن أبعث إنّي لأعرفه الآن)). وروى الترمذي والدارمي. عن سيّدنا علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي عنه قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِمَكَّةَ فَخَرَجْنَا مَعَهُ فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا فَمَرَرْنَا بَيْنَ الْجِبَالِ وَالشَّجَرِ فَلَمْ نَمُرَّ بِشَجَرَةٍ وَلاَ جَبَلٍ إِلاَّ قَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. أيّها المسلمون. إنّ الإنسان حينما تعرض له حوادث غريبة. خارقة للعادة، تثير في نفسه شيئاً من القلق والخوف، يكون بحاجة ماسّة إلى شخص يثق به. يبثّه ما يجده، من قلقه وتساؤله. فكان عليه الصلاة والسلام يأتي إلى البيت، ويحدِّث زوجه السيّدة خديجة رضي الله عنها بما يشعر به، إذ كانت أقرب الناس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم روحاً وجسداً، فهي أهله وسكنه، وأُنس روحه ونفسه رضي الله عنها، وصدق الله تعالى إذ يقول في سورة الروم: ((وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ

أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)). إذاً لحكمةٍ بالغةٍ. جعل الله هذه الزوجة ذات القلب الكبير، والإدراك العميق، والصدر الواسع، وقوّة التحمُّل، كانت سكناً للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وعوناً له ومثبّتاً. روى الإمام أحمد عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما. أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِخَدِيجَةَ رضي الله عنها: ((إِنِّي أَرَى ضَوْءاً وَأَسْمَعُ صَوْتاً. وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بِي جَنَنٌ، قَالَتْ: لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ، ثُمَّ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِنْ يَكُ صَادِقاً فَإِنَّ هَذَا نَامُوسٌ مِثْلُ نَامُوسِ مُوسَى. فَإِنْ بُعِثَ وَأَنَا حَيٌّ فَسَأُعَزِّزُهُ وَأَنْصُرُهُ وَأُومِنُ بِهِ)). وروى ابن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه رضي الله عنهم. أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((يا خديجة إنّي أرى ضوءا وأسمع صوتا. لقد خشيت أن أكون كاهنا. قالت: إنّ الله تعالى لا يفعل ذلك بك. إنّك تصدق الحديث. وتؤدّي الأمانة. وتصل الرحم)).. إنّها حكمة الله التي ما بعدها حكمة. أنّ هذه الزوجة آتاها الله من العقل، ومن النُضج، ومن بُعد النظر، ومن سعة الأفق، ومن قوّة القلب. الشيء العجيب، أيّها المسلمون. ومن الإرهاصات والبشائر التي كانت تمهيدا ومقدّمة لبعثته ونبوّته صلى الله عليه وسلم، الرؤيا الصادقة، وهي أوّل ما بُدئ له من الوحي، ففي جامع الترمذي عَنْ السيّدة عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا ابْتُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النُّبُوَّةِ. حِينَ أَرَادَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ وَرَحْمَةَ الْعِبَادِ بِهِ. أَنْ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ. وَحُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلْوَةُ. فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ. وروى أبو نعيم عن علقمة بن قيس قال: إنّ أوّل ما يؤتى به الأنبياء في المنام. حتى تهدأ قلوبهم. ثم ينزل الوحي. إذ الرؤيا الصادقة نوعٌ من الإعلام المباشر، الذي يريكه الله تعالى. كما في موطّأ الإمام مالك رحمه الله تعالى عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ. جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ)). وكان عليه الصلاة والسلام كلمّا رأى رؤيا قصّها على السيّدة خديجة رضي الله عنها، فتثبّته وتبشّره، فهي سكنه الذي يرتاح إليه. ويطمئنّ له. روى البيهقي عن الزهري رحمه الله قال: بلغنا أنّ أوّل ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ الله تعالى أراه رؤيا فشقّ ذلك عليه. فذكرها لخديجة. فقالت: أبشر. فإنّ الله لن يصنع بك إلاّ خيرا. قال علماء السير: استمرَّت مرحلة الرؤيا الصادقة ستّة أشهر، فيها توطئةٌ لنزول الوحي عليه يقظةً، وقد حبّب الله تعالى إليه في أثناء

هذه المرحلة الخلوة لنفسه. والعزلة عن الناس. والعلماء قالوا: الإستئناس بالناس من علامات الإفلاس، فكان عليه الصلاة والسلام يعتكف في غار حراء الليالي ذوات العدد، وتزوِّده السيّدة خديجة رضي الله عنها بما يحتاج إليه من طعامٍ وشراب، فإذا نفد زاده، رجع صلى الله عليه وسلم إلى السيّدة خديجة، فتزوِّده بطعام وشراب يكفيه أيّاما معدودات، يجلس وحده يتأمَّل، يفكّر، يناجي، ففي الصحيحين عَنْ السيّدة عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: ((أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْوَحْيِ. الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ. فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ. وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ. وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ. قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ. ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا)). مرَّت الشهور كان فيها تمهيد للوحي؛ وكلّما دنا الموعد الذي قدَّره الله الحكيم العليم. ببدء الوحي. ونزول القرآن الكريم، زادت هواتف الحقّ واشتد النور، وكلّما سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم شيئاً جديداً، لجأ إلى السيّدة خديجة رضي الله عنها، فتثبّته وتبشّره، وبهذا ظهرت حكمة الله تعالى عندما قدَّر أن تكون هذه السيّدة العاقلة الرشيدة الكريمة، ذات القلب الكبير، والصدر الحنون، والأفق الواسع. مولاتنا السيّدة خديجة رضي الله عنها، زوجةً لهذا النبيّ الكريم صلى الله عليه وسلم. أيّها المسلمون. ومن إرهاصات نبوّته عليه الصلاة والسلام. طرد الشياطين. وحجبهم من استراق السمع عند مبعثه. بكثرة تساقط النجوم. قال ابن إسحاق: لمّا تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وحضر مبعثه. حجبت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد فيها. فرموا بالنجوم. فعرف الجنّ أنّ ذلك لأمر حدث من الله في العباد، يقول الله تعالى لنبيّه حين بعثه يقصّ عليه خبرهم إذ حجبوا. قال سبحانه في سورة الجن: ((وَإنّا لَمَسْنَا السّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا. وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا)). وذلك لئلا يلتبس أمر الوحي بشيء من خبر الشياطين. وقد أشار الإمام البوصيري رحمه الله تعالى في همزيته إلى هذه البشائر والإرهاصات فقال:

وَأَحَادِيثُ أَنَّ وَعْدَ رَسُولِ اللهِ * بِالْبَعْثِ حَانَ مِنْهُ الْوَفَاءُ

أَلِفَ النُّسْكَ وَالْعِبَادَةَ وَالْخَلْـ*ــوَةَ طِفْلاً وَهَكَذَا النُّجَبَاءُ

وَإِذَا حَلَّتِ الْهِدَايَةُ قَلْباً * نَشِطَتْ لِلْعِبَادَةِ الأَعْضَاءُ

بَعَثَ اللهُ عِنْدَ مَبْعَثِهِ الشُّهْــبَ * حِرَاساً وَضَاقَ عَنْهَا الْفَضَاء

تَطْرُدُ الْجِنَّ عَنْ مَقَاعِدَ لِلسَّمْـــ*ــعِ كَمَا تَطْرُدُ الذِّئَابَ الرِّعَاءُ

فَمَحَتْ آيَةَ الْكَهَانَةِ آيَــــ*ـــاتٌ مِنَ الْوَحْيِ مَالَهُنَّ انْمِحَاءُ

أيّها المسلمون: كل هذه الدلائل والإرهاصات. اعتناء من الله عزّ وجلّ بنبيّه وحبيبه صلى الله عليه وسلم. عنايةً فائقة، ألم يقل سبحانه في سورة طه:((وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)). وقال في سورة الطور: ((فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)). صلى الله عليه وسلم. وشرّف وكرّم. ومجّد وعظّم. ووالى عليه ذلك وأنعم. اللهم نوّر بصائرنا بنور محبّته. واستعمل جوارحنا لاتّباع سنّته. واختم أعمارنا على ملّته. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. والحمد لله رب العالمين.اهـ

مراحل السيرة النبوية

01- أسبقيّة النّور المحمّدي صلّى الله عليه وآله وسلّم

الحمد لله الذي بدأ بأخذ العهد لنفسه على أرواح جميع بني آدم في عالم الذَّرِّ. وأشهدهم على أنفُسهم وأقرَّهم على اعتقاد الربوبية المطلقة له. فقال جلّ من قائل في سورة الأعراف: ((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمِ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا))، وثَنَّى بأخذ الميثاق لحبيبه ومصطفاه. سيّدنا ومولانا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. على جميع الأنبياء والمرسلين. الذين هم صفوة خلق الله. فقال سبحانه في سورة آل عمران: ((وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيئِينَ لَمَا ءَاتَيْنَاكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثمّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتنصرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ)). وأشهد أن لا إله إلا الله. وحده لا شريك له. الواحد القهّار. وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسله. وصفيّه وخليله. الذي بنوره أشرقت الأنوار. وبمحبّته واتّباع سنّته تطهّرت من دنسها القلوب والأسرار.

صلاتك ربّ والسّلام على النبيّ * صلاة لها ريح من المسك أطيب

بِنُورِ رسولِ اللهِ أشْرَقَتِ الدُّنَا * فَفِي نُورِهِ كُلُّ يَجِيءُ ويَذْهَبُ

بَراهُ جَلاَلُ الحقّ للخَلْقِ رَحْمَةً * فَكُلُّ الوَرَى في بِرِّه يَتَقَلَّبُ

بَدَا مَجْدُهُ مِنْ قَبْلِ نَشْأةِ آدَمٍ * وَأسْمَاؤهُ فِي العَرْشِ مِنْ قَبْلُ تُكْتَبُ

بِمَبْعثه كُلُّ النَبِيِّينَ بَشَّرَتْ * وَلاَ مُرْسَلٌ إلاَ لَهُ كَانَ يَخْطُبُ

بِتَوْرَاةِ مُوسَى نَعْتُهُ وَصِفَاتُهُ * وَإنْجِيلُ عِيسَى بِالمَدَائحِ يُطْنَبُ

بَشِيرٌ نَذِيرٌ مُشْفِقٌ مُتَعَطِّفٌ * رَؤوفٌ رَحِيمٌ مُحْسِنٌ مُتَأدِّبُ

بِعِزَّتِه سُدْنَا على كَلِّ أمَّةٍ * وَمِلَّتُنَا فِيهَا النَّبِيُّونَ تَرْغَبُ

اللهمّ صلِّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. وعلى آله وصحبه. ومَنْ تبعَهُمْ بِإحسانٍ إِلَى يومِ الدينِ. **أمَّا بعدُ:** فيا أيّها المسلمون. إنَّ من يقف متحدّثاً عن حضرة الحبيب المصطفى. سيّدنا ومولانا محمّد صلّى الله عليه وسلّم. يقف في مقام المتحيّر.

فحقيقته صلّى الله عليه وسلّم لا يعرفها إلاّ الله جلّ وعلا. والعقول مهما أتاها الله سبحانه وتعالى من فطنة وإدراك. لنْ تحيطَ بهذا النّور الرباني. الذي تمثّل في صورة سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم. فقال ربّنا تبارك وتعالى في سورة المائدة: ((قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ)). إنّ هذا النّور الإلهي. هو العماد الرئيسي. والأساسي لهذا الكون. إذ هو علّة الوجود. والسّبب في كلّ موجود. وقد أجاد ابن نباتة المصري حين قال:

لَوْلَاهُ مَا كَانَ أَرْضٌ وَلَا أُفُقٌ * وَلَا زَمَانٌ وَلَا خَلْقٌ وَلَا جِيلُ

وَلَا مَنَاسِكُ فِيهَا لِلْهُدَى شُهُبٌ * وَلَا دِيَارٌ بِهَا لِلْوَحْيِ تَنْزِيلُ

جاء في الأثر. عن كثير من أهل العلم. أنّ الله تعالى لمّا أراد أن يخلق المخلوقات. وأن يبسط الأرض ويرفع السماوات. ويخلق الجنّة والنّار. ويجعل الحساب والعقاب. قبض قبضة من نوره. فقال لها كوني "محمّدا". فتشكّلت عمودا نورانيّا. فسجد هذا العمود النورانيّ تحت حجاب العظمة. وهو يقول: الحمد لله. الحمد لله. فقال ربّ العزّة جلّ وعلا: من أجل ذلك سمّيتك محمّدا. ومنك أبدأ الخلق. وبك أختم الرسل. وجاء كذلك في الأثر الشريف. أنّ آدم عليه السلام لمّا كان في الجنّة. كان يكنّى بأبي محمّد. فقال: يا ربّ لم كنّيتني بأبي محمّد؟. فأجابه الحقّ تبارك وتعالى: يا آدم إرفع رأسك. فرفع آدم عليه السلام رأسه. فرأى نورا يغمر سرادقات العرش. فقال عليه السلام: يا ربّ ما هذا النّور الذي أرى؟ فأجابه الحقّ تبارك وتعالى: يا آدم هذا نور نبيّ من ذريّتك. إسمه في السماء أحمد. وفي الأرض محمّد. ولولاه ما خلقتك ولا خلقت سماء ولا أرضا.

وآدم في الفردوس يشهد نوره * يزيد على الأنوار في الضوء والهدى

فقال إلهي ما الضياء الذي أرى * جنود السما تعشو إليه تردّدا

فقال نبيّ خير من وطئ الثرى * وأفضل من في الأرض راح أو اغتدى

تخيّرته من قبل خلقك سيّدا * وألبسته قبل النبيّين سؤددا

فيشفع في إنقاذ كلّ موحّد * ويدخله جنّات عدن مخلّدا

وإنّ له أسماء سمّيته بها * ولكنّني أحببت منها محمّدا

صلّى الله عليه وسلّم. أيّها المسلمون. إذا تمعنّا وتحقّقنا في القرآن الكريم. وقرأناه بعيون قلوبنا وبصائرنا. ندرك حقيقة أوّليته صلّى الله عليه وسلّم في الخلق. فالقرآن الكريم يثبت أنّه لا دين غير الإسلام. لقوله تعالى في سورة آل عمران: ((إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)). وقال تعالى في سورة آل عمران: ((وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)). وقال تعالى في سورة : ((أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ تبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ ترْجَعُونَ)). كما يثبت القرآن كذلك أنّ الأنبياء من المسلمين. قال تعالى في سورة يونس على لسان سيّدنا نوح عليه السلام: ((فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)). وقال تعالى في سورة آل عمران: ((مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا)). وقال تعالى في سورة المائدة على لسان الحواريّين الذين كانوا مع سيّدنا عيسى عليه السلام: ((قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ))). وقال تعالى في سورة الذاريات على لسان لوط عليه السلام: ((فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ)). وهكذا الآيات الأخرى. ولكن عندما يأتي الكلام عن الحبيب المصطفى. والرسول المجتبى. سيّدنا ومولانا محمّد صلّى الله عليه وسلّم. يختلف التعبير. قال تعالى في سورة الأنعام: ((قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ)). وقال تعالى في سورة الأنعام: ((قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)). وقال تعالى في سورة الزمر: ((وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)). نلاحظ أنّ القرآن الكريم عبّر عن كلّ الأنبياء بأنّهم من المسلمين. ولكنّ النبيّ الأعظم صلّى الله عليه وسلّم عبّر عنه بأنّه أوّل المسلمين. كذلك نرى تقديمه صلّى الله عليه وسلّم في آية أخذ الميثاق على النبيئين. قال تعالى في سورة الأحزاب: ((وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا)). فقوله تعالى: ((وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ)). هذا هو الميثاق الخاصّ بالنبيّين. أمّا قوله تعالى: ((وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا)). هذا هو الميثاق الغليظ. الخاصّ بأُولي العزم من الرسل. فنلاحظ في هذا الميثاق الغليظ. كيف أنّ التّسلسل الزماني محفوظ للأنبياء أولي العزم. إلاّ النبي الأكرم. صلى الله عليه وسلم. فهو مقدّم عليهم. فلنا أن نتساءل! لماذا لم تقل الآية: ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ومنك ؟! لماذا قالت منك أوّلا ؟! ثمّ ذكرت نوح ومن بعده من أولي العزم ؟! فالجواب عن

ذلك: أنّه صلى الله عليه وسلم هو أوّل من قال: ((بَلى)). عندما خاطبنا الله جلّ وعلا في عالم الذرّ. بقوله في سورة الأعراف: ((أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)). قال تعالى: ((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا))، روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: ((إنّ بعض قريش قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: بأيّ شيء سبقتَ الأنبياء وأنت بُعِثت آخِرهم وخاتمهم؟ قال: إنّي كنتُ أوّل من آمن بربّي، وأوّل من أجاب حيث أخذ الله ميثاق النبيّين "وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربّكم"، فكنتُ أنا أوّل نبيّ قال بلى. فسبقتهم بالإقرار بالله عزّ وجلّ)). قال تعالى في سورة الزخرف: ((قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ))، أيْ يا من تزعمون أنّ لله ولد. متى كان له هذا الولد. فأنا أوّل من عبد الله. فلو كان ما تقولونه صحيحا. لعرفته. لأنّني أوّل العابدين. وأوّل المطيعين لله تعالى. أخرج أبو نعيم في الدلائل. وابن أبي حاتم في تفسيره. والديلمي. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: ((كُنْتُ أَوَّلَ الأَنْبِياءِ فِي الخَلْقِ، وآخِرَهُمْ فِي البَعْثِ))، وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: ((إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ، دَعْوَةِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ. وَبِشَارَةِ عِيسَى قَوْمَهُ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ، وَكَذَلِكَ تَرَى أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ))، رواه الإمام أحمد والطبراني والحاكم وأبو نعيم والبيهقي. أيّها المسلمون. إنَّ الوسيلةَ الكبرى للعباد هو حضرة الحبيب المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم. قال تعالى في سورة المائدة: ((يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ)). فمن أرادَ الرّحمة والمغفرة. والقرب في الدّارين من الله تعالى. فما عليه إلاّ أن يبادر إلى طرقِ بابِ المصطفى صلى الله عليه وسلم. ويناديه بلسانِ العاشقينَ. وبقلبِ المحبّينَ. وبروحٍ فانيةٍ بمحبّته صلى الله عليه وسلم. كي ينالَ مبتغاه ومرامه. فهو الباب الذي لا يغلق. ولا يُدخل إلى رحمة الله تعالى إلاّ من خلاله. قال تعالى في سورة النساء: ((وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّاباً رَّحِيماً)). اللّهُمَّ يا باسِط اليدين بالعَطِيَّة، يا من إذا رُفِعتْ إليه أكُفُّ العَبدِ كَفاه. نَسْألكَ اللّهُمَّ ونَتَوَسَّلُ إليكَ بشَرَفِ الذّاتِ المُحَمَّدِيّة، ومن هو آخِرُ الأنبياءِ بصُورَتِه وأوَّلُهُم بمَعْناه. أن تُوَفِّقَنا في الأقْوالِ والأعْمالِ لإخْلاصِ النيَّة. وتَمْحُو عَنَّا كُلَّ ذنْبٍ جَنَيْناه. وأن تغنينا عمّن سواك ولا تسلّط علينا من لا يخافك لجهله بسطوتك القويّة.

وأن تكفينا شماتة الأعداء وعضال الدّاء وخيبة الرّجاء في الحال والإستقبال. اللّهمّ وأصلح من كان في صلاحه صلاح المسلمين وسدّد الولاّة وعطّفهم على الرّعيّة. واختم لنا بحسن الخاتمة وأمّنّا في تقلبّات الأحوال. واجعلنا اللّهمّ من خواصّ هذه الأمّة المحمّدية. سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين على كلّ حال.اهـ

02- إبتهاج الوجود بمولد النبيّ المحمود شريف الآباء والجدود صلى الله عليه وآله وسلم

الحمد لله الذي شرّف شهر ربيع الأنور بمولد قمر الجود والوفاء. الذي اختاره الله تعالى واصطفاه عن جميع خلقه. فكان مختارا مصطفى. وتوّجَه بتاج الكمال. وآتاه من الإنعام والإفضال عزّاً وشرفاً. النبيّ الكريم. والرسول العظيم. الموصوف بأحسن الأوصاف. وأجلّ المناقب. فهو سيّدنا ومولانا محمّد بن عبد الله. من عنصر لؤي بن غالب.

عليهِ مِن المُهيمنِ كُلَّ وقتٍ * صلاةٌ ما بَدَا نورُ الكَواكِبْ

تَعُمُّ الآلَ والأصحابَ طُرّاً * جَـمِيعَهُمُ وعِترتَهُ الأطَايِبْ

فسبحانه من إله رحيم. شرّف مولد هذا النبيّ الكريم. فجعله للمومنين سرورا. وللمحبّين ربيعا. وكان صلى الهص عليه وسلم لأمّته في الدنيا رسولا. وفي الآخرة رحيما بهم وشفيعا. وأمره ربّه بإظهار شرفه عليهم. فكان لقوله سميعا. ولأمره مطيعا. فقال له في سورة الأعراف: ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً)).

صُبْحَ الهُدى ملأَ الوجودَ سُرورا * لمّا بدا وجْهُ الحبيبِ مُنيراً

أطْلعْتَ يا شهْرَ الرّبيعِ مُشرَّفاً * قمراً يفوقُ معَ الكمالِ بُدوراً

شهرُ الرّبيعِ أتى بمولدِ أحمدٍ * ولقدْ أتانا بالهناءِ بَشيراً

لمّا بدا وجْهُ الحبيبِ تلألأتْ * كُلُّ البِقاعِ وقدْ نطقْنَ شُكورا

والأنبياءُ جميعهمْ قدْ بشّروا * بولادِ أحمدَ مَوْرِداً وصُدوراً

بُشراكمُ يا أمّةَ الهادي فقدْ * نلْتمْ بِطهَ جنّةً وحَريرا

صلّى عليهِ اللهُ ربّي دائِما * ما دامت الدُّنيا وزادَ كَثيرا

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. إصطفى عنصر نبيّه الطاهر من أطيب العناصر. وانتقى نسبه الفاخر من أكرم الأواصر. وشرّف به أبويه الطاهرين. وخصّهما بظهور طلعته التي هي أبهج المناظر. وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. إجتباه ربّه وحماهُ منَ الدنّسِ والرّجسِ. وطهّرهُ تطهيراً. واختار لحمله بطونا وظهورا. ونقل نورهُ من الأصلابِ الطاهرة إلى الارحام الزكية. تَعظيماً لهُ وتوقيراً. إلى أن خرج من بطن أمّه نورا أضاء لها من الشام قصورا. وابتهج الكون بمقدمه فرحا وسرورا.

لهُ النسبُ العالي فليسَ كمثْلهِ * حسيبٌ نسيبٌ مُحْسنٌ مُتكرّمٌ

أقدّمهُ في كُلِّ مَدْحٍ لأنّه * إذا كانَ مدْحاً فالنسيبُ المقدَّمُ

جليلٌ بتاجٍ للجمالِ مُخصَّصٌ * جميلٌ بآلاءِ البهاءِ مُعَمّمُ

فما الكوْنُ إلاّ حُلّةٌ ومُحَمَّدٌ * طِرازٌ بأعلامِ الهِدايةِ مُعْلمُ

فصلّوا على الرُّسْلِ الكِرامِ جميعهمْ * وزيدوا على طهَ الصلاةَ وسلّموا

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. وعلى آله الذين هم خير عترة وأشرف آل. وصحابته ينابيع الجود والكرم والإفضال. صلاة يصحبنا لطفها في الحال والمآل. ويعمّنا نفعها في الحركات والسكنات وسائر الأحوال. وتحفظنا بها من سوء المنقلب في المال والأهل والعيال. وتفيض بها علينا من بحور كرمك مواهب الخير والنوال. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. لقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بتذكّر نعمه. فقال سبحانه في سورة المائدة: ((يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ)). وأجلُّ هذه النّعم وأعظمُها. نبيّنا المصطفى. سيّدنا ومولانا محمّد صلى الله عليه وسلم. قال تعالى في سورة آل عمران: ((لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا

عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)). لقد أشرقت على الإنسانية نسمات الهداية الربانية. وإشراقات الأنوار الرحمانية. وتجلّيات اللطائف الإلهية. ببعثة خاتم المواكب الرسلية. سيّدنا ومولانا محمّد صلى الله عليه وسلم. هذا النبيّ الكريم. الذي رعته عناية الإله الحقّ. حتى جاء على قدر ومحدودية. تنقّل من صلب إلى صلب. في رحلة مرسومة. ورعاية معلومة. حفظت أصوله من زيغ المجتمعات وسفاح الجاهلية. وسيّء العلاقات البهيمية. وما كانت المجتمعات الجاهلية آنذاك. قبل بعثته وولادته. إلاّ مرتع الآفات. من قتل للبنين ووأد للبنات. والوقوع في المحرّمات والمحظورات. وانعدام شرف النسبة بالوقوع على الأخوات والأمّهات. ولكن التهيئة الإلهية. والرعاية الرحمانية. تبدي العجائب في عظيم آياتها. وجليل موعوداتها. وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرّر ذلك فيما صحّ من أحاديثه. وجليل مقولاته. فقد روى الإمام البخاري في صحيحه. في باب صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: ((بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت فيه)). وفي صحيح مسلم عن واثلة ابن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل. واصطفى قريشاً من كنانة. واصطفى من قريش بني هاشم. واصطفاني من بني هاشم)). وفي دلائل النبوّة لأبي نعيم. عن أمّ المومنين السيّدة عائشة رضي الله عنها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. عن جبريل عليه السلام قال: ((قلّبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلا أفضل من محمّد. صلى الله عليه وسلم. ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم)). وكذا أخرجه الطبراني في الأوسط. قال الحافظ ابن حجر: لوائح الصحّة ظاهرة على صفحات هذا المتن. ونسبته صلى الله عليه وسلم في سلسلة آبائه وأجداده الكرام. أشرف نسبة. ذكرها الإمام البخاري في صحيحه. فقال: ((هو أبو القاسم سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النّضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان)). نبيّ اختاره الله تعالى لهذه الأمّة اختياراً. وبشّر بوجوده وبعثته الأنبياء والرسل مراراً وتكراراً. وتناقل الناس خبره. واستبشروا بوجوده قبل وجوده. وعبّروا عن ذلك. وممّن بشّر به قبل مبعثه كذلك. أحبار اليهود. ورهبان النصارى. ومنهم الراهب عيصا

وبحيرى ونسطور. وخبرهم في كتب السيرة النبوية معلوم ومشهور. ورحم الله الإمام البوصيري إذ يقول في همزيته:

لَمْ تَزَلْ فِي ضَمَائِرِ الْكَوْنِ تُخْتَـ*ـارُ لَكَ الأُمَّهَاتُ وَالآبَاءُ

مَامَضَتْ فَتْرَةٌ مَنَ الرُّسْلِ إلاَّ * بَشَّرَتْ قَوْمَهَا بِكَ الأَنْبِيَاءُ

تَتَبَاهَى بِكَ الْعُصُورُ وَتَسْمُو * بِكَ عَلْيَاءُ بَعْدَهَا عَلْيَاءُ

وَبَدَا لِلْوُجُودِ مِنكَ كَرِيمٌ * مِنْ كَرِيمٍ آبَاؤُهُ كُرَمَاءُ

نَسَبٌ تَحْسِبُ الْعُلاَ بِحُلاَهُ * قَلَّدَتْهَا نُجَومَهَا الْجَوْزَاءُ

حَبَّذَا عِقْدُ سُؤْدَدٍ وَفَخَارٍ * أَنْتَ فِيهِ الْيَتِيمَةُ الْعَصْمَاءُ

وعن حبر الأمّة. وترجمان القرآن. سيّدنا عبد الله بن عباس. رضي الله عنهما. في تأويل قول الله تعالى في سورة الشعراء: ((الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)). قال: (من صلب نبيّ إلى نبيّ. حتّى صرت نبيّاً)، رواه البزّار والطبراني ورجالهما رجال الصحيح. وقال الإمام فخر الدين الرازي: آباء النبيّ صلى الله عليه وسلم كلهم إلى آدم على التوحيد. لم يكن فيهم شرك. يدلّ على ذلك قول النبيّ صلى الله عليه وسلم كما في دلائل النبوّة للبيهقي: ((لم أزل أتنقّل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات)). وقال تعالى في سورة التوبة: ((إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)). فوجب أن لا يكون أحد من أجداده صلى الله عليه وسلم مشركا. وأمّا قوله تعالى في سورة الأنعام: ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ)). قال الحافظ بن حجر: أجمع أهل الكتابين على أنّ آزر لم يكن والد سيّدنا إبراهيم عليه السلام. بل عمّه. والعرب تسمّي العمّ أبا. بل في القرآن ذلك. قال تعالى في سورة البقرة: ((أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)). فأطلق على إسماعيل لفظ الأب. وهو عمّ يعقوب. كما أطلق على إبراهيم لفظ الأب. وهو جدّه. وأورد الإمام السهيلي رحمه الله في كتابه "الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام". عن أبي الزّناد عن عروة عن عائشة رضي الله عنها. أخبرتْ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربّه أن يحيي أبويه. فأحياهما له. فآمنا به. ثم أماتهما. وقال السهيلي بعد إيراده هذا الحديث. واللهُ

قادر على كلّ شيء. وليس تعجز قدرته ورحمته عن شيء. ونبيّه عليه السلام أهل أنّه يخصّه بما شاء من فضله. وينعم عليه بما شاء من كرامته. صلى الله عليه وسلم. وفائدة إحيائهما. مع أنّ أهل الفترة لا يعذّبون. وهي إتحافهما بكمال لم يحصل لأهل الفترة. وما أحسن ما قال الحافظ شمس الدين ابن ناصر الدين الدمشقي. رحمه الله. في كتابه المسمّى: "مورد الصادي في مولد الهادي". بعد إيراد الحديث المذكور منشدا لنفسه:

حبا الله النبيّ مزيد فضل * على فضل وكان به رؤوفا

فأحيا أمّه وكذا أباه * لإيمان به فضلا لطيفا

فسلّم فالقديم بذا قدير * وإن كان الحديث به ضعيفا

أيّها المسلمون. غدا إنشاء الله تعالى ليلة عيد المولد النبويّ الشريف. مولد عين الرحمة. الذي ببركته كنّا خير أمّة. هذا النبيّ الكريم. الذي أمرنا الله تعالى أن نفرح به في كل وقت وحين. قالَ سبحانه في سورة يونس: ((قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)). فلنكن يا أحباب رسول الله في الموعد. للإحتفال بليلة مولده صلّى الله عليه وسلّم. ولا تنسوا أبناءكم وصغاركم أن تصحبوهم معكم لهذا الحفل البهيج. لقد كان صلى الله عليه وسلم يحبّ الأطفال. ويفرح بهم. وفي حقّهم قال كما في الحديث المتّفق عليه: ((من لا يَرحم لا يُرحم)). اللهم إنّا نسألك ونتوسّل إليك بحبيبك المصطفى. وبآله الشرفاء. وأصحابه الحنفاء. خصوصا الأربعة الخلفاء. أن تكون لنا مغيثا ومسعفا. وأن توردنا موارد أهل الصفاء. وأن تبوّئنا من الجنّة غرفا. وارزقنا ببركته صلى الله عليه وسلم قبولا وعزّا وشرفا. وأعنّا اللهم على القيام له بالوفاء. واجعلنا ممّن يفرح بذكراه. وممّن نصره وولاه. واحيي قلوبنا بإحياء ليالي مولد حبيبك الشفيع الأعظم. وأعنّا على شكرك بما تفضّلت به علينا بوسيلتنا العظمى نبيّك الأكرم. صلى الله عليه وسلم. اللهم إنّا نتوسّل إليك بنبيّك المختار. وآله الأطهار. وأصحابه الأخيار. كفّر عنّا الذنوب والأوزار. واحرسنا من جميع المخاوف والأخطار. واجمع بيننا وبينه في هذه الدار وفي دار القرار. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. آمين. والحمد لهل ربّ العالمين. اهـ

03- كمال السرور وإثلاج الصدور بمولد مظهر النور صلى الله عليه وآله وسلم

الحمد لله الذي شَرَّفَ نوعَ الإنسانِ. وفضَّلَهُ في سائِرِ الأزمانِ، مَوهِبةً منه تعالى وامتنانا. وشرَّف في هذا الوجودِ نورَ الحقيقةِ المحمديّة. وخصَّصه بعَطايا وهْبيَّةٍ، مِنحةً منه سبحانه وإحسانا. وجعلهُ معدنَ أسرارِه الإلهيَّة، واختاره لفُتوحاتِه الصَّمدانيَّة، ففتحَ بهِ قلوباً عُمياً وآذانا. ولعظيم شرف نور الحضرة المحمدية. صلَّى عليه الله في حَضرتِهِ الأَحدّيةِ. وجعلَ محبَّتَهُ على الإيمانِ عُنواناً. فسبحانه من إله جعلَ يومَ ولادةِ الذّاتِ المحمديةِ عيدَ السُّرورِ والتهاني. وأتحفنا فيه ببُلوغ المنَى والأمانِي، فبُشرى لنا بهذا الطَّالعِ السعيدِ بُشراناً. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. شرّف الأنام بصاحب المقام الأعلى. وكمّل السعود بأكرم مولود. حوى شرفا وفضلا. وشرّف به الآباء والجدود. وملأ الوجود بجوده عدلا. ونادت الكائنات ليلة مولده صلى الله عليه وسلم. من جميع الجهات: أهلا وسهلا. ثم أهلا وسهلا .

بشهر ربيع قد بدا نوره الأعلى * فيا حبّذا بدرا بذاك الحمى يُجلى

أنارت به الأكوان شرقا ومغربا * وأهل السما قالوا له مرحبا أهلا

أيا مولد المختار جدّدت شوقنا * إلى خير مبعوث جليل حوى الفضلا

وسعدا مقيما بافتخار بمولد * له خبر عن حسنه أبدا يتلى

عليه صلاة الله ما هبّت الصبا * وما سار حاد بالنياق إلى المعلى

وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. صاحب القلب الصبور. واللسان الشكور. الذي لمّا طلع كوكبه في أفق الهناء والسرور. فرحت به الكائنات وقالت: أهلا وسهلا بتاج البهاء والنور.

ضاء الوجود بوضع طه الأنور * الهاشميّ الأريحيّ الأزهر

طوبى لمن سنّوا القيام لوضعه * يا فوزهم يا فوزهم في المحشر

فالرّسل والأملاك قاموا حرمة * لجلال أحمد ذي اللّوا والكوثر

والكون يهتف بالسرور مرحِّباً * يا مرحباً يا مرحباً بالأفخر

هذا الذي حقّاً له الفخر انتمى * لولاه ما كان الوجود بمظهر

ثم الصلاة مع السلام الأطهر * يغشى غياث الخلق يوم المحشر

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَى سيِّدِنَا محمّدٍ. وعلى آله المنوّرين القلوب والأجساد. وصحابته الهادين إلى طريق الخير والرشاد. صلاة تصلح لنا بها الأزواج والأولاد. وترحم بها منّا الآباء والأجداد. وتدفع بها عنّا عوارض الهموم والأنكاد. وتنجينا بها من قهر الأعادي. وصولة أهل البغي والفساد. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ أفضَلَ ما تَنافَس فيهِ المتنافِسونَ، وأكمَلَ ما اعْتَنَى بِه المعتنونَ، هو التعلُّقُ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم. الذي لا يصلُ إلينا خيرٌ إلاّ على بابِه، ولا فوزَ لنا إلاّ في التملُّقِ على أعتابِهِ، إذ هُو الواسطةُ الأعظَمُ، والشَّفيعُ الأكرَمُ، مُمِدُّ الأوّلين والآخرينَ، فما تعلَّقَ به أحدٌ إلا ونالَ فوقَ ما طلبَ، ولا التجأَ إليهِ إلا وأحرزَ أرفعَ الرُّتبِ، وفي ذلك آياتٌ للموقنينَ.

من يَعتصِم بالنَّبيِّ حاز كلَّ مُنَى * وصارَ بينَ الورى في أشرفِ الرُّتَبِ

يا حاضِرين لسمعِ مدحِه شغَفاً * صلّوا عليه تَنالوا غَايَةَ الأرَبِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبيّ العظيم، الذي قال فيه عزّ من قائل. في سورة الأنبياء: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)). ولماَّ أرادَ الله تعالى تَشريفَ هذا العالم. بالكنز الأعظم. والنور المطلسم. سيّدنا محمّد. صلى الله عليه وسلم. ألهمَ جدّه عبدَ المطّلب. واسمه شيبة الحمد. فخطبَ لولَده عبدِ الله. ذي الفخار والمجد. السيّدة العفيفة الطاهرة. ذات المزايا الجليلة الفاخرة. السيّدة آمنة بنت وهب. جوهرة المجد والشرف. ومصدر الجود والتحف. أفضلُ امرأةٍ في الدُّنيا، في الحسبِ والحسنِ والرفعة والجاهِ، فتزَّوجَها وبنَى بِها عبد الله. ليظهر السّرّ المكنون الذي أراده الله. ومنّ عليها ذو الجلال والإكرام. فحملت به عليه السلامُ، من أوّل شهر رجب الحرام. ولم تحمِل بسواهُ من الأنامِ، وظهرتْ لحملهِ عجائبٌ، ولوضعِهِ غرائبٌ، من خوارق العادات. وعجائب الإرهاصات والمبشّرات. وإذا كان الله سبحانه. قد بشّر الملائكة بآدم. وهو هيكل من طين. فكيف تكون البشائر بحبيب الله ومصطفاه. الصادق الأمين. صلى الله عليه وسلّم في كل وقت وحين.

اللهُ عَظَّم قَدرَ جاهِ محمّدٍ * وأنالَهُ فضلاً لديْهِ عَظيما

في مُحكَمِ التَّنزيلِ قال لِخلقهِ * صَلُّوا عليهِ وسلّموا تسليما

اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبيّ العظيم، الذي قال فيه عزّ وجلّ. في سورة القلم: ((وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)). وروى الخطيب البغدادي عن سهل بن عبد الله التستري رحمه الله قال: لمّا أرد الله خلق سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم في بطن أمّه آمنة ليلة رجب. وكانت ليلة الجمعة. أمر الله تعالى في تلك الليلة رضوان خازن الجنان أن يفتح الفردوس. ونادى مناد في السماء والأرض: ألا إنّ النور المخزون المكنون الذي يكون منه النبيّ الهادي في هذه الليلة يستقرّ في بطن آمنة الذي يتمّ فيه خلقه ويخرج إلى الناس بشيرا ونذيرا. وَرَوَى أبو نُعَيْمٍ في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمّا حُمِلَ برسول الله صلى الله عليه وسلم، لم تبق أيّ دابّة إلاّ نطقت تلك الليلة، وقالت: حمل برسول الله صلى الله عليه وسلم وَرَبِّ الكعبة، وهو إمام الدنيا وسراج أهلها، ولم يبق سرير مَلِكٍ من ملوك الدنيا إلاّ أصبح منكوسا، وَهُتِفَ بالبشارات في البَرِّ والبحر، ونودي في السماوات والأَرَاضِينَ: أنْ أَبْشِرُوا فقد آن أَنْ يَظْهَرَ أبو القاسم، إماما مُبَارَكًا، ولم تبق في تلك الليلة دارٌ إلاّ أشرقت، ولا مكانٌ إلاّ دخله النُّورُ، ولا دابّة إلاّ نطقت، وصارت الأصنام منكوسة، وصاح إبليس على جنوده قائلا: ويل لكم لقد حُمِلَ بمحمّد صلى الله عليه وسلم هذه الليلة، وكانت قريش حينئذ في جدب شديد، وضيق عظيم، فاخضرّت الأرض، وَحَمَلت الأشجار، وأتاهم الرفد من كل جانب، فسمّيت تلك السنة، التي حمل فيها برسول الله سنة الفتح والإبتهاج. وفى حديث ابن إسحاق أنّ آمنة كانت تحدّث أنّها أتيت حين حملت بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فقيل لها: إنّك حملت بسيّد هذه الأمّة. وقالت: ما شعرت بأنّي حملت به. ولا وجدت له ثقلا ولا وحما بسببه. إلاّ أنّي أنكرت رفع حيضتي. وأتاني آت وأنا بين النائمة واليقظانة. فقال: هل شعرت بأنّك حملت بسيّد الأنام؟ ثم أمهلني حتى إذا دنت ولادتي أتاني فقال: قولي: أعيذه بالواحد. من شرّ كلّ حاسد. ثم سمّيه محمّدا.

يَا عاشِقِينَ مُحمَّداً كهْفَ الوَرى * خَيرَ البَريةِ فَخرَها وعُلاها

صلوا عليْهِ وسَلِّموا فَبِذَلكم * تُهدَى النُّفوسُ لرُشدِها ومُناهَا

اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبيّ العظيم، الذي قال فيه ربّ العالمين. في سورة الأحزاب: ((مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيئِينَ)). ولمّا تمّ لها من حمله صلى الله عليه وسلم شهران. توفي والده سيّدنا عبد الله. في المدينة المنوّرة. عند أخواله بني النّجّار. ولمّا آن أوان سفور شمس ذاته الكريمة. صلى الله عليه وسلم. لأعين الناظرين. وقَرُبَ ميقات وَضْعِ مَن وَضَعَ الله ببركته الإصر والأغلال عن المومنين. تعاقبت البشرى في عوالم الجبروت. وتوالى الهناء في عالم الملكوت. ولقد أحسن الإمام البوصيري رحمه الله تعالى في هذا المعنى. حيث قال في همزيته:

وَمُحَيّاً كَالشَّمْسِ مِنْكَ مُضِيءٌ * أَسْفَرَتْ عَنْهُ لَيْلَةٌ غَرَّاءُ

لَيْلَةُ الْمَوْلِدِ الذِي كَانَ لِلدِّيـ*ـــنِ سُرُورٌ بِيَوْمِهِ وَازْدِهَاءُ

وَتَوَالَتْ بُشْرَى الْهَوَاتِفِ أَنْ قَدْ * وُلِدَ الْمُصْطَفَى وَحَقَّ الْهَنَاءُ

وَتَدَاعَى إِيوَانُ كِسْرَى وَلَولاَ * آيَةٌ مِنْكَ مَا تَدَاعَى الْبِنَاءُ

وَغَدَا كُلُّ بَيْتِ نَارٍ وَفِيهِ * كُرْبَةٌ مِنْ خُمُودِهَا وَبَلاَءُ

وَعُيُونٌ لِلْفُرْسِ غَارَتْ فَهَلْ كَا * نَ لِنِيرَانِهِمْ بِهَا إِطْفَاءُ

مَوْلِدٌ كَانَ مِنْهُ فِي طَالِعِ الْكُفْـ*ـــرِ وَبَالٌ عَلَيْهِمُ وَوَبَاءُ

فَهَنِيئاً بِهِ لآمِنَةَ الْفَضْـ*ـــلُ الذِي شُرِّفَتْ بِهِ حَوَّاءُ

مَنْ لِحَوَّاءَ أَنَّهَا حَمَلَتْ أَحْـ*ـــمَدَ أَوْ أَنَّهَا بِهِ نُفَسَاءُ

يَوْمَ نَالَتْ بِوَضْعِهِ ابْنَةُ وَهْبٍ * مِنْ فَخَارٍ مَا لَمْ تَنَلْهُ النِّسَاءُ

وَأَتَتْ قَوْمَهَا بِأَفْضَلَ مِمَّا * حَمَلَتْ قَبْلُ مَرْيَمُ الْعَذْرَاءُ

شَمَّتَتْهُ الأَمْلاَكُ إِذْ وَضَعَتْهُ * وَشَفَتْنَا بِقَولِهَا الشَّفَّاءُ

رَافِعاً رَأْسَهُ وَفِي ذَلِكَ الرَّفْـــ*ـــعِ إِلَى كُلِّ سُؤْدَدٍ إِيمَاءُ

رَامِقاً طَرْفُهُ السَّمَاءَ وَمَرْمَى * عَيْنِ مَنْ شَأْنُهُ الْعُلُوُّ الْعَلاَءُ

وَتَدَلَّتْ زُهْرُ النُّجُومِ إِلَيْهِ * فَأَضَاءَتْ بِضَوْئِهَا الأَرْجَاءُ

وَتَرَاءتْ قُصورُ قَيْصَرَ بالرُّو * مِ يَرَاهَامَنْ دَارُهُ الْبَطْحَاءُ

أيّها المسلمون. يحقّ لنا أن نعطّر أفواهنا بمدائحه البهيّة. ونقوم على أقدامنا فرحا بقدوم طلعته النبويّة. فقد رآه بعض العلماء في المنام. فسأله عن عمل المولد وعن حكم هذا القيام. فقال عليه الصلاة والسلام: من فرِح بنا فرِحنا به. فيا أيّها الفرحون به. أبشروا أنّكم الآن من خواصّ أحبابه .

شَرُفَ الوجودُ بمولد المختارِ * طهَ الرَّسولِ معظَّمِ المِقدارِ

صلُّوا عليهِ تقَرُّباً لجنابِهِ * فعسى تَنالوا غايةَ الأوطارِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبيّ العظيم، الذي قال فيه الرحمان الرحيم. في سورة التوبة:((لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)). وهنا. يحسن بنا أن نبتهل إلى تعالى متوسّلين. بجاهه صلى الله عليه وسلم داعين قائلين:

يا ربّ بالمصطفى أغفر لنا ما مضى * والمُسْلِمينَ جَميعاً أَيْنَمَا حَضَرُوا

وَوالِدينا وأَهْلينَا وجيرَتِنَا * وكُلُّنَا سَيِّدي لِلْعَفْوِ مُفْتَقِرُ

نَرْجوكَ يا رَبِّ في الدَّارَيْنِ تَرْحَمُنا * بِجاهِ مَنْ في يَدَيْهِ سَبَّحَ الحَجَرُ

يا رَبِّ أَعْظِمْ لَنا أَجْراً ومَغْفِرَةً * فَإِنَّ جودَكَ بَحْرٌ لَيْسَ يَنْحَصِرُ

واقْضِ دُيوناً لَها الأَخْلاقُ ضائِقَةٌ * وفَرِّجِ الْكَرْبَ عَنَّا أَنْت مُقْتَدِرُ

وكُنْ لَطيفاً بِنا في كُلِّ نازِلَةٍ * لُطْفاً جَميلاً بِهِ الأَهْوالُ تَنْحَسِرُ

بِالمُصْطَفَى الْمُجْتَبَى خَيْرِ الأَنامِ ومَنْ * جَلالَةً نَزَلَتْ في مَدْحِهِ السُّوَرُ

ثُمَّ الصَّلاةُ على المُخْتارِ ما طَلَعَتْ * شَمْسُ النَّهارِ وما قَدْ شَعْشَعَ القَمَرُ

ثُمَّ الرِّضَى عَنْ أَبي بَكْرٍ خَليفَتِهِ * مَنْ قامَ مِنْ بَعْدِهِ لِلدِّينِ يَنْتَصِرُ

وعَنْ أَبي حَفْصٍ الفاروقِ صاحِبِهِ * مَنْ قَوْلُهُ الفَصْلُ في أَحْكامِهِ عُمَرُ

وَجُدْ لِعُثْمانَ ذِي النُّورَينِ مَنْ كَمُلَتْ * لَهُ المَحاسِنُ في الدَّارَيْنِ والظَّفَرُ

كَذَا عَلِيٌّ مَعَ ابْنَيْهِ وأُمِّهِما * أهْلُ العَبَاءِ كَمَا قَدْ جاءَنا الخَبَرُ

سَعْدٌ سَعيدُ ابْنُ عَوفٍ طَلْحَةٌ وأَبو * عُبَيْدَةٍ وزُبَيْرٌ سادَةٌ غُرَرُ

وحَمْزَةٌ وكَذَا العَبَّاسُ سَيِّدُنَا * ونَجْلُهُ الْحَبْرُ مَنْ زَالَتْ بِهِ الغِيَرُ

والآلُ والصَّحْبُ والأَتْبَاعُ قاطِبَةً * ما جَنَّ لَيْلُ الدَّياجِي أَو بَدَا السَّحَرُ

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله ربّ العالمين. اهـ

04- عناية ربّ البريّات بحبيبه سيّد الكائنات وما في تسميّته من أسرار وإشارات صلى الله عليه وآله وسلم

الحمد لله المحمود أزلا وأبدا. خَصَّ شهرَ ربيع الأوّل بمولد نبيّ الهدى. وَأَوْجَدَ نُورَهُ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ خَلْقِ ٱلعَالَمِ وَسَمَّاهُ مُحَمَّدًا. وَأَخْرَجَهُ فَي آخِرِ الزَّمَانِ كَمَا قَدَّرَ وَأَبْدَى. فَوُلِدَ صلى الله عليه وسلم بِوَجْهٍ أَخْجَلَ قَمَرًا وَفَرْقَدًا. وَأُلْبِسَ صلى الله عليه وسلم خِلْعَةَ ٱلجَمَالِ والجلال التي لَمْ يَلْبَسْهَا أَحَدًا. فسبحانه من إله اصطفى نبيّنا محمّدا. وجَعَلَه وعنصرَه وفرعَه مكرَّما ممَجّدا. وقَدَّرَ في أزليّته سابق نبوّته. فكان أصلا للعوالم ومَدَدا. وبعثه رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا. إماما وسيّدا.

محمّد المخصّص باسمِ أحمد * منَ المحمودِ كانَ لهُ اشتقاقا

إمام المرسلينَ ومنتقاهمْ * وأكرمهمْ وأطهرهم نطاقا

نبيٌّ أنزل الرحمنُ فيه * تباركَ والضحى والإنشقاقا

هوَ الكرمُ الذي ملأ البرايا * هوَ العلمُ الذي ركبَ البراقا

نبيٌّ لمْ يزلْ يسمو علوّاً * إلى أنْ جاوزَ السبعَ الطباقا

وعمَّ الخلقَ مكرمةً وجوداً * فلما جادَ فارقَ ما أذاقا

أتيتكَ سيّدي بالعذرِ فاعطفْ * عليّ إذا الفضاءُ عليَّ ضاقا

فكنْ ظلّي غداً وشفيعَ ذنبي * وحوضكَ فاسقني منهُ دهاقا

عليكَ صلاةُ ربّكَ ما تبارتْ * رياحُ الجوِ تستبقُ استباقا

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. إفتتح بالنور الباهر الأحمدي. والجناب العاطر المحمّدي. كل مخلوق وموجود. وجعله الفاتح لما أغلق من الأنوار. وسائر المعارف والأسرار. وجميع الخيرات التي لم تفتح قطّ لمولود. وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا الذي من ميم إسمه فاضت المنح الإلهية. وهو عبد الله ورسوله. وحاء رحمته التي رحم بها العوالم الخلقية. ومن ميمه الأخرى خصّ المحبوبين لديه بالمواهب الإمتنانية. ومن دال ذلك الإسم دامت دلالة الإشارات العرفانية. لأهل المذاهب الصافية. من ذوي الأحوال الربانية. اللهمّ صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. وعلى آله ذوي السيادة والتكريم. وصحابته المتوّجين بتاج الجلالة والتعظيم. صلاة تشفي بها منّا العليل والسقيم. وتغني بها منّا المسكين والفقير والعديم. وتحفظ بها منّا الحاضر والغائب والمسافر والمقيم. وتسكننا بها فسيح جنّتك دار الفوز والكرامة والنعيم والمقيم. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. ماذا نقول في هذا النبيّ الكريم. والرسول العظيم. سيّدنا محمّد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. الذي جعله ربّه رحمة للعالمين. قال تعالى في سورة الأنبياء: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)). وواثق له في البدء جميع المرسلين. وأخذ له عليهم الميثاق المتين. فقال سبحانه في سورة آل عمران: ((وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيئِينَ لَمَا آتَيْناكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ)). ووصفه سبحانه وتعالى بالرؤوف الرحيم. فقال في سورة التوبة: ((لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)). وأقسم به في كتابه الكريم. فقال سبحانه في سورة الحجر: ((لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)). وأقامه مقام نفسه العليّة. في البيعة الكبرى الرضوانيّة. فقال عزّ من قائل في سورة الفتح: ((إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)). وقال تعالى في سورة النساء:((مَنْ يُطِعِ الرّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)).

فطوبى لمن فقه الخطاب ووعاه. ورحم الله الإمام البوصيري إذ يقول في قصيدته البردة:

دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فيِ نَبِيِّهِمِ * وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْتَكِمِ

وَانْسُبْ إِلىَ ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ * وَانْسُبْ إِلىَ قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمِ

فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ * حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ

فَمَبْلَغُ العِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ * وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

أيّها المسلمون. لما أراد الله تعالى أن يتجلّى بالرحيم الرحمان. وأن يظهر جليّا سبحانه بالمنعم الحنّان المنّان. صاغ من نور أسمائه وصفاته التي اقتضى كمالها الظهور. الحقيقة المصطفوية التي هي نور النور. قال أئمّة المفسّرين ومن بينهم الإمام الضحّاك والإمام سعيد بن جبير عند تفسير قوله تعالى في سورة النور: ((اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ)). أراد بالنور في قوله: ((مَثَلُ نُورِهِ)). سيّدنا محمّدا صلى الله عليه وسلم. ومن أسمائه صلّى الله عليه وسلّم كذلك (النّور). كما ذكره الإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله. في كتابه (الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة صلى الله عليه وسلم). لقوله تعالى في سورة المائدة: ((قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ)). فالنور هنا هو سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم. والكتاب هو القرآن الكريم. فكانت جوهرة الحضرة الأحمدية. مخصوصة بالأزلية. ينظر الله إليها نظر تفريد لتلك الدّرّة النورانية. ولم يكن ثَمَّ زمان ولا مكان. ولا أفلاك ولا أكوان. ثم تنقّل صلى الله عليه وسلم من عالم الغيب والبطون. إلى عالم الظهور والشؤون. حتى أشرقت أنوار ذاته المحمّدية تنير الكون. روى ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ السيّدة آمنة رضي الله عنها قالت: لما فصل منّي إبني محمّد صلى الله عليه وسلم خرج منه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب. وفي خروج هذا النور معه صلى الله عليه وسلم حين وضعته أمّه. إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض. وزال به ظلمة الشرك منها. قال الإمام أبو شامة رحمه الله تعالى: وقد كان هذا النور الذي ظهر وقت ولادته صلى الله عليه وسلم قد اشتهر في قريش. وكثر ذكره فيهم، وإلى ذلك أشار عمّه العباس رضي الله عنه. في أبيات مدح بها النبيّ صلى الله عليه وسلم عند رجوعه من غزوة تبوك. كما في: (سبل الهدى

والرشاد في سيرة خير العباد) للشيخ الصالحي الشامي رحمه الله. فقال: يا رسول الله إنّي أريد أمتدحك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:((قل لا يفضض الله فاك)). فقال العباس رضي الله عنه :

مِن قَبلِها طِبتَ في الظِّلالِ وفي * مُسْتوْدَعٍ حيث يُخصَفُ الوَرَقُ

ثم هَبَطْتَ البِلادَ لا بَشَرٌ * أنتَ ولا مُضْغَةٌ ولا عَلَقٌ

بل نُطفَةٌ تَركَبُ السفينَ وقد * أَلْجَمَ نَسْراً وأهلَهُ الغَرَقُ

تُنقَلُ مِن صالِبٍ إلى رَحِمٍ * إذا مضى عالَمٌ بَدَا طَبَقُ

حتى احْتَوى بيتَك المهيمَن مِن * خُنْدُفٍ علياءَ تحتَها النُطُقُ

وأنتَ لما وُلدتَ أشرقتِ الأر * ضُ فضاءت بنُورِك الأُفُقُ

فنُحنُ في ذلك الضياءِ وفي النُّـ*ـورِ وسُبْلِ الرشادِ نَخْترِقُ

أيّها المسلمون. لا يخفى أن جميع أسمائه صلى الله عليه وسلم مشتقّة من صفات قامت به. توجب له المدح والكمال، فله من كل وصف إسم. ذكر علماء السيرة النبوية. أنّ السيّدة آمنة رضي الله عنها. أُمرت في المنام وهي حامل برسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسمّيه محمّدا. وهذه عناية ربّانية. بخير البرية. وفي يوم سابع ولادته صلى الله عليه وسلم. عقّ عنه جدّه عبد المطلب. وألهمه الله تعالى بتسميّته محمّدا. فقيل له: يا أبا الحارث. ما حَملك على تسميّته محمّداً. ولم تسمّه باسم آبائه؟ فقال: أردت أن يَحمده الله في السماء. ويَحمده الناس في الأرض. تفاؤلا بأن يكثر حمد الخلق له، لكثرة خصاله الحميدة التي يحمد عليها، وقد حقّق الله رجاءه. بأنّه صلى الله عليه وسلم تكاملت فيه الخصال المحمودة. والخلال المحبوبة. فتكاملت له المحبّة من الخالق والخليقة، فظهر معنى إسمه على الحقيقة. فهو محمودٌ عند الله. لأنّه رسوله المعصوم، ونبيّه الخاتم، وعبده الصالح، وصفوته من خلقه، وخليله من أهل الأرض، صلى الله عليه وسلم. وهو محمود عند الناس. لأنّه قريب من القلوب، حبيب إلى النفوس، رحمة مهداة، ونعمة مسداة، مبارك أينما كان، محفوف بالعناية أينما وجِد، محاط بالتقدير أينما حلَّ وارتحل، حُمِدت طبائعُه لأنّها هُذِّبت بالوحي، وشُرِّفت طباعُه لأنّها صُقِلت بالنبوّة، فالله محمود

ورسوله محمّد. صلى الله عليه وسلم. وإلى هذا المعنى يشير سيّدنا حسّان بن ثابت رضي الله عنه. حيث قال في مدحه للنبيّ صلى الله عليه وسلم:

أغَرّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ * مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ ويُشْهَدُ

وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيّ إلى اسمهِ * إذا قَالَ في الخَمْسِ المُؤذِّنُ أشْهَدُ

وشَقَّ لهُ منِ اسمهِ ليُجلَّهُ * فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمّدُ

صلى الله عليه وسلم. وشرّف وكرّم. ومجّد وعظّم. ووالى عليه ذلك وأنعم. إسم جليل الإشارات والمعاني. ورسم جميل التراكيب والمباني. إسم خصّه المولى عزّ وجلّ. بأن قرنه باسمه في الركن الأوّل من أركان الإسلام. وهو الشهادة، فلا يصحّ إسلام العبد حتى يتلفّظ به. بأن يقول: وأشهد أنّ محمّدا رسول الله. وذكر الإمام القاضي عياض. رحمه الله تعالى. في كتابه: (الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم). عند قوله تعالى في سورة الشرح: ((وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)). قال: روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: ((أتاني جبريل عليه السلام، فقال: إنّ ربّي وربُّك يقول: تدري كيف رفعتُ ذِكْرَك؟ قلت: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعي)). وذكر أهل الذوق والإشارات. أنّ هذا الإسم الشريف يشبه في تركيبه خِلقة الإنسان. شبها لا يخفى على من له عينان. إذ فيه إشارة إلى أنّ مسمّاه صلى الله عليه وسلم هو المقصود الأكبر من النوع الإنساني. ولذلك خَلَقَ الله البشر على صورة إسمه وشكل كتابته. فسبحان من خَلَقَه في أحسَن تقويم. وَوَصفَه قديما بخَلْقِه الكامل وخُلُقِه العظيم. وفي شرح همزية الإمام البوصيري لسيدي محمد بن أحمد بنيس قال: فقد روي عن ابن عباس وابن عمر وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم. أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((يا عمر أتدري من أنا؟ أنا الذي خَلَقَ الله آدم وذريّته على حروف هجائي)). فالرأس والوجه بمنزلة الميم الأولى. واليدان إذا مددتهما بمنزلة الحاء. والبطن بمنزلة الميم الثانية. والرجلان بمنزلة الدال. وقال أهل المعرفة بالله: أنّ سجود الملائكة لآدم. إنّما كان في الحقيقة سجودا لاسم النبيّ صلى الله عليه وسلم. الذي خُلِق آدم على هيئته. وأمّا فضل التسمية بهذا الاسم الشريف: أعني محمّدا، أو أحمد. فقد جاء في أحاديث كثيرة، وأخبار شهيرة. منها ما رواه الديلمي في مسند الفردوس. و أبو نعيم في الحلية. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: ((يوقف عبدان أي اسم أحدهما أحمد والآخر محمّد بين يدي الله تعالى فيؤمر بهما إلى الجنّة، فيقولان: ربّنا بم استأهلنا الجنّة ولم نعمل عملا تجازينا به الجنّة؟ فيقول الله تعالى: ادخلا الجنّة، فإنّي آليت على نفسي أن لا يدخل النار من اسمه أحمد أو محمد)). وفي الشفاء: (إنّ لله ملائكة سيّاحين في الأرض عبادتهم كل دار فيها اسم محمّد). أيْ حراسة أهل كل دار فيها اسم محمّد. وعن سيّدنا علي رضي الله عنه مرفوعا «ليس أحد من أهل الجنّة إلاّ يدعى باسمه. إلا آدم فإنّه يدعى أبا محمّد تعظيما له وتوقيرا للنبيّ صلى الله عليه وسلم». وفي الحلية لأبي نعيم عن وهب بن منبّه قال: كان رجل في بني إسرائيل عصى الله مائتي سنة. ثم مات. فأخذوه وألقوه في مزبلة، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن أخرجه فصلّ عليه، قال: يا رب إنّ بني إسرائيل شهدوا أنّه عصاك مائتي سنة، فأوحى الله إليه: هكذا كان، إلاّ أنّه كان كلّما نشر التوراة ونظر إلى إسم محمّد صلى الله عليه وسلم. قبّله ووضعه على عينيه، وصلّى عليه. فشكرت له ذلك وغفرت ذنوبه. وزوّجته سعبين حوراء». أيّها المسلمون. إنّ من عناية الله تعالى بحبيبه صلى الله عليه وسلم. أن جعل التسمية باسمه الكريم. نافعة في الدنيا والاخرة، ومنجية من العذاب الأليم. لهذا قال الشيخ البوصيري رحمه الله في قصيدته البردة. محسنا الظنّ بالله. مستشفعا برسول الله. راجيا الفوز يوم القيامة والنجاة:

فَإِنَّ لي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَتي * مُحَمَّداً وَهُوَ أَوْفَى الخَلْقِ بِالذِّمَمِ

إِنْ لَمْ يَكُنْ في مَعَادِي آخِذًا بِيَدِي * فَضْلاً وَإِلاَّ فَقُلْ يَا زَلَّةَ القَدَمِ

اللهم إنّا نسألك يا أمان الخائفين. ويا أنيس المستوحشين. ويا صريخ المستصرخين. أن ترزقنا الأمن والأمان إذا أزلفت الجنّة للمتّقين. وبرّزت الجحيم للغاوين. ببركة سيّنا محمّد الأمين. صلى الله عليه وسلم في كل وقت وحين. وأن تميتنا على دينه ومحبّته. ومحبّة آل بيته الطاهرين. برحمتك يا أرحم الراحمين. والحمد لله ربّ العالمين. اهـ

05- نيل الأوطار بمعرفة ما في قصّة رضاع النبيّ من أخبار ومعجزات دالّة على ما له عند الله تعالى من قدر ومقدار صلى الله عليه وآله وسلم

الحمد لله الذي أنار الكون بطلعة السيادة المحمدية. فلاح ضوؤها في أفق العوالم العلوية والسفلية وانتشر. وخلق جوهرته الأحمدية. من صفاء نوره الأقدس الأطهر. ولم يزل ينقله سبحانه من صلب طاهر. إلى بطن طاهر. إلى أن وصل إلى أبيه عبد الله. فكمل فيه وظهر. واختار نسبه العالي من أرفع بيت سما في بني لؤي وغالب ومضر. نحمده سبحانه وتعالى أن أكرمنا بمعرفة سيرته النبوية. ومفاخره المصطفوية. التي فاز بالسعادة من اعتنى بها. وأمعن في تحصيلها النظر. وجعل سبحانه حفظ ذلك وسيلة لبلوغ القصد ونيل الوطر.

طَفِقْتُ أُوَالِى نَشْرَ فَخْرِ مُحَمَّدِ * لِأَمْحُوَ مَا الأمْلاَكُ مِنْ زَلَلٍ خَطُّوا

طَبَعْنَا عَلَى حُبِّ الحَبِيبِ قَلُوبَنَا * فَأَضحَى لَهُ فِى طيِّ أَكْبَادِنَا رَبْطُ

لَقَدْ زَادنَا وَجْدا بلاَ شَكِّ قُرْبُهُ * فَنِلْنَا مُنًى مَا نَالَهُ أَحَدٌ قَطُّ

طَمِعْنَا بِأَنْ نُعْطَى الخَلاَصَ بِجَاهِهِ * إِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ وَالسَّمَاءُ لَهَا كَشْطُ

طَوِيلٌ عَرِيضٌ شَامِخٌ جَاهُ أَحْمَدِ * بِهِ المَجْدُ يَعْلُو وَالمَفَاخِرُ تُبْسَطُ

وَسَادَ بِآبَاءٍ كِرَامٍ طَوَاهِرٍ * لَقَدْ طَابَ مِنْهُ الأَصْلُ وَالفَرْعُ وَالرَّهْطُ

يَحِقُّ لَنَا بالمُصْطَفَى نَتَعَزَّزُ * عَلَوْنَا بِهِ عِزًّا وَنَحْنُ بِهِ نَسْطُو

صَلاَتُك رَبِّي وَالسَّلاَمُ عَلَى النَّبِي * صَلاَةً بهَا تُمْحَى الذُّ نُوبُ وَتَنْحَطُّ

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. عظّم مولد حبيبه المختار. سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم. على سائر الموالد. واختار له مرضعات وحواضن. وكفلاء يكفلونه من الحوادث الظارية. في الحظر والسفر. وجعل معرفة أبويه وأجداده وجدّاته. وأعمامه وعمّاته. وإخوته من الرضاعة. وأولاده وأزواجه وسراريه. من أجلّ ما يقتنى ليوم المعاد ويدّخر. وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. فهو المختار للكرامة قبل خلق الأشياء. والمصطفى للرسالة قبل إيجاد الوجود والإنشاء. وهو رضيع ثدي الوحي. والمحروس بعين الله الحيّ.

أَعِدْ ذِكْرَ مَنْ روحِي فِدَاهُ فَإِنَّنِي * وَحَقِّ جَلاَلِ اللهِ فِيهِ مُهِيمُ

وَيَا حَاضِرِي نَادِي مَحَاسِنَ ذِكْرِهِ * فَكُلُّكُمُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. عين الرحمة الربانية. وعلى آله الحائزين كمال الشرف منحة إلهية. من أجل الحضرة المحمّدية. وصحابته الممدوحين بالآيات القرآنية. والأحاديث النبوية. صلاة توردنا بها موارد أهل السرّ والخصوصية. وتتحفنا بها بتحف أسرارك الغيبية. ومواهب علومك اللدنية. وتلاحظنا بها بعين عنايتك الربانية. وتكفينا بها شرّ البوائق والعوائق الدينية والدنيوية. وتخرجنا بها من دار الدنيا في سلامة وعافية. بلا فتنة مضلّة. ولا محنة ولا بلية. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ بنا افتقار إلى دراسة سيرة المصطفى. صلوات الله وسلامه عليه. وتفقّه معالم حياته الشريفة. لكي نلتقط منها الدّرر اللاّمعة. ونستضيء بأنوار شمسها الساطعة. ولنحظى بجواهر أحواله النادرة. حتى تكون غذاء للقلوب والأرواح. ونستروح بها ومن عطره الفوّاح. صلى الله عليه وسلم في الغدوّ والرواح.

أنقى من الزهر البسيم بهاؤه * وشذاه أعطر من شذى الريحان

وأرقّ من مرّ النسيم إذا * دعا لله في سرّ وفي إعلان

طفل رضيع هزّ أركان الورى * في مهده وهو اليتيم العان

وجدت به سفن الحياة مرافئ * أمنت بها ما كان من طغيان

وتزلزل الكفر البغيض وروّعت * دنيا الضلال ودولة البهتان

طاحت أباطيل الجهالة كلّها * لما بدا الإشراق من عدنان

نبيّ هيَّأَ اللهُ لهُ الظروفَ والأحوالَ معَ صعوبتِهَا، وحمَاهُ مِنَ الْمِحَنِ والشدائدِ معَ حدّتِهَا، وَأَلاَنَ لَهُ القلوبَ مَعَ كفرِهَا وعنادِهَا، فقدْ أحاطَتْ به العنايةُ الإلهيةُ. والرعايةُ الربّانيةُ، قبلَ مولِدِهِ وبعدَ مولِدِهِ. صلى الله عليه وسلم. نبيّ أَخْرجَه الله تعالى من شجرةٍ أصلُها أصيل. وفرعُها طويل. وجَذرُها نبيل. غارِسُها الرَّبُّ الجليل. وخادمُها جبرائيلُ. ورعاها بالدّعاء الخليل. ومُلقّح ثمارَها إسماعيل. بِمَكة

غُرِسَت. وبِطَيْبَة بَسقَت. وبتُهامَة نبتَت. تحلّى من إسم أبيه عبد الله بالعبودية. وتجلى الله عليه من إسم أمّه آمنة. بالأمن والأمان. ومن إسم حاضنته أمّ أيمن بركة الحبشية. باليمن والبركة. فسبحان المتفضّل المنّان. وكانت مرضعته حليمة. إشارةً لِسجايا حِلمِه. الذي أرْضعَه الله إيّاه. وفي بني سعدٍ تربّى ونشَأ. لِيَدُلَّ على أنّ السَّعْدَ حظُّه ومَرْباه. وتلطَّف به جدّه عبدُ المطّلب وعمّه أبو طالب. إشارةً لِتَحصيله كلَّ مَطلبٍ يتمَنّاه. أيّها المسلمون. ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم نظيفا مطيّبا مدهونا. مكحول العينين مقطوع السرة مختونا. روى الطبراني وأبو نعيم وابن عساكر عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مِنْ كَرَامَتِي عَلَى رَبِّي أَنِّي وُلِدْتُ مَخْتُونًا، وَلَمْ يَرَ أَحَدٌ سَوْأَتِي. أي عورتي)). وبرز صلى الله عليه وسلم نورا لامعا. واضعا يديه على الأرض خاشعا. رافعا رأسه إلى السماء العليّة. مشيرا بذلك الرفع إلى رفعة قدره وعلاه. ذا جمال كامل يفوق العالمين. فتبارك الله أحسن الخالقين. وظلّ النبيّ صلوات الله وسلامه عليه أيّاما لا يلتقم ثدي أمّه. ولا يذوق منها قطرة لبن. سوى ما يمصّه من أصبعه الإبهام. يرضع منه. وكان عليه الصلاة والسلام يناغي القمر وهو في المهد. روى الطبراني والبيهقي عن سيّدنا العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله دعاني إلى الدخول في دينك أمارة لنبوّتك، رأيتك في المهد تناغي القمر وتشير إليه بإصبعك فحيث ما أشرت إليه مال. قال صلى الله عليه وسلم: ((كنت أحدّثه ويحدّثني ويلهيني عن البكاء وأسمع وجبته حين يسجد تحت العرش)).

العَرشُ تَحتَكَ سُدَّةً وَقَوائِمًا * وَمَناكِبُ الروحِ الأَمينِ وِطاءُ

وَالرُسلُ دونَ العَرشِ لَم يُؤذَن لَهُمْ * حاشا لِغَيرِكَ مَوعِدٌ وَلِقاءُ

يا خَيرَ مَن جاءَ الوُجودَ تَحِيَّةً * مِن مُرسَلينَ إِلى الهُدى بِكَ جاؤوا

بِكَ بَشَّرَ اللهُ السَماءَ فَزُيِّنَت * وَتَضَوَّعَت مِسكًا بِكَ الغَبراءُ

وحينما رضع النبيّ صلى الله عليه وسلم كان أوّل ما رضع لبن أمّه السيّدة آمنة بنت وهب رضي الله عنها. أرضعته سبعة أيّام. ثم رضع من سبع نسوة. أوّلهنّ ثويبة الأسلمية. التي أعتقها عمّه أبو لهب حين بشّرته بولادته صلى الله عليه وسلم. قال الحافظ الإمام القسطلاني رحمه الله في كتابه (المواهب اللدنية بالمنح المحمدية): وقد رؤي أبو لهب بعد موته في النوم: فقيل له: ما حالك؟ فقال في

النار، إلاّ أنّه يخفّف عنّي كلّ ليلة اثنين، وأمصّ من بين أصبعيّ هاتين ماء، وأشار برأس أصبعيه، وأنّ ذلك بإعتاقي لثويبة عند ما بشّرتني بولادة النبيّ صلى الله عليه وسلم وبإرضاعها له. وذكر المحدّث إمام القرّاء إبن الجزري رحمه الله في كتابه: (عرف التعريف بالمولد الشريف) قال: إذا كان أبو لهب الكافر. الذي نزل القرآن بذمّه. جوزي في النار بفرحه ليلة مولد النبيّ صلى الله عليه وسلم. فما حال المسلم الموحّد من أمّة سيّدنا محمّد عليه الصلاة والسلام الذي يسرّ بمولده. ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبّته. لعمري إنّما يكون جزاؤه من الله الكريم. أن يدخله بفضله جنّات النعيم. وكانت ثويبة قد أرضعت قبله صلى الله عليه وسلم عمّه سيّدنا حمزة. وأبا سلمة. مع إبنها مسروح. وثاني امرأة أرضعته صلى الله عليه وسلم أمّ أيمن بركة الحبشية. التي أحضنته بعد وفاة أمّه. وثالثهنّ خولة بنت المنذر. وثلاث نسوة من بني سليم. كل واحدة منهنّ تدعى عاتكة. وهنّ اللاتي عناهنّ صلى الله عليه وسلم بقوله: ((أَنَا ابْنُ الْعَوَاتِكِ مِنْ سُلَيْمٍ)). ثم أرضعته حليمة السعدية. التي نالت برضاعه خيرات عظيمة وفية. وشاهدت له من الإرهاصات غرائب كثيرة جلية. ففازت من الله تعالى ببرّه وكرمه. وسعدت برضاعه بعد أن أباه المرضعات ليتمه .

سعدت ببعثت أحمد الأزمان * وتعطرّت بعبيره الأكوان

والشرك أنذر بالنهاية عندما * جاء البشير وأشرق الإيمان

وقد أشار الإمام البوصيري رحمه الله. في همزيته إلى قصّة رضاعه صلى الله عليه وسلم. فقال وقد أحسن المقال:

وَبَدَتْ فِي رَضَاعِهِ مُعْجِزَاتٌ * لَيْسَ فِيهَا عَنِ الْعُيُونِ خَفَاءُ

إِذْ أَبَتْهُ لِيُتْمِهِ مُرْضِعَاتٌ * قُلْنَ مَا فِي الْيَتِيمِ عَنَّا غَنَاءُ

فَأَتَتْهُ مِنْ آلِ سَعْدٍ فَتَاةٌ * قَدْ أَبَتْهَا لِفَقْرِهَا الرُّضَعَاءُ

أَرْضَعَتْهُ لِبَانَهَا فَسَقَتْهَا * وَبَنِيهَا أَلْبَانَهُنَّ الشَّاءُ

أَصْبَحَتْ شُوَّلاً عِجَافاً وَأَمْسَتْ * مَا بِهَا شَائِلٌ وَلاَ عَجْفَاءُ

أَخْصَبَ الْعَيْشُ عِنْدَهَا بَعْدَ مَحْلٍ * إِذْ غَدَا لِلنَّبِيِّ مِنْهَا غِذَاءُ

يَا لَهَا مِنَّةٌ لَقَدْ ضُوعِفَ الأَجْـ*ـــرُ عَلَيْهَا مِنْ جِنْسَهَا وَالْجَزَاءُ

وَإِذَا سَخَّرَ الإِلَهُ أُنَاساً * لَسَعِيدٍ فَإِنَّهُمْ سُعَدَاءُ

حَبَّةٌ أَنْبَتَتْ سَنَابِلَ وَالْعَصْـ*ـــفُ لَدَيْهِ يَسْتَشْرِفُ الضُّعَفَاءُ

فسبحان من حوّل حال حليمة وحمى حماها. وعمّها بالخيرات من بركات خير البيرية برّا وجاها. وصار صلى الله عليه وسلم كل حين في الزيادة. فكان يمنو في اللحظة الواحدة نموّا خارقا للعادة. فوقف في الشهر الثالث من مولده على قدميه. ومشى في الخامس. وتكلّم في الثامن. ورمى في العاشر السهام بيديه. فيا فوز من تحبّب إليه. بكثرة الصلاة والسلام عليه. اللهم صلّ وسلم وبارك عليه. وعلى آله وصحبه وسائر المهتدين إليه. أيّها المسلمون. وبعد فطامه صلى الله عليه وسلم. وقعت حادثة شقّ صدره الشريف. لحكمة أرادها ربّنا اللطيف. وقد أشار إلى هذه الحادثة صاحب الهمزية بقوله :

وَأَتَتْ جَدَّهُ وَقَدْ فَصَلَتْهُ * وَبِهَا مِنْ فِصَالِهِ الْبُرَحَاءُ

إِذْ أَحَاطَتْ بِهِ مَلاَئِكَةُ اللـ*ـــهِ فَظَنَّتْ بِأَنَّهُمْ قُرَنَاءُ

وَرَأَى وَجْدَهَا بِهِ وَمِنَ الْوَجْـدِ * لَهِيبٌ تَصْلَى بِهِ الأَحْشَاءُ

فَارَقَتْهُ كَرْهاً وَكَانَ لَدَيْهَا * ثَاوِياً لاَ يُمَلُّ منْهُ الثَّوَاءُ

شُقَّ عَنْ قَلْبِهِ وَأُخْرِجَ مِنْهُ * مُضْغَةٌ عِنْدَ غَسْلِهِ سَوْدَاءُ

خَتَمَتْهُ يُمْنَى الأَمِينِ وَقَدْ أُو * دِعَ مَا لُمْ تُذَعْ لَهُ أَنْبَاءُ

صَانَ أَسْرَارَهُ الْخِتَامُ فَلاَ الْفَـ*ـــضُّ مُلِمٌّ بِهِ وَلاَ الإِفْضَاءُ

أَلِفَ النُّسْكَ وَالْعِبَادَةَ وَالْخَلْـ*ـوَةَ طِفْلاً وَهَكَذَا النُّجَبَاءُ

وَإِذَا حَلَّتِ الْهِدَايَةُ قَلْباً * نَشِطَتْ لِلْعِبَادَةِ الأَعْضَاءُ

ولما بلغ صلى الله عليه وسلم السادسة من عمره. أخذته أمّه السيّدة آمنة بنت وهب رضي الله عنها إلى المدينة المنوّرة. لزيارة قبر أبيه سيّدنا عبد الله. وفي رجوعها مرضت مرضا شديدا. ((وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ)). كما قال تعالى في سورة ق. ووافتها المنية بالأبواء. ودفنت هناك. قال تعالى في سورة الاعراف: ((فَإِذَا

جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)). فحضنته أمّ أيمن بركة الحبشية. ورجعت به إلى جدّه عبد المطلب. فاعتنى به عناية قوية. وظلّ النبيّ عليه الصلاة والسلام يذكر أمّه حتى كانت حجّة الوداع. ففي كتاب (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد) للصالحي الشامي قال: روى أبو حفص بن شاهين والمحبّ الطبري في سيرته والدارقطني وابن عساكر عن السيّدة عائشة رضي الله عنها قالت: حجّ بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حجّة الوداع، فمرّ على عقبة الحجون وهو باك حزين مغتمّ، فبكيت لبكائه، ثم إنّه طفق أي شرع يقول: ((يا حميراء إستمسكي، فاستندت إلى جنب البعير، فمكث عنّي طويلا ثم عاد إليّ وهو فرح مبتسم، فقلت له: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، نزلت من عندي وأنت باك حزين مغتمّ فبكيت لبكائك، ثم إنّك عدت إليّ وأنت فرح مبتسم فممّ ذاك؟ قال: ذهبت لقبر أمّي فسألت ربّي أن يحييها، فأحياها فآمنت بي وردّها الله تعالى)). وروى السهيلي في (الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام) عن عروة بن الزبير عن السيدة عائشة رضي الله عنها: ((أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربّه أن يحيي أبويه فأحياهما له فآمنا به ثم أماتهما)). قال القرطبي: فضائل النبي صلى الله عليه وسلم وخصائصه لم تزل تتوالى وتتتابع إلى حين مماته. فيكون هذا ممّا فضّله تعالى وأكرمه به، وليس إحياؤهما وإيمانهما به ممتنعا عقلا ولا شرعا، فقد ورد في الكتاب العزيز إحياء قتيل بني إسرائيل وإخباره بقاتله. وكان عيسى عليه السلام يحيي الموتى. وكذلك نبيّنا صلى الله عليه وسلم أحيا الله تعالى على يديه جماعة من الموتى. أيّها المسلمون. فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو عين الرحمة المفاضة من حضرة الإحسان. التي وسع الله بها كل شيء بالفضل والحنان. سعد والله من مسّ جسمه الشريف أو رآه بمعناه. أو أحبّه وفرح بمن والاه.

صلّى عليه الله ما هبّ الصبا * أو غرّدت ورق بروض النادي

فبجاه ذي الجاه العظيم محمد * ختم الرسالة مبدإ الإيجاد

وبجاه أهل البيت غوث من التجا * وبأهل بدر مورد القصّاد

عمّم لنا غيث الرضا واغفر لنا * ما قد مضى من مضمر أو بادي

واجعل لنا من كل ضيق مخرجا * واحفظ جميع الأهل والأولاد

حقّق لكل مأمّل آماله * بالخير واحفظنا من الحسّاد

وافتح لنا باب المسرّة والهنا * واختم لنا بالخير والإمداد

واكتب لنا حجّا وحسن زيارة * لنبيّك المرفوع بالإسناد

ثم الصلاة على النبيّ وآله * ما سار ركب أو ترنّم حادي

وعلى صحابته الكرام جميعهم * من جاهدوا في الله حقّ جهاد

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَ سَلام عَلى المُرْسَلِينَ وَالحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ. اهـ

06- إكليل الأزهار المنتخب من سيرة النبيّ المختار وما وقع في طفولته من أحداث وإرهاصات عظيمة المقدار صلى الله عليه وآله وسلم

الحمد لله الذي جعل المحبّة المحمّدية. شعار أكابر الأولياء من الأقطاب والأبدال. والإشتغال بمدح شمائل السيادة الأحمدية. نتيجة الأقوال والأفعال. والإلتذاذ بسماع أحداثه ومعجزاته. قوت بنية أهل الأنس والإدلال. والتنويه بقدره الشريف. في مجالس المحبّين. غنيمة أكابر الفحول من الرجال. فسبحانه من إله جعل ذكر نبيّه صلى الله عليه وسلم نزهة لذوي الأبصار والإستبصار. وسرد فضائله وكرائمه. يحيي موات القلوب. ويشوّقها إلى حضرة المواهب والأسرار. والإنتساب إليه يرفع قدر الخامل ويرقّيه إلى مقام العزّ والإفتخار. والإعتصام بحبله المتين. يجير المستجير. ويحفظه من سطوة البغاة والأعادي والأشرار. والإستشفاع به. والتوسّل بجاهه. يقضي جميع الحوائج والأوطار .

افْتِخَارِي وَعِزِّي ثم جَاهِي وَعُدَّتِي * مَدِيحُ رَسُولٍ بِالشَّفَاعِةِ يُفْرَدُ

دُهِشْنَا بِهِ حُبًّا فَمَا وَلَدَ النِّسَا * كَأَحْمَدَ مَوْلُودًا وَلاَ هُوَ يُولَدُ

دِمَاءً مَزَجْنَاهَا بحُبِّ مُحَمَّدٍ * وَأَكْبَادُنا مِنْ شَوْقِهِ تَتَوَقَّدُ

دُفِعْتُ إِلَى الزَّلاَّتِ مَالِيَ حِيلَةٌ * سِوَى أَنَّنِي فِى مَدْحِ أَحْمَدَ أَجْهَدُ

دُهُورٌ تَقَضَّتْ بالذُّنُوبِ وَمَنْ يَكُنْ * عَلَيْه ذُنُوبٌ فالشَّفِيعُ مُحَمَّدُ

صَلاَتُكَ رَبِّي وَالسَّلاَمُ عَلَى النَّبِي * صَلاَةً عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي تُجَدَّدُ

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. أنار الوجود بطلعة خير البرية. سيّدنا محمّد عليه الصلاة والسلام. من تولاّه مولاه بالحفظ والحماية والرعاية السرمدية. وأدّبه فأحسن تأديبه. ليكون قدوة للأنام. فشبّ صلى الله عليه وسلم على الصدق والأمانة وكره العصبية الجاهلية. حتى هداه الله تعالى إلى شريعة الإسلام. وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله.

نَبيٌّ كَرِيمٌ طَاهِرٌ ومُطَهَّرٌ * رَؤُوفٌ رَحِيمٌ خَاشِعٌ مُتَوَاضِعُ

بَشِيرٌ نَذِيرٌ صَادِقٌ ومُصَدَّقٌ * سِرَاجٌ منِيرٌ فِي دُجَى الغَيِّ لاَمِعُ

إِمَامُ الْبَرَايَا قِبْلَةُ الدِّين والْهُدَى * وَكَعْبَةُ فَضْلٍ للمَحَاسِن جَامِعُ

مُحَمَّدٌ المُختَارُ أَشرَفُ مَن دَعَا * إلَى اللهِ وانقَادَت إلَيهِ الشَّرَائِعُ

عَلَيْهِ صَلاَةُ اللهِ مَا فَاهَ نَاطِقٌ * بِإِسمْهِ أَو صَلَّى امْرُؤٌ لَهُ سَامِعُ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. وعلى آله ذوي المناقب والمفاخر. وصحابته الطيّبي الشيّم والمئاثر. وعلى إخوانه من النبيئين والمرسلين. الذين استخلصتهم من أطيب العناصر وأكرم الأواصر. وعصمتهم في البواطن والظواهر. وفضّلتهم على جميع الأوائل والأواخر. صلاة تطهّر بها منّا ببركتهم القلوب والسرائر. وتعمّر بها منّا بمحبّتهم الأفئدة والضمائر. وتجعلنا بها ممّن حاز بالإقتداء بهم واقتفاء آثارهم أسنى الفضائل. وأنفس الذخائر. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. يقول الله تعالى في سورة الأنعام: ((اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتِهِ)). أي أنّ النّبوّة ليست بمجرّد النّسب والمال، وإنّما هي بفضائل نفسانية. يخصّ الله بها من يشاء من عباده، بل بمحض الفضل والكرم، فيجتبي سبحانه لرسالته من علم أنّه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذي فيه يضعها. فقد أحبّ الله تعالى نبيّنا الكريم صلى الله عليه وسلم واجتباه. وفضّله على سائر من اصطفاه. وعلم سبحانه أنّ سيّدنا محمّدا صلّى الله عليه وسلّم أهل للرسالة، فخصّه بها، وأكمل استعداده للبعثة. فخَلَقَه كامل الفطرة. وألبسه من حلل الكمال والجمال. ما لا عهد به لراء ولا سامع. فنشأ صلى الله عليه وسلم

والصدق حليفه. والإعتبار بالآيات الكونية أليفه. والأمانة شيمته. والعفاف حليته. والحزم طبيعته. والحلم خليقته. والتواضع شنشنته. والشجاعة سجيّته. والعدل رفيقه. والزهد فيما أيدي الناس طريقه. ورحم الله الإمام البوصبري إذ يقول في همزيته واصفا النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله:

النَّبِيُّ الأُمِّيُّ أَعْلَمُ مَنْ أَسْـ*ـــنَدَ عَنْهُ الرُّوَّاةُ وَالْحُكَمَاءُ

رَحْمَةٌ كُلُّهُ وَحَزْمٌ وَعَزْمٌ * وَوَقَارٌ وَعِصْمَةٌ وَحَيَاءُ

لاَتَحُلُّ الْبَأْسَاءُ مِنْهُ عُرَى الصَّبْـ*ـــرِ وَلاَ تَسْتَخِفُّهُ السَّرَّاءُ

وَسِعَ الْعَالَمِينَ عِلْماً وَحِلْمًا * فَهْوَ بَحْرٌ لَمْ تُعْيِهِ الأَعْبَاءُ

كَرُمَتْ نَفْسُهُ فَمَا يَخْطُرُ السُّو * ءُ عَلَى قَلْبِهِ وَلاَ الْفَحْشَاءُ

فِعْلُهُ كُلُّهُ جَمِيلٌ وَهَلْ يَنْـــ*ـــضَحُ إلاَّ بِمَا حَوَاهُ الإِنَاءُ

وذلك أنَّ جَوْهَرَةَ رُوحَانِيَّتِهِ صلى الله عليه وسلم تَرَبَّتْ فِي حِجْرِ: ((وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي))، وَتَغَذَّتْ بِلَبَانِ: ((إنِّي أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي))، وَتَأَدَّبَتْ بِآدابِ: ((أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي))، وَتَعَلَّمَتْ فِي مَكْتَبِ: ((وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيما))، فِي لَوْحِ: ((بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ)). وَتَفَقَّهَتْ فِي طُرُوسِ سُطُورِ: ((كَانَ خُلُقُهُ القُرْءانُ))، فِي جَوَامِعِ: ((كُنْتُ نَبِيّاً وَآدَمُ مُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ))، وَتَهَذَّبَتْ فِي مَفَاتِيحِ: ((فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى))، وَتَمَذْهَبَتْ بِإِمْدَادَاتِ قُوَى: ((مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى))، وَتَمَنْطَقَتْ بِمَنْطَقَةِ: ((نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ))، وَالْتَحَفَتْ بِلِحَافِ: ((مَنْ رَآنِي فَقَدْ رأى الحَقّ))، وَتُوِّجَتْ بِتَاجِ: ((حَسْبُكَ الله))، وَانْتَعَلَتْ بِنِعَالِ: ((ادْنُ مِنِّي يَا مُحَمّد بِنَعْلَيْكَ))، وَأُلْبِسَتْ حُلَلَ: ((يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)). وَعُمِّمَتْ بِعِمَامَةِ: ((فَإِنْ تَوَلَّوْا)) عَنْ مَعْرِفَتِكَ وَهُوِيَّتِكَ وَمَاهِيَّتِكَ: ((فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ)). عَرَفَنِي وَأَحَاطَ بِجُمَلِي وَتَفَاصِيلِي. وَعُصِّبَتْ بِعِصَابَةِ: ((لَقَدْ رَأَى مِنَ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى))، وَنُشِرَتْ عَلَيْهَا أَلْوِيَةُ: ((بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيد))، وَتَقَدَّمَهَا: ((أَنَا لَهُمْ مَا مَاتُوا))، وَتَأَخَّرَهَا: ((أَنا لَهُم مَا عَاشُوا))، وَتَوَسَّطَهَا: ((أَنا لَهُم فِي القُبُورِ))، وَأَحَاطَ بِهَا:((وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم)). أيّها المسلمون. ذلك هو سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم. مع أنّه يتيم شريف، وفقير غنيّ، وأمّيّ عالم. يتيم والإنسانية كلّها في كفالته، فقير وكنوز الخير في رسالته،

أمّيّ أرسل معلّما للقارئين والكاتبين، كيف لا يكون كذلك صلى الله عليه وسلم. وعين الله تلحظه. وعنايته تكلؤه وتحفظه. حتى نبت نباتا حسنا. ونشأ نشأة صالحة. ذكر أهل السير: أنّه لمّا بلغ صلى الله عليه وسلم ستّ سنين. توفّيت أمّه السيّدة آمنة بنت وهب رضي الله عنها. فضمّه جدّه عبد المطّلب إليه. واختصّ بكفالته ورقّ عليه رقّة لم يرقّها على ولده. روى أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان يوضع لعبد المطّلب فراش في ظلّ الكعبة. وكان لا يجلس عليه أحد من بنيه. إجلالا له، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي حتى يجلس عليه. فيذهب أعمامه يؤخّرونه. فيقول جدّه: دعوا إبني يجلس. فإنّه يحسّ من نفسه بشيء، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربيّ قبله ولا بعده. وفي السيرة الحلبية قال: وبينا عبد المطّلب يوما في الحجر وعنده أسقف نجران وهو يحادثه ويقول: إنّا نجد صفة نبيّ بقي من ولد إسماعيل، هذا البلد مولده. ومن صفته كذا وكذا. وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنظر إليه الأسقف وإلى عينيه وإلى ظهره وإلى قدميه. فقال: هو هذا، ما هذا منك؟ قال: هذا إبني. قال الأسقف: لا، ما نجد أباه حيّا. قال: هو إبن إبني. وقد مات أبوه وأمّه حبلى به. قال: صدقت. قال عبد المطلب لبنيه: تحفّظوا بابن أخيكم. ألا تسمعون ما يقال فيه؟. وورد في كتاب: (كريم الندماء ونديم الكرماء). أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رمد وهو صغير، فمكث أيّاما يشكو، فقال قائل لجدّه عبد المطّلب: إنّ بين مكة والمدينة راهبا يرقي من الرمد، وقد شفي على يديه خلق كثير، فأخذه جدّه وذهب به إلى ذلك الراهب، فلمّا رآه الراهب دخل إلى صومعته. فاغتسل ولبس ثيابه. ثم أخرج صحيفة فجعل ينظر إلى الصحيفة وإليه صلى الله عليه وسلم، ثم قال: هو والله خاتم النبيّين، ثم قال: يا عبد المطّلب هو أرمد؟ قال نعم، قال: إنّ داوءه معه، يا عبد المطلب خذ من ريقه وضعه على عينيه. فأخذ عبد المطّلب من ريقه صلى الله عليه وسلم ووضعه على عينيه فبَرِىء لوقته. ثم قال الراهب: يا عبد المطّلب وتالله هذا هو الذي أقسم على الله به. فأبرأ المرضى وأشفي الأعين من الرمد. ولمّا كملت له صلى الله عليه وسلم ثمان سنين. توفي جدّه عبد المطّلب. ودفن بالحجون. بجوار سيّدتنا خديجة رضي الله عنها. وكفله صلى الله عليه وسلم عمّه أبو طالب شقيق أبيه عبد الله. فقام بكفالته بعزم قويّ وهمّة وحميّة. وقدّمه في المحبّة على سائر الأهل والعيال. روى أبو نعيم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بنوا أبي طالب يصبحون عمشا رمصا. ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم صقيلا دهينا كحيلا. وكان

أبو طالب يحبّه حبّا شديدا. لا يحبّ أولاده كذلك. ولذا لا ينام إلاّ إلى جنبه. ويخرج به متى خرج. وروى الواقدي: أنّ عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعا أو فرادى لم يشبعوا. وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا. وكان أبو طالب إذا أراد أن يغدّيهم أو يعشّيهم يقول: كما أنتم حتى يحضر إبني. فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم. فيفضلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعهم، وإن كان لبنا شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّلهم. ثم يتناول العيال القدح فيشربون منه. فيروون عن آخرهم. وإن كان أحدهم ليشرب قدحا وحده. فيقول أبو طالب: إنّك لمبارك. وروى ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وقريش في قحط، فقائل منهم يقول: إعتمدوا واللات والعزّى. وقائل منهم يقول: إعتمدوا مناة الثالثة الأخرى. فقال شيخ وسيم. حسن الوجه. جيّد الرأي: أنّى تؤفكون؟ أي كيف تصرفون عن الحق. وفيكم بقيّة إبراهيم. وسلالة إسماعيل عليهما السلام. قالوا: كأنّك عنيت أبا طالب؟ قال: إيها. فقاموا بأجمعهم. وقمت معهم. فدققنا عليه بابه. فخرج إلينا رجل حسن الوجه. عليه إزار قد اتّشح به. فثاروا إليه. فقالوا: يا أبا طالب. أقحط الوادي. وأجدب العيال. فهلمّ فاستسق لنا. فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنّه شمس دجنّة تجلّت عليه سحابة قتماء. وحوله أغيلمة. فأخذه أبو طالب. فألصق ظهره بالكعبة. ولاذ بأصبعه الغلام. وما في السماء قزعة. أي قطعة من سحاب، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا. واغدَودَق وانفجر له الوادي. وأخصب النادي والبادي. وفي ذلك يقول أبو طالب من قصيدة يمدح بها النبيّ صلى الله عليه وسلم. وشرّف وكرّم:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثَمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم * فهم عنده في نعمة وفواضل

ولمّا بلغ صلى الله عليه وسلم إثنتي عشرة سنة. خرج مع عمّه أبي طالب إلى الشام. روى الترمذي والبيهقي وابن أبي شيبة عن أبي موسى قال: خرج أبو طالب إلى الشام ومعه النبيّ صلى الله عليه وسلم في أشياخ من قريش. فلمّا أشرفوا على الراهب يعني بحيرى. هبطوا فحلّوا رحالهم. فخرج إليهم. وكان قبل ذلك يمرّون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت. قال: فنزل وهم يحلّون رحالهم. فجعل يتخلّلهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: هذا سيّد المرسلين. هذا سيّد العالمين. هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقيل له: وما أعلمك بذلك؟ قال: إنّكم حين

أشرفتم من العقبة. لم يبق شجر ولا حجر إلاّ خرّ ساجدا. ولا يسجدان إلاّ لنبيّ. وإنّي أعرفه بخاتم النّبوّة في أسفل من غضروف كتفه. مثل التفاحة. وإنّا نجده في كتبنا. وأمر عمّه بردّه إلى مكة تخوّفا عليه من أهل دين اليهودية. فامتثل أبو طالب أمر الراهب. ولم يجاوز من الشام المقدّس بصراه. وشبّ صلى الله عليه وسلم مبكّرا. متحلّيا بالصدق والأمانة. وقد ظهرت عليه من الله تعالى الرعاية والعناية. أخرج الطبري في تاريخه عن سيّدنا علي كرّم الله وجهه ورضي عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول:((مَا هَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْمَلُونَ بِهِ غَيْرَ مَرَّتَيْنِ، كُلُّ ذَلِكَ يَحُولُ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَا أُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ. ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بِسُوءٍ حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِرِسَالَتِهِ، فَإِنِّي قَدْ قُلْتُ لَيْلَةً لِغُلامٍ مِنْ قُرَيْشٍ، كَانَ يَرْعَى مَعِي بِأَعْلَى مَكَّةَ: لَوْ أَبْصَرْتَ لِي غَنَمِي حَتَّى أَدْخُلَ مَكَّةَ، فَأَسْمُرَ بِهَا كَمَا يَسْمُرُ الشَّبَابُ، فَقَالَ: أَفْعَلُ، فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ذَلِكَ. حَتَّى إِذَا جِئْتُ أَوَّلَ دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ، سَمِعْتُ عَزْفًا بِالدُّفُوفِ وَالْمَزَامِيرِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: فُلانُ بْنُ فُلانٍ تَزَوَّجَ بِفُلانَةٍ بِنْتِ فُلانٍ، فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، فَضَرَبَ اللَّهُ عَلَى أُذُنِي، فَنِمْتُ، فَمَا أَيْقَظَنِي إلا مَسُّ الشَّمْسِ، قَالَ: فَجِئْتُ صَاحِبِي، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ قُلْتُ: مَا صَنَعْتُ شَيْئًا، ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَيْلَةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: أَفْعَلُ، فَخَرَجْتُ، فَسَمِعْتُ حِينَ جِئْتُ مَكَّةَ مِثْلَ مَا سَمِعْتُ حِينَ دَخَلْتُ مَكَّةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ، فَضَرَبَ اللَّهُ عَلَى أُذُنِي، فَوَاللَّهِ مَا أَيْقَظَنِي إلا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَأَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ، ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بَعْدَهَا بِسُوءٍ حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِرِسَالَتِهِ)). صلّى الله عليه وسلّم. وشرّف وكرّم. ومجّد وعظّم. ووالى عليه ذلك وأنعم. اللّهمّ طيّب مجالسنا بالصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد. صلّى الله عليه وسلّم. وثبّت اللّهمّ قلوبنا على محبّة سيّدنا محمّد. صلّى الله عليه وسلّم. واجمع اللهم شمل أتباع سيّدنا محمّد. صلّى الله عليه وسلّم. وأظهر اللّهمّ دينه على البرايا. وباعد بيننا وبين جميع البلايا. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

....

07- المغنمُ الرابحُ لكل سائل ولائح مدارسةُ سيرة النبيّ الفاتح والوقوفُ على بعض وقائع شبابه بالحقّ الواضح صلى الله عليه وآله وسلم

الحمد لله الذي خلق فقدّر. وملك فدبّر. وشرع فيسّر. وربّك أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتِهِ. أهّل من شاء لما شاء من الخيرات. ويسّر عليه نيل أسباب الكرامات. وهو أعلم بمواضع اختياره وتدبيراته. فسبحانه من إله منح خاتم الإرسال. سيّدنا محمّدا صلى الله عليه وسلم. كمال الصفات وصفات الكمال. وحباه من شريف الخلال. ما تنقطع دونه أعناق الآمال. فزيّن ظاهره وباطنه ببديع الجمال. وكساه لمنع الإفتتان به حلل المهابة والجلال. وخصّه بالرسالة الخاتمة. المطهّرة للعقول من الشرك والضلال. والموصِلة للبشرية إلى السعادة في الحال والمآل.

أَلاَ يَا مُحِبَّ الْمُصْطَفَى زِدْ صَبَابَةً * وَضَمِّخْ لِسَانَ الذِّكْرِ دَأْبًا بِطِيبِهِ

وَلَا تَعْبَأَنْ بِالْمُبْطِلِينَ فَإِنَّمَا * عَلاَمَةُ حُبِّ اللَّهِ حُبُّ حَبِيبِهِ

وَمَنْ يَعْمُرُ الأَوْقَاتَ طُرًّا بِذِكْرِهِ * فَلَيْسَ نَصِيبٌ فِي الْهَوَى كَنَصِيبِهِ

وَمَنْ كَان عَنْهُ مُعْرِضًا طُولَ دَهْرِهِ * فَكَيْفَ يُرْجِيهِ شَفِيعَ ذُنُوبِهِ

فَذِكْرُ رَسُولِ اللهِ فَرْضٌ مُؤَكَّدُ * وَكُلُّ مُحِقّ قَائِلٌ بوُجُوبِهِ

نَبِيٌّ هَدَانَا مِنْ ضَلاَلٍ وَحَيْرَةٍ * إِلَى مُرْتَقًى سَامِي المَحَلِّ خَصِيبِهِ

هَنِيئًا لَنَا سُدْنَا عَلَى كُلِّ أُمَّة * بأَحْمَد نُورِ اللهِ كَنْزِ غُيُوبِهِ

فَبُشْرَى لَنَا بُشْرَى لَنَا بِشَفِيعِنَا * عَرُوسِ مَقَامِ الحَمْدِ طَهَ خَطِيبِهِ

عَلَيْهِ سَلاَمُ اللهِ مَا هَيَّجَ الجَوَى * نَسِيمَ الصَّبَا النَّجْدِيِّ عنْدَ هُبُوبِهِ

وأشهد أن لا إله إلاّ الله. وحده لا شريك له. أبرز للوجود نبيّه وعبده. وسجّل في سفر الكون شرفه ومجده. وحباه قبل خلقه بالإكرام. وانتخبه من خيرة خلقه الجلّة الكرام. وأنشأه برّا كريما. رؤوفا رحيما. وبه رسله ختم. وعليه نعمته أتم. فهو الحائز لكل المفاخر الفاخرة. وهو على الإطلاق سيّد أهل الدنيا والآخرة. توالت عليه صلوات الله وسلامه. وتحيّاته وبركاته وإكرامه. وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. نبيّ ما ضلّ وما غوى. وما ينطق عن الهوى. وفي جميع أطواره كان محفوظا بعناية ربّه يقينا. حتى أخبره سبحانه بذلك في سورة الطور. فقال له قولا مبينا: ((وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا)). ولم يزل

صلى الله عليه وسلم في كلّ حالة ملحوظا مرفودا. حتى بشّره ربّه بقوله في سورة الإسراء: ((عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)).

مُحَمَّدٌ مَا لَهُ مِثْلٌ يشَابِهُهُ * مُحَمّدٌ سَيِّدٌ عَظمَتْ مَرَاتِبُهُ

هُوَ الحَبِيبُ الذِي أَغْنَتْ مَوَاهِبُهُ * وَعَزَّ مِقْدَارُهُ في المجْدِ وَارْتَفَعَا

صَلُّوا عَلَى الْمُصْطَفَى يَا كُلَّ مَنْ سَمِعَا

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّنا محمّد. مجمع الكمالات الإنسانية. وعلى آله الأطهار. أولي الفضائل والخصوصية. وأصحابه نجوم الإهتداء. ذوي المناقب والأفضلية. وأزواجه أمّهات المومنين. وذريّته الطيّبين الطاهرين. صلاة نكون بها من عبادك الفائزين الآمنين. وخواصّ أحبّائك الأصفياء الملهَمين. وتحشرنا بها مع الذين أنعمت عليهم من النّبيئين والصدّقين والشهداء والصالحين. في جوار سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. لمّا أراد الله تعالى أن يتعرّف إلى خليقته. ويعمّهم بجزيل نعمته. ويفيض عليهم من بحار رحمته. وعلم سبحانه عجز عقول جميعهم. عن التّلقّي من حضرة ربوبيّته. جعل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وسائط بينه وبين بريّته. وجعل لهم الإستعداد لقبول ما يرِد عليهم من إلاهيّته. يتلقّونه منه بما أودع فيهم من سرّ خصوصيّته. ويبلّغونه عنه بأمره لعباده. جمعا لهم على أحديّته. قال تعالى في سورة النساء: ((رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِيَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً)). فالأنبياء والرسل برازخ الأنوار. ومعادن الأسرار. قد حرس الله بواطنهم وظواهرهم في الأزل من رقّ الاغيار. وصانهم بعنايته قبل إبرازهم إلى الوجود. عن التعلّق بالآثار. قال تعالى في سورة طه: ((وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)). وجعلهم سبحانه رحمة للخلق مهداة. ومنّة للعوالم معطاة. ومازال فلك النبوّة والرسالة دائر. حتى عاد الأمر من حيث بدا. وخُتِم بمن جعله الله رحمة وهدى. وهو نبيّنا ومولانا سيّدنا محمّد الفاتح الخاتم. أفضل من تأخّر أو تقادم. صلى الله عليه وسلم. ما هبّت النسائم. وما غنّت على الأيك الحمائم. قال تعالى في سورة الأحزاب: ((مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتِمِ النَّبِيئينَ)). كما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يجعل أنبياءه ورسله بشراً كغيرهم، لا يميّزهم سوى ما اختصّهم به سبحانه من أمور

تتطلّبها الرسالة. وتقتضيها النبوّة، قال تعالى في سورة الكهف: ((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)). فهم عليهم الصلاة والسلام يشتركون مع سائر الناس في الصحّة والمرض، والجوع والشبع، ويسعون كغيرهم للبحث عن الرزق، ويقومون بالأعمال التي يحتاج إليها الناس في حياتهم، ولا يستقيم أمرهم إلا بها. قال تعالى في سورة الفرقان: ((وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا)). أيّها المسلمون. والمتأمّل في سيرة النبيّ صلى الله عليه وسلم. يجدها غنيّة بالمواقف الدالّة على مشاركة الرسول صلى الله عليه وسلم لقومه في الأنشطة المختلفة، والتي كان من أبرزها ممارسته لرعي الأغنام. في مراحل عمره الأولى، وذلك أنّ عمّه أبا طالب لم يكن لديه ما يكفيه من المال للقيام بشؤون أسرته، فأراد النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يعينه على نفقاته، فكان يأخذ الغنم من أهل مكّة ويرعاها مقابل أجرٍ معلوم. وكانت هذه المهنة قاسما مشتركاً بين الأنبياء جميعاً، روى البخاري وغيره. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال: ((ما بعث الله نبيّا إلاّ رعى الغنم)). فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: ((نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)). أي وهي أجزاء من الدراهم والدنانير يشترى بها الحوائج الحقيرة. وذكر صاحب السيرة الحلبية: أنّ حكمة الله عزّ وجلّ في ذلك. أنّ الرجل إذا استرعى الغنم التي هي أضعف البهائم. سكن قلبه الرأفة واللطف، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق. كان قد هُذِّب أوّلا من الحدّة الطبيعية. والظلم الغريزي، فيكون في أعدل الأحوال. ومن خلال القيام بهذه المهنة. تربّى الأنبياء عليهم الصلاة ولسلام. وعلى رأسهم نبيّنا صلى الله عليه وسلم. تربّوا على معاني الصبر والتحمّل، والرحمة والإحسان، والتواضع للآخرين، وغيرها من المعاني المهمّة في دعوتهم للناس. أيّها المسلمون. ولمّا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة سنة. حضر حرب الفِجار. وشارك في الدفاع عن مكّة، عندما أرادت هوازن ومن معها الهجوم على الحرم واستباحة مقدّساته لقتال قريش، روى ابن سعد في طبقاته: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((كنت أنبّل على أعمامي)). أي أردّ عليهم نبل عدوّهم إذا رموه. بمعنى أنّ مشاركته صلى الله عليه وسلم اقتصرت عندئذٍ على جمع السهام ومناولتها لأعمامه. وسمّيت حرب الفجار. وذلك. لأنّ قتالهم كان في الشهر الحرام. ففجروا فيه جميعا. وكان للنبيّ صلى الله عليه وسلم حضورٌ ومشاركات في الندوات

والإجتماعات التي يعقدها قومه لبحث القضايا المهمّة، ومن ذلك حضوره (حلف الفضول)، وهو أشرف حلف في العرب. ولرسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ عشرون سنة. كما في سبل الهدى والرشاد. وهو عقدٌ تمّ بين مجموعةٍ من قبائل مكّة كان منها بنو هاشم وبنو زهرة وبنو أسد وبنو تَيْم، تعاقدوا واتّفقوا على حماية المظلوم ونصرته، ومواجهة الظالم مهما كانت مكانته وسلطته، وذلك في دار عبد الله بن جدعان التيمي، وقد مدح النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا الحلف بعد أن شرّفه الله تعالى بالرسالة. روى ابن إسحاق عن طلحة بن عبيد الله وابن سعد والبيهقي عن جبير بن مطعم رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحبّ أنّ لي به حمر النّعم. ولو دعي به في الإسلام لأجبت)). أي لو قال قائل من المظلومين: يا آل حلف الفضول. لأجبت، لأنّ الإسلام إنّما جاء بإقامة الحقّ. ونصرة المظلوم. أيّها المسلمون. وخلال السنوات التي عاشها النبيّ صلى الله عليه وسلم في مكّة. لم يطمئن قلبه إلى أحوال قومه من الشرك وعبادة الأوثان، وكل خلق رديء. ووصف مقيت. ومذهب سيّء؛ فعين الرعاية الربانية تلاحظه، ويد الحفظ الإلاهي تعاونه، وأغصان الولاية تظلّله، لأنّه من صغره مرشّح لإصلاح العالم، مهيّأ لإسعاد البشرية، معدّ بعناية ربّه لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وينبغي أن يعلم أنّ المراد بالضلال. في قول الله تعالى في سورة الضحى: ((وَوَجَدَك ضالاً فَهَدَى)). أي الحيرة التي تلمّ بقلوب أهل الإخلاص. فيما يرجون للناس من الخلاص. وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين. وإرشاد الضالّين. قال القاضي عياض رحمه الله: لم يقل أحد من المفسّرين: ضالاً عن الإيمان. فهو صلى الله عليه وسلم الرجل لكن النبيّ، والإنسان لكن الرسول، والعبد لكن المعصوم، والبشر لكن الموحى إليه. لم يستطع أعداؤه صلى الله عليه وسلم حفظ زلّة عليه. مع شدّة عداوتهم. وعظيم مكرهم. وضراوة حقدهم، بل لم يعثروا في ملّف خلقه الكريم على ما يعيب، بل وجدوا والحمد لله. كل ما غاظهم من نبل الهمّة، ونظافة السّجل، وطهرٍ في السيرة، وجدوا الصّدق الذي يباهي سناء الشمس، ووجدوا الطّهر الذي يتطهّر به ماء الغمام، فكان في عنفوان شبابه مستودع الأمانات، ومردّ الآراء، ومرجع المحاكمات، ومضرب المثل في البرّ والسموّ. والرشد والفصاحة. وصدق ربّنا إذ وصفه في سورة القلم بقوله: ((وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم)). صلّى الله عليه وسلّم. وشرّف وكرّم. ومجّد وعظّم. ووالى عليه ذلك وأنعم. اللهم بحرمة هذا النبيّ الكريم. وآله وأصحابه

السالكين على منهجه القويم. إجعلنا من خير أمّته. واسترنا بذيل حرمته. واستعمل ألسنتنا في مدحه ونصرته. وأحينا متمسّكين بسنّته وطاعته. وأمتنا على حبّه وجماعته. اللهم ارزقنا زيارته في كل سَنَة. ولا تجعلنا من الغافلين عنك ولا عنه قدر سِنَة. اللهم اجعل هذا الرسول الكريم لنا شفيعا. وارزقنا به يوم القيامة مقاما رفيعا. واسقنا من حوضه شربة لا نظمأ بعدها أبدا. واحشرنا تحت لوائه غدا. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

08- النزهة البهيجة في رياض سيرة الرسول والإستمتاع بقصّة زواجه من السيّدة خديجة الطاهرة أمّ البتول صلى الله عليه وآله وسلم

الحمد لله محلِّي محاسِن السنّة المحمّدية بدرر أخبارها. ومجلِّي ميامِن السيرة النبويّة عن غرر آثارها. ومؤيِّد مَن اقتبس مِن نور هدايته مِن مشكاة أنوارها. ومسهِّل طريق الجنّة لِمَن اتّبع مستقيم صراطها. واهتدى بضياء منارها. ومذلِّل سبيل الهداية لِمَن اقتفى سرائر سيرها وسير أسرارها. فسبحانه مِن إله جعل اللهج بذكر نبيّه الصادق الأمين. يهيّج الأحوال الربانية. ويرقّي إلى المراتب العليّة. والمقامات الملكوتية. والإستغراق في محبّته يستجلب الفتوحات القدوسية. والأسرار اللدنية. والإستمساك بسنّته والإقتداء بسيرته يورِّث الفوائد العلمية العملية. ويمنح الكشوفات العيانية. والتوسّل بجاهه يفتح الأغلاق ويسهّل المقاصد الدنيوية والأخروية .

شُغِفْتُ بِمَدْحِ الهَاشِمِيّ المُفَضَّلِ * مِن الله محْرُوس مِن العيْبِ والنّقْصِ

صَدُوقٌ فَلَمْ يَنْطِقْ مَدَى الدَّهْرِ عَنْ هَوَى * كَذلِكَ قالَ الله فِي مُحْكَمِ النَّصِّ

صُنُوفُ صِفَاتِ الرُّسْلِ حِيزتْ لأحْمَدِ * وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ يُجْمَعَ الفَضْلُ فِي شَخْصِ

صُدُوراً طَبَعْنَاهَا عَلَيْهِ مَحَبَّةً * فَجَاءَتْ كَنَقْشٍ لِلْخَوَاتِمِ فِي الفَصِّ

تَزَايَدَ شَوْقِي لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدِ * وَأَرْوَاحُنَا مِن شَوْقِ أَحْمَدَ في رَقْصِ

مُنَائِي رَجَائِي أَن أُقَبِّلَ قَبْرَهُ * وَقَبْرَ أَبِي بَكرٍ وَقَبْرَ أَبِي حَفْصِ

صلاتُك ربِّي والسلامُ على النِبي * ما رنّح غُصْن في الحدائقِ بالرقْصِ

وأشهد أن لا إله إلاّ الله. وحده لا شريك له. أبْرَزَ لنا من مَكنون عِلمِه الرَّحمة المُهداة. سيّدنا محمّداً رسولَ الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ، صَلاَةً تُعَرِّفُنَا بِهَا إِيَّاهُ. فهو المثل الأعلى الذي جعله اللهُ قدوة للعالم أجمع فيما يحبّه ويرضاه، بعثه كاملا مُكمَّلا في جميع مراحلِ حياته. وفي سلوكه ومعامَلاته. هادياً إلى طريقِه القويمِ الذي ارْتضاه. وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله الممجّد. ونبيّه الصادق الوعد. وصفيّه الأمين. الوفيّ العهد. وحبيبه الحامد المحمود. نِعْمَ العَبْد.

اللهُ أَوْلاَهُ مِنْ إِكْرَامِهِ كَرَما * وَدَارُهُ لِاِحْتِرَام أَصْبَحَتْ حَرَما

وَمَنْ يُصَلِّ عَلَيْهِ فَازَ بَلْ غَنِمَا * وَمَنْ يلُوذُ بِهِ هَيْهَاتَ أَنْ يَظَمِ

صَلُّوا عَلَى المُصطَفَى يَا سَادَةَ الأُمَمِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد المصطفى المختار. وعلى آله السادة الأطهار. وصحابته الأجلّة الأبرار. صلاة نستجلب بها رضى مولانا الحليم الغفّار. ونكسى بها بين المحبّين حلّة مرقومة بمواهب المعارف المحمدية ولطائف الأسرار. موشّاة بحقائق العوارف الأحمدية وشوارق الأنوار. نفتخر بمحاسنها النبوية في محافل الصلحاء الأخيار. ونجرّ ذيل التيه بكمال عنايتها المصطفوية في هذه الدار وفي تلك الدار. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. يقول الله تعالى في سورة الأحزاب: ((لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)). وذلك أنّ حياة نبيّنا. سيّدنا ومولانا محمّد. صلى الله عليه وسلم. مثال أعلى لأولئك الرسل الكرام. عليهم الصلاة والسلام. ومثال أسمى لمَن أراد أن يعيش سعيدا كريما في نفسه. وأسرته وبيئته. ومثال صادق في القول والعمل. في السِّلْم والْحَرْب. في الْمَنْشَط والْمَكْرَه. وفي كلّ جزئيّة من جزئيّات هذه الحياة. فنشأ صلى الله عليه وسلم وعناية الله تعالى تحوطه منذ صغره حسّا ومعنى. أخرج ابن سعد وابن عساكر وابن إسحاق والبيهقي عن داود بن الحصين قال: قالوا: شبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلؤه الله ويحفظه. ويحوطه من أقذار الجاهلية ومعايبها. لِمَا يريد به من كرامته ورسالته. حتى بلغ أنْ كان رجلا أفضلَ قومه مروءة. وأحسنَهم خُلُقا.

وأكرَمَهم حسبا. وأحسَنَهم جوارا. وأعظَمَهم حلما. وأصدَقَهم حديثا. وأعظَمَهم أمانة. وأبعَدَهم من الفحش والأخلاق التي تدنّس الرجال. تنزّها وتكرّما. ما رُئِيَ ملاحِيا ولا ممارِيا أحدا. حتى ما إسمه في قومه إلا الأمين. لِمَا جمع الله فيه من الأمور الصالحة. أيّها المسلمون. لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نشأته. يستعفّ بالعمل عن سؤال الناس. لم يكن عالةً على أحد، فلقد تربّى على الرجولة منذ نعومة أظفاره. فكان يعمل ويكافح في حياته. فقد رعى الغنم لأهل مكّة على قراريط. أي على دراهم قليلة، وهو حَدَث صغير. وعندما شبّ إشتغل بالتجارة. فكان يتاجر بسوق مكة. وبالأسواق القريبة منها. كسوق عكاظ ومجنّة وذي المجاز. فاستطاع خلال فترةٍ قصيرةٍ أن يتعلّم فنون التجارة. ويعرف مداخلها، فشارك السائب بن أبي السائب. فكان صلى الله عليه وسلم نعم الشريك لا يداري ولا يماري. وكان صادقا أمينا. بل خير أمين ومؤتَمَن. صلى الله عليه وسلم. حتى أصبح من التجّار المعروفين. وانتشر خبره بين الناس، أخرج أبو داوود وأبو يعلى وابن مَنْدَهْ في معرفة الصحابة والخرائطي في مكارم الأخلاق. عن عبد الله بن أبى الحمساء قال: بايعت النبيّ صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث. وبقيّت له بقيّة. فوعدته أن آتيه بها في مكانه. فنسيت، ثم تذكّرت بعد ثلاثة أيام، فجئت فإذا هو في مكانه؛ فقال: ((يا فتى لقد شققت عليّ. أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك)). لقد كان لهذه النشأة العصامية. وهذا التعامل الصادق. كان له أثره في نفوس الناس. حتى لقّبوه بالصادق الأمين. ومن ثَمَّ كان الكثير من تجّار مكة يَعرضون عليه العمل لهم في تجاراتهم. مقابل أجر أكبر من أقرانه. حتى سمعت به سيّدة من سيّدات قريش. ذات شرف ظاهر. ومال وافر. وحسب فاخر. عُرفت بمكة المكرّمة بالطاهرة. وبسيّدة نساء قريش. إنّها أولى أمّهات المؤمنين. وزوج رسولنا الأمين. صلى الله عليه وسلم. إنّها السيّدة خديجة بنت خويلد. رضي الله عنها وأرضاها. ونفعنا ببركاتها. كانت من أكبر تجّار مكة. تستأجر الرجال ليتاجروا بمالها في أسواق الشام والحبشة. مقابل أجر لهم. فأرسلت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم تستأجره أن يخرج لها في تجارة إلى الشام. على أن تدفع له أجر رجلين. حين سمعت بصدقه وأمانته، وكان يومها صلى الله عليه وسلم في الخامسة والعشرين من عمره. روى ابن سعد وابن السّكن وأبو نعيم عن نفيسة بنت مُنيّة قالت: قالت له خديجة: ((إنّه دعاني إلى البعث إليك. ما بلغني من صدق حديثك، وعظم أمانتك. وكرم أخلاقك، وسأعطيك ضعف ما أعطي رجلا آخر من قومك)). ففعل رسول الله، صلى الله

عليه وسلم. ثم لقي عمّه أبا طالب فذكر له ذلك. فقال: إنّ هذا لرزق ساقه الله إليك. ولكن لو كُشف الغيب لأبي طالب. واطّلع على ما هيّأته الأقدار الإلاهية للسيّدة خديجة بهذه الإجارة. من سعادة الدنيا والدين، لقال لابن أخيه: هذا رزق ساقه الله لخديجة! وصدق الإمام البوصيري حيث قال في همزيّته:

وَإِذَا سَخَّرَ الإِلَهُ أُنَاساً * لَسَعِيدٍ فَإِنَّهُمْ سُعَدَاءُ

أيّها المسلمون. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع غلامها ميسرة، وقالت خديجة لميسرة: لاتعص له أمرا. ولا تخالف له رأيا. ومن حين سيره أظلّته الغمامة. فلمّا قدم الشام. نزل في سوق بصرى في ظلّ شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له نسطورا. فاطّلع الراهب إلى ميسرة. وكان يعرفه. فقال: يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ. إلاّ نبي. ثم قال له: أفي عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم. لا تفارقه. فقال الراهب: هو هو، وهو آخر الأنبياء، ويا ليت أنّي أدركه حين يؤمر بالخروج. . ثم حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى، فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة. فقال الرجل: إحلف باللات والعزّى. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم:((ما حلفت بهما قطّ))، فقال الرجل: القول قولك، ثم قال الرجل لميسرة وقد خلا به: يا ميسرة هذا نبي هذه الأمّة، والذي نفسي بيده إنّه لهو. تجده أحبارنا منعوتا في كتبهم، فوعى ميسرة ذلك. ثم إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم باع وربح ربحا لم يربحه أحد من أهل القافلة. حتى قال له ميسرة: اتّجرنا لخديجة سنين. ما رأيت ربحا مثل هذا!. أيّها المسلمون. ولمّا رجعوا إلى مكة في ساعة الظهيرة. رأته خديجة مقبلا وهي بين نسوة في عليّة. وملكان على رأسه الشريف من وهج الشمس قد أظلاّه. وأخبرها ميسرة بأنّه رأى ذلك في السفر كلّه. وبما قال له الراهب. وأودعه لديه من الوصية. وهذا كله إعتناء الله تعالى بالسيّدة خديجة رضي الله عنها. حيث أطلعها سبحانه على هذه المعجزات. وعرّفها بهذه الخوارق للعادات. حتى اهتدت لمعرفة رسول الله. صلى الله عليه وسلم. ومحبّته والتصديق برسالته. فكان ذلك تعرّفا من الله إليها. فكانت رضي الله عنها ممّن تعرّف الله إليهم بنوره. ولا يستوي من تعرّف الله إليه بنوره. مع من تعرّف إلى الله بعقله. قال تعالى في سورة النور: ((نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ

الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)). قال ابن إسحاق: فلمّا رأت خديجة أنّ تجارتها قد ربحت. أضعفت له ما سمّت له. وبعد مجيئه صلى الله عليه وسلم من الشام بشهرين. خطبته لنفسها لتنال به السعادة الأبدية. وتشمّ من الإيمان به طيب ريّاه. وَكَانَ عُمُرُها رضي الله عنها يَوْمَئِذٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً. وهو صلى الله عليه وسلم إبنُ خمسٍ وعشرينَ سَنَةً، وقد أشار إلى ما تقدّم. الإمام البوصيري رحمه الله في همزيته بقوله:

وَرَأَتْهُ خَدِيجَةٌ وَالتُّقَى وَالزُّهْــ*ــدُ فِيهِ سَجِيَّةٌ وَالْحَيَاءُ

وَأَتَاهَا أَنَّ الْغَمَامَةَ وَالسَّرْ * حَ أَظَلَّتْهُ مِنْهُمَا أَفْيَاءُ

وَأَحَادِيثُ أَنَّ وَعْدَ رَسُولِ * اللهِ بِالْبَعْثِ حَانَ مِنْهُ الْوَفَاءُ

فَدَعَتْهُ إِلَى الزَوَاجِ وَمَا أَحْـ*ــسَنَ مَا يَبْلُغُ الْمُنَى الأَذْكِيَاءُ

فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم أعمامه بما دعته إليه هذه البرّة التقيّة. فرغبوا فيها. لفضل ودين. وجمال ومال. وحسب ونسب. كلّ من القوم يهواه. وكانت رضي الله عنها قَدْ تَزَوَّجَتْ قَبْلَهُ صلى الله عليه وسلم بِرَجُلَيْنِ، روى الطبراني عن الزبير بن بكار قال: كانت خديجة رضي الله عنها قبل رسول الله صلى عليه وسلم.عند عتيق بن عائذ المخزومى، فولدت له جارية إسمها هند، ثم خلف عليها أبو هالة، هند بن زرارة التميمي، فولدت له هندا وهالة، فهما أخوا ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان هند فصيحا بليغا وصّافا، وكان يقول: أنا أكرم الناس أبا وأمّا وأخا وأختا، أبي رسول الله لأنّه زوج أمّه، وأمّي خديجة، وأخي القاسم، وأختي فاطمة، قتل هند هذا مع سيّدنا عليّ كرّم الله وجهه يوم واقعة الجمل. ومن خصائصها الشريفة. ومناقبها المنيفة. رضي الله عنها. أنّ كل أولاده صلى الله عليه وسلم منها. إلاّ سيّدنا إبراهيم فمن مارية القبطية. التي أهداها له مقوقس مصر. روى ابن سعد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان أكبر ولد الرسول صلى الله عليه وسلم القاسم. وبه كان يكنّى. ثم زينب ثم عبد الله. ويقال له: الطيّب والطاهر. ثم أمّ كلثوم. ثم فاطمة الزهراء. ثم رقيّة. فمات القاسم، وهو أوّل ميّت من ولده صلى الله عليه وسلم بمكة. ثم مات عبد الله، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع نسله. فهو أبتر. فأنزل الله عزّ وجلّ: ((إنَّا أعطيناك الكوثرَ فَصَلِّ لربّك وانْحَرْ إنَّ شَانِئَكَ هو الأبْتَرُ)). ومِنْ كرامَةِ أمّ المؤمنين السيّدة خديجة رضي الله

عنها على النبيّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. أنّهُ لَمْ يَتَزَوَّجِ امْرَأَةً قَبْلَها، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ عليها قطُّ، ولا تسرَّى. إلى أنْ قَضَتْ نحبَها، فحَزِنَ لِفَقْدِها حُزنًا شديدًا. معَ كاملِ الصَّبرِ والتَّسليمِ للهِ ربِّ العالمينَ. وكانتْ رَضِيَ اللهُ عنها رابِطَةَ الجأشِ، عاقِلَةً مَصُونَةً، ثَبَّتَتْ جَأْشَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لَمَّا فَاجَأَهُ الوحيُ أوّلَ مرةٍ في غارِ حِرَاءَ، فرَجَعَ إليها يَرْجُفُ فؤادُهُ، يقولُ لَها: ((زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي)). فقالتْ لَهُ في ثقة ويقين: كَلا وَاللَّهِ. لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. ومن خصائصها رضي الله عنها التي نالت بها أعلى مراتب الشرف والكمال. أنّها أوّل من آمن بالحبيب صلى الله عليه وسلم من النساء والرجال. فصدّقته وآزرته وثبّتته. وخفّف الله بسبب إيمانها عن نبيّه صلى الله عليه وسلم كل همّ. وفرّج عنه ما أصابه في الدعوة من تعب ونكد وغمّ، وقد حَفِظَ لَهَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هذه الخِدْمَةَ الجليلةَ، فكانَ يَذْكُرُها بِها بعدَ موتِها، وبينَ معاشَرِ أزواجِهِ، يغارُ عليها. ويُبَالِغُ في تعظيمِها ويُثْنِي عليها، أخرج البُخَارِيُّ في صحيحه عن السيدة عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَت: مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاء، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إلاَّ خَدِيجَةُ، فَيَقُولُ: ((إِنَّهَا كَانَتْ، وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ)). وروى الطبراني بإسناد جيّد. عن السيدة عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة رضي الله عنها لم يكد يسأم من ثناء عليها. واستغفار لها. فذكرها ذات يوم. فاحتملتني الغيرة، فقلت: لقد عوّضك الله من كبيرة، قالت: فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب غضبا شديدا، وسقطتّ في جلدي، فقلت: اللهم إن ذهب غيظ رسولك، لم أعد أذكرها بسوء ما بقيت، قالت: فلمّا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لقيت، قال: ((كيف قلت والله، لقد آمنت بي إذ كفر الناس، وواستني، إذ رفضني الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، ورزقت من الولد إذ حرمتموه))، فغدا وراح عليّ بها شهرا. وهكذا. فإنَّ الجزاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، ((وهَلْ جَزَاءُ الإحْسَانِ إِلّا الإِحْسَانُ)). فَإِنَّهَا رَضِيَ اللهُ عنهَا لَمَّا قَامَتْ بخِدْمَتِهِ صلى الله عليه وسلم. أَحْسَنَ قيام. بل آمَنَتْ بهِ وآزرته. فأَحْسَنَ إليها النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ مَوْتِها. وهو الزوج الوفيّ. بِدَوَامِ ذِكْرِها. والإستِغْفَارِ لَها. والثَّنَاءِ علَيها، ومن خصائصها رَضِيَ

اللهُ عنها. أنّها من أفضل نساء أهل الجنّة. روى الإمام أحمد، وأبو يعلي، والطبراني برجال الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((خطّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض أربعة خطوط. فقال: تدرون ما هذا؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضل نساء أهل الجنّة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون)). وفِي الصَّحيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ((أتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي. وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ. لاَ صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَصَبَ)). وكانَ ذلك في حَيَاتِها رَضِيَ اللهُ عنها. قال السهيلي رحمه الله في كتابه (الروض الأُنُف شرح سيرة ابن هشام): وإنّما بشّرها ببيت في الجنّة من قصب. لأنّها حازت قصب السبق فى الإيمان، لا صخب فيه ولا نصب، لأنّها لم ترفع صوتها على النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولم تتعبه يوما من الدهر، فلم تصخب عليه يوما، ولا آذته أبدا. وروى النسائي والحاكم عن أنس رضي الله عنه قال: ((جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعِنْدَهُ خَدِيجَةُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يُقْرِئُ خَدِيجَةَ السَّلامَ، فَقَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلامُ، وَعَلَى جِبْرِيلَ السَّلامُ، وَعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ)). وفي اليوم الحادي عشر من رمضان. قبل هجرة سيّد ولد عدنان. صلى الله عليه وسلم. بثلاث سنين. توفّيت مولاتنا السيّدة خديجة أمّ المؤمنين. رضي الله عنها. ونزل النبيّ صلى الله عليه وسلم في قبرها. وسوّى عليها التراب وأحسن نزلها، وهي فضيلة لها دون غيرها من أمّهات المؤمنين. رضي الله عنهنّ أجمعين. وكان لها من العمر خمس وستّون سنة. ودفنت بمكة المكرّمة. بمقبرة المعلاة. المعروفة بالحُجُون. ولم يكن يومئذ شرعت الصلاة على الجنائز. فَرَضِيَ اللهُ عنها وأَرْضَاهَا. وَأكرَمَ مَثْوَاها. ونفعنا ببركاتها. ورزقنا زيارتها. وَحَشَرَنَا معَهَا تحتَ لِوَاءِ حَبِيبِه سيّدنا محمّدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. نسأل الله تعالى داعين قائلين اللهم إنّا:

نَتَوَسَّلْ بالحُبَابَه * وَالبَتُولِ المُسْتَطَابَه

وَالنَّبِي ثُمَّ الصَّحَابَه * فَعَسَى الدَّعْوَه مُجَابَه

رَبِّ بالزَّهرَا الحَنُونِ * وَأَبِيهَا وَالبَنُونِ

وَبأُمٍّ فِي الحُجُونِ * جُدْ عَلَينَا بِالإِجَابَه

رَبَّنَا نَسْأَلُكَ نَظْرَه * تَنْتَفِي عَنَّا المَضَرَّه

وَتُعجِّلْ بِالمَسَرَّه * لاَ تُرَى فِينَا كَآبَه

أَرِنَا وَجْهَ الرَّسُولِ وَخَدِيجَه وَالبَتُولِ

وَبَنِي الزَّهرَا الفُحُولِ * رَبِّي عَجِّلْ بِالإِجَابَه

إنَّ للذّكْرَى أَريجٌ * جَمْعُنَا جَمْعٌ بَهيجُ

سَطَعَتْ فيه خَديجُ * فَانْتَفَتْ عَنَّا الكَآبَه

وَصَلاَةُ اللهِ تَغْشَى * مَنْ زَكَى أَصْلاً وَمَنْشَا

هُوَ أَتْقَى هُوَ أَخْشَى * شَرَّفَ اللهُ جَنَابَه

وعلى الآل جميعا * وكذا كلّ الصحابة

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ.وَسَلَامٌ عَلَى المرسلين وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. اهـ

09- المقالةُ اللطيفةُ عن مكانة الكعبة الشريفة وتجديد قريشٍ بِنْيَتَهَا المَنيفة وتحكيمهم النبيَّ الأمينَ لمخالفةٍ بينهم عنيفة

الحمد لله ذي المنّ والإقتدار. المتفرّد بالخلق والإختيار.ذي االقدرة النافذة. والحكمة البالغة. فيما يخلق ويختار. القائل في سورة القصص: ((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ)). اختار لعباده من الأمكنة المعظّمة. الكعبة المكرّمة. فسبحانه من إلاه جعل بيته الحرام قياما للناس وأمنا. وأرشد إليه من اجتباه لطاعته رحمة منه ومِنّا. وأغدق عليه سحائب الإحسان وهداه إلى مقام خليله الأسنى. ((لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)). وأشهد أن لا إلاه إلاّ الله وحده لا شريك له. اختصّ نبيّه سيّدنا محمّدا صلى الله عليه وسلم بكمال النبوّة والرسالة.

وتوّجه بتاج التعظيم والجلالة. وجعله عنصر المكارم والمجد. وإمام طريق الهداية والرشد. وطالع اليمن والسعد. وغاية المنا والقصد.

مَدَحْتُ رَسُولَ اللهِ مَدْحَ إِصَابَةٍ * لَعَلِّي بِغُفْرَانِ الذُّنُوبِ أُهَنَّأُ

أَلِفنَاهُ حَتَّى خَامَرَتْهُ عُقُولُنَا * فَلاَ الشَّوْقُ مَفْقُودٌ وَلاَ الوَجْدُ يَهْدَأُ

أَأَصْبِرُ لاَ وَاللهِ زَادَ تَشَوُّقِي * إِلَى مَنْ لَهُ وَجْهٌ مِنَ الشَّمْسِ أَضْوَأُ

نَبِيُّ الْهُدَى أَضْحَى الْفُؤَادُ يُحِبُّهُ * بِأَوْصَافِهِ يُجْلَى إِذَا هِوَ يَصْدَأُ

أَمِينٌ مَكِينٌ مُجْتَبَى ذُو مَهَابَةٍ * جَلِيلٌ جَمِيلٌ بِالْغُيُوبِ مُنَبَّأُ

فَوَاللهِ إِنَّ الهَاشِمِيَّ دَلِيلُنَا * بِهِ يَرْفَعُ اللهُ الْعَذَابَ وَيَدْرَأُ

صَلاَتُكَ رَبِّي وَالسَّلاَمُ عَلَى النَّبِي * صَلاَةً بُطُونَ الْأَرْضِ وَالجَوِّ تَمْلأُ

وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبد ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. زين الأقوال والأفعال. والجواب في المقال. وحلو الشمائل والخصال. وسمح السيرة في الحال والمآل.

صَلُّوا عَلَيهِ فِي كلِّ حِين تَربَحُوا * وبِهَديِه مَهمَا اهتَدَيتُم تُفلِحُوا

وَالأَجرَ يَشمَلُكم وَمِنهُ تَنجَحُوا * وَإِذَا أَرَدتُم أَن يَكونَ عَظِيمَا

صَلُّوا عَلَيهِ وَسَلِّمُوا تَسلِيمَا

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد خاتم الإرسال. وعلى آله بحور الكرم والفضل والنوال. وصحابته عقود اللآل. والسادة الأبطال. صلاة تتقبّل بها منّا الأعمال. وتبلّغنا بها من رضائك ورضاه غاية المقصود والآمال. وتمنّ بها علينا حجّ بيتك الملحوظ بعين التعظيم والإجلال. وزيارة حبيبك قبل نزول القبر وحلول الآجال. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ المتأمّل في أحوال هذا الكون يجد أنّ من أعظم الدلائل على وحدانية الله تعالى. وأكبر الشواهد على ربوبيته. وكمال حكمته. وعلمه وقدرته. أنّه عزّ وجلّ يختار ما يشاء من الأشخاص والأمكنة. ويخصّ ما يريد من الأشياء والأزمنة. لمقاصد عظمى. وغايات كبرى. تقوم عليها مصالح العباد. فلا شريك له

سبحانه. يختار كاختياره. ويدبّر كتدبيره. لهذا قال سبحانه في سورة القصص: ((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ)).كما أنّ الله جلّ وعلا. جعل هداية الدلالة والإرشاد في ثلاث، ذكرها سبحانه في كتابه العزيز. الأولى: جعلها في القرآن الكريم. قال الله تعالى في سورة البقرة: ((ألم ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ)). وقال أيضا: ((شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ)). وقال في سورة النمل: ((طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)).الثانية. جعلها في الرسول صلى الله عليه وسلم. قال تعالى في سورة النساء: ((وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)). وقال تعالى في سورة التوبة: ((هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون)).الثالثة من دلالة الهداية والإرشاد. جعلها في الكعبة المشرّفة. فقال تعالى في سورة آل عمران: ((إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ)).كما أنّه عزّ وجلّ جعل قيام أمر الناس في أمرين. الأوّل. في المال. قال تعالى في سورة النساء: ((وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا)).وكلّ الناس يدركون ذلك جيّداً، فيعلمون أنّ قيام أمرهم في هذه الدنيا إنّما هو قائم بعد الله عزّ وجلّ بالمال. فبالمال يتحصّل المرء على الكثير مما يريد، وبدون المال قد يعاني المرء في بعض الجوانب من حياته. الأمر الثاني ممّا ذكره الله تعالى في كتابه العزيز ممّا جعل قيام أمر الناس به. إضافة إلى المال هو الكعبة المشرّفة. قال الله تعالى في سورة المائدة: ((جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاس)). وهذا لا يدركه كثير من الناس، بل حتى من خواصّ المسلمين. أيّها المسلمون. إنّ الكعبة المشرّفة هي أوّل بيت وضع للنّاس لعبادة الله الواحد الأحد، فيه آيات بيّنات، فهي قبلة المسلمين في الصلاة. ومقصدهم في الحج، تحقيقاً للغاية السامية. والحقيقة الكبرى. التي من أجلها خلق الله الجنّ والإنس. قال تعالى في سورة الذاريات: ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)). كما أراد الله تعالى للكعبة الشريفة أن تكون مثابة أمن وسلام، تقيم الناس. وتقيهم الخوف والفزع، لهذا قال سبحانه في سورة البقرة: ((وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا)). فلو تُرِك حجّ البيت لسنة واحدة لقامت الساعة. كما في الحديث الصحيح. فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لا يُحَجَّ الْبَيْتُ)). فهي مركز توازن العالم، فبدونها لا يستقيم أمر العالم، ولا يقوم لهم

شأن. ولعظيم شرفها. وقداسة مكانتها. ذكرها الله تعالى باسمها في القرآن الكريم مرّتين. فقال سبحانه في سورة المائدة: ((جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاس)). وقال أيضا: ((هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ)). وعلماء الأصول عندهم قاعدة يقولون فيها: إنّ التنصيص بالتخصيص دليل العناية. فإذا نصّ الحقّ تبارك وتعالى على شيء أو على أمر في القرآن. فعلى الناس أن يعتنوا به. فكيف إذا تكرّر الأمر؟ وقد تكرّر إسم الكعبة مرّتين على وجه التحديد. إلى غير التلميحات أنّه بيت الله الحرام. أيّها المسلمون. إنّ المتأمّل في تاريخ الكعبة المشرّفة. يرى أنّ بناءها قد جدّد عدّة مرّات على مرّ العصور. وفي حاشية سيدي المهدي الوزاني على شرح متن ابن عاشر رحمه الله قال: وقد أشار أحد الأدباء إلى ذلك فقال:

بَنَى الكَعْبَةَ الغَرّاءَ عَشْر ذَكَرْتُهُم * وَرَتَّبْتُهم حَسْبَ الذي أَخْبَرَ الثِّقَة

مَلائِكةُ الرحْمانِ آدَمُ وَلْدُهُ * كذاكَ خَليلُ الله ثُمّ العَمالِقَة

وجُرْهُمُ يَتْلُوهُمْ قُصَيُّ قُرَيْشُهُمْ * كذا ابْنُ الزُّبَيْرِ ثم حَجّاجُ لاَحِقَه

فعدّهم في هذا النظم البديع أحد عشر. كما ترى. والمعنى بنى الكعبة الغرّاء عشرة أنفس هم الذين نذكرهم ونرتّبهم كما رتّبهم الثقاة من قبلي. وهم: ملائكة الرحمان. و سيّدنا آدم عليه السلام. وولده شيث. وخليل الله سيّدنا إبراهيم عليه السلام. والعمالقة. وجرهم. وقصيّ بن كلاب. وقريش زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم. وسيّدنا عبد الله بن الزبير بن العوّام رضي الله عنه. والحجّاج بن يوسف الثقفي. بأمر من عبد الملك بن مروان الأموي. وبناها بعد العشرة واحد من آل عثمان وهو مراد ملك الروم. والحالة أنّ السعادة وافقته في بنائها. ولولاها ما اهتدى إلى بنائها. ولمّا أراد هارون الرشيد العباسي في زمن خلافته بناءها أيضا. قال له إمامنا مالك رضي الله عنه: أناشدك الله يا أمير المؤمنين. أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك. فتركها على ما هي عليه، فبقيت على وضعها حتى وقتنا هذا. أيّها المسلمون. وأمّا تجديد بنائها في زمن قريش في الجاهلية. وذلك قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بخمس سنوات تقريباً، وكان عمره عليه الصلاة والسلام آنذاك خمساً وثلاثين سنة، وهو أنّ علماء السيرة ذكروا: أنّ الكعبة المشرّفة يومئذ كانت على هيئة حجارة موضوعة بعضها فوق بعض من غير طين، ممّا جعل السيول التي تجتاح مكة بين الحين والآخر تؤثّر على متانة الكعبة. فأوهت بنيانها، وصدّعت جدرانها،

حتى كادت تنهار، بعد توهينها من حريق كان أصابها قبل، فقرّرت قريش إعادة بناءها بناء متينا. يصمد أمام السيول. حرصا على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة خالدة. ولقد كان احترام الكعبة وتعظيمها. بقيّة ممّا ظلّ محفوظا من شرعة سيّدنا إبراهيم عليه السلام عند العرب. فاجتمعت قبائل قريش لذلك، وتمّ تقسيم العمل بينهم. وتولّت كل واحدة منهم ناحية من نواحي الكعبة، قال ابن إسحاق: ثم إنّ الناس هابوا هدمها وفرقوا منه. فقال لهم الوليد بن المغيرة: أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل الإصلاح، قال: إنّ الله لا يهلك المصلِحين، وشرع يهدم. فتبعوه وهدموا حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل، ثم ابتدؤوا في البناء. وأعدّوا لذلك نفقة ليس فيها مَهرُ بغيّ ولا بيعُ رِبا، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم، وكان العباس ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن يحمل، روى الشيخان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: ((لمّا بنيت الكعبة. ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس ينقلان الحجارة فقال العباس للنبيّ صلى الله عليه وسلم: إجعل إزارك على رقبتك يقيك الحجارة. ففعل. وكان ذلك قبل أن يبعث. فخرّ إلى الأرض. فطمحت عيناه إلى السماء. فقال: إزاري. إزاري. فشدّه عليه. وفي رواية: فسقط مغشيّا عليه. فما رئي بعد عريانا)). وقد ضاقت بهم النفقة الطيّبة عن إتمامه على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحِجْرَ، وبنوا عليه جداراً قصيراً، علامة على أنّه من الكعبة، ولمّا تمّ البناء ثمانية عشر ذراعاً. بحيث زِيدَ فيه عن أصله تسعة أذرع. ورفع الباب عن الأرض. بحيث لا يُصعد إليه إلا بدرج. ذكر صاحب السيرة الحلبية: أنّ السيّدة عائشة رضي الله عنها نذرت إن فتح الله مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم. تصلّي في البيت ركعتين، فلمّا فتحت مكة، أي وحجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجّة الوداع. فسألت النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يفتح لها باب الكعبة ليلا، فجاء سيّدنا عثمان بن طلحة رضي الله عنه بالمفتاح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال: يا رسول الله إنّها لم تفتح ليلا قطّ، قال: فلا تفتحها. ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها. وأدخلها الحجر. وقال: ((صلّي ههنا، فإنّ الحطيم أي الحجر. من البيت. إلاّ أنّ قومك قصرت بهم النفقة أي الحلال. فأخرجوه من البيت، ولولا حدثان قومك بالجاهلية. لنقضت بناء الكعبة، وأظهرت قواعد الخليل، وأدخلت الحطيم في البيت. وألصقت العتبة على الأرض، ولئن عشت إلى قابل لأفعلنّ ذلك)). ولم يعش صلى الله عليه وسلم لقابل. ولم تتفرّغ الخلفاء لذلك. أيّها المسلمون. ولمّا

أرادت قريش وضع الحجر الأسود موضعه. فاختلف أشرافهم فيمن يضعه، وتنافسوا في ذلك. فكلّ يريد أن ينال شرف رفع الحجر إلى موضعه، حتى كادت تشبّ بينهم نار الحرب، ودام بينهم هذا الخصام أربع ليالٍ، وكان أسنّ رجل في قريش إذ ذاك أبو أمية بن المغيرة المخزومي. عمُّ سيّدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه. فقال لهم: يا قوم لا تختلفوا. وحكِّموا بينكم أوّل من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم. فكان أوّل داخل هو الأمين المأمون. سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمّا رأوه قالوا: هذا الأمين. رضيناه، هذا محمّد؛ فاطمأنّ الجميع له. لِمَا يعهدونه فيه من الأمانة وصدق الحديث. ولأنّهم كانوا يتحاكمون إليه. إذ كان لا يُداري ولا يُماري. فلمّا أخبروه الخبر. بسط رداءه. وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم وضع فيه الحجر الأسود. وأمرهم برفعه. حتى انتهوا إلى موضعه. فأخذه بيده الشريفة ووضعه في مكانه. أيّها المسلمون. إنّ المسلم يجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلاهي. وكمال التوفيق الرباني. في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما يلاحظ كيف أنّ الله تعالى أكرم رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه القدرة الهائلة. على حلّ المشكلات بأقرب طريق وأسهله. وذلك ما تراه في حياته كلّها صلى الله عليه وسلم. وذلك معلم من معالم رسالته. فرسالته إيصال الحقائق بأقرب طريق. وحلّ للمشكلات بأسهل أسلوب وأكمله. صلى الله عليه وسلم. وشرّف وكرّم. ومجّد وعظّم. ووالى عليه ذلك وأنعم. اللهم يا واسع الكرم والجود. متّع أبصارنا في جمال الكعبة الشريفة بيتك المقصود. وأكرم شفاهنا بتقبيل الحجر الأسود المسعود. وروّي أفئدتنا من معين زمزمها المورود. وافتح ببركتها في وجوهنا كل باب مسدود. وسهّل علينا المسير إليها والوقوف بعرفاتها ثم نعود. بجاه حبيبك سيّدنا محمّد المحمود. صلى الله عليه وسلم بلا حدود. إنّك يا مولانا جواد كريم. رؤوف رحيم. متفضّل منعم عطوف ودود. آمين. آمين آمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

10- الإرهاصاتُ الواضِحةُ الجلِيّةُ تمهِيدٌ لِبعثةِ خيرِ البرِيّةِ

الحمد لله الذي أرسل رسوله سيّدنا محمّدا صلى الله عليه وسلم. بالهدى ودين الحقّ. ليظهره على الدين كلّه. واختاره وقدّمه على جميع أنبيائه ورسله. وبعثه رحمة للخلق. فأرشدهم إلى طريق الحقّ بقوله وفعله. وجعله فاتحا خاتما تندرج الخلائق في شفاعته وتحت ظلّه. نحمده تعالى ونشكره أن أسبغ على عباده المومنين نِعما جمّا. وبعث فيهم رسولا من أنفسِهم وأشرفِهم عربا وعجما. وأرجحِهم عقلا وحِلما. وأوفرِهم عِلما وفهما. وأقواهم يقينا وعزما. وأزكاهم روحا وجسما.

مَدِيحُ رَسُولِ اللهِ أَشْرَفُ مَقْصِدِ * وأنفعُ ما يبرا بِه داءُ عِلّتِي

لقد زاد حُبّي فيه والقلبُ هائمُ * وَلَمْ يَبْقَ إلاَّ حُبُّ أَحْمَدَ عُمْدَتِي

تَوَسَّلْتُ يَا رَبِّي إِلَيْكَ بِحُبِّهِ * لِتَغْفِرَ زَلاَّتِي وَتَقْبَلَ تَوْبَتِي

فَقَد نَالَ من رَبّ العُلَى غَايَةَ الرّضَا * عَسَاهُ يُنَجِّينا إِذَا النَّعْلُ زَلَّتِ

صَلاَتُكَ رَبِّي وَالسَّلاَمُ عَلَى النَّبِي * وَآله والصَّحب العُلاَ خَيرَ أُمَّة

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، أسدى إلينا نعمًا غداقًا، وأولانا مِنَنًا دفاقًا، تفضّلا منه سبحانه. لا وجوبًا واستحقاقًا، فأكرمنا بسيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم. أزكى البرايا محتدًا وأعراقًا، وأظهرهم شمائلَ وأخلاقًا، وأسماهم سيرةً عمَّت الدُّنا إشراقًا، وأشهد أنّ سيّدنا محمّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى، وَنَبِيُّهُ المُجْتَبَى، وَرَسُولُهُ المرْتَضَى، بَعَثَهُ بِالنُّورِ المُضِيِّ، وَالأَمْرِ الْمَرْضِيِّ، عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَدُرُوسٍ مِنَ السُّبُلِ، فَدَمَغَ بِهِ الطُّغْيَانَ، وَأَظْهَرَ بِهِ الإِيمَانَ، وَرَفَعَ دِينَهُ عَلَى سَائِرِ الأَدْيَانِ؛

فعليه صلُّوا كلُّكم وتمتّعوا * يا حاضرين بمدحه وتتبّعوا

آثاره وتوسّلوا وتشفّعوا * فملاذُنا المولى المعظّمُ أحمدُ

صلّوا على خير البريّة تسعدوا

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد الهادي إلى طريق الخير والرشاد. وعلى آله الأئمّة الزهّاد. وصحابته السادة الأمجاد. صلاة تستر بها عوراتنا بين العباد. وتصلح بها منّا الأزواج والأولاد. وتكفّ بها عنّا يد أهل الظلم والفساد. وتجيرنا بها من شرّ البغاة والحسّاد. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا**

بعد: فيا أيّها المسلمون. إنَّ الحديثَ عن الحبيب المصطَفى. والرسول المجتبى. والخاتم المقتَفَى. سيّدنا محمّد صلواتُ الله وسلامه عليه. لهو حديثٌ عَذبُ المذاق، مُجرٍ لدموع المآق، بَلسَم لجفوة القلوب. ولقَسوَتها تِرياق، كيف لا؟! وهو رسول الملِك العلاّم. وحامِل ألوية العدلِ والسّلام. ومُخرج البشريّة بإذن ربِّها من دياجير الإنحطاطِ. والوثنية والظلام. ووِهاد الأرجاس والآثام. إلى أنوار التوحيدِ والإيمان والوئام؟! أَمَنُّ النّاس على كلِّ مسلم ومسلمة، وأحقُّهم نَقلاً وعقلاً بالمحَبّة الوادِقة. والطاعة الصادقة، قال تعالى في سورة آل عمران: ((لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)). إنّها لنعمة عظمى. ومنّة كبرى. أن بعث الله رسوله رحمةً للعالمين. وهدىً للمستبصرين. ونورًا يبدّد ظُلم الفتن والجاهليات. فأحيا به قلوبًا ميتة. وأسمع به آذانًا صمًّا. وأنار به أعينًا عميًا. وجعل رسالته خاتمة خالدة. فهي أعظمُ الرسالات وأشملُها، وقد أحاطها الله بعنايته، وشملها برعايته، وجعل لها دلائل باهرة، وعلامات ظاهرة، قبل مبعثه بل قبل ولادته صلى الله عليه وسلم، وكانت هذه الدلائل. إرهاصات وبشائر على مبعثه صلى الله عليه وسلم، فأوّل هذه البشارات وأهمّها. بشارة الأنبياء بمعثه عليه الصلاة والسلام، فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة الصف: ((وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)). وذلك أنّ الكتب السماوية المنزّلة على الأنبياء السابقين عليهم السلام، بشّرت بمبعث النبيّ الخاتم. صلى الله عليه وسلم. قال تعالى في سورة الأعراف: ((الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيءَ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)). ومنها، ما رواه الطبراني من حديث سيّدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما عن أبيه أنّ أمية بن أبي الصلت الثقفي قال له: إنّي أجد في الكتب صفة نبيّ يبعث من بلادنا، وكنت أظنّ أنّي هو، وكنت أتحدّث بذلك، ثم ظهر لي أنّه من بني عبد مناف، قال: فنظرت فلم أجد فيهم من هو متّصف بأخلاقه. إلاّ عتبة بن ربيعة. إلاّ أنّه قد جاوز الأربعين ولم يوح إليه، فعرفت أنّه غيره. قال أبو سفيان: فلمّا بُعث محمّد صلى الله عليه وسلم. قلت لأميّة عنه. فقال: أَمَا إنّه حقّ

فاتَّبعه، فقلت له: وأنت ما يمنعك؟ قال: الحياء من نساء ثقيف أنّي كنت أخبرهنّ أنّي أنا هو، ثم أصير تبعاً لفتىً من بني عبد مناف. فهذه علامة وبشارة واضحة تدلّ على نبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما منع هذا الرجل من الإيمان به بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم مع علمه أنّه حقّ. إلا الكبر عياذاً بالله. أيّها المسلمون. ومن تلك الدلائل والبشائر، بشارات أهل الكتاب من أحبار اليهود ورهبان النصارى، فقد روى الإمام أحمد من حديث سلمة بن وقش قال: كان لنا جار من اليهود بالمدينة فخرج علينا قبل البعثة بزمان. فذكر الحشر والجنّة والنار، فقلنا له: وما آية ذلك؟ قال: خروج نبي يبعث من هذه البلاد. وأشار إلى مكة فقالوا: متى يقع ذلك؟ قال: فرمى بطرفه إلى السماء. وأنا أصغر القوم. فقال: إن يستنفد هذا الغلام عُمُره. يدركه، قال: فما ذهبت الأيام والليالي حتى بعث الله نبيّه صلى الله عليه وسلم وهو حي. أي اليهودي. فآمنَّا به وكفر هو. بغياً وحسداً. أمّا العلامات والإرهاصات التي سبقت نبوّته صلى الله عليه وسلم وكانت عند مولده وبعده، فمنها ما رواه الإمام أحمد والبزّار والبيهقي عَنْ الْعِرْبَاض بْن سَارِيَة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنِّي عِنْد اللَّه لَخَاتَم النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَم لَمُنْجَدِل فِي طِينَته. وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: أنا دَعْوَة أَبِي إِبْرَاهِيم. وَبِشَارَة عِيسَى بِي. وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ. وَكَذَلِكَ أُمَّهَات النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ. وإِنّ أُمّ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأت حين وضعته نورا أضاءت منه قصور الشام)). ومن تلك الإرهاصات التي دلّت على بعثته ونبوّته صلى الله عليه وسلم، حادثة الفيل. والتي كانت تمهيدا لمبعثه عليه الصلاة والسلام، قال الإمام ابن كثير رحمه الله وهو يتحدّث عن حادثة الفيل: كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنّه في ذلك العام وُلد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرّفه ونعظّمه ونوقّره ببعثة النبيّ الأميّ محمّد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء. ومن هذه الإرهاصات أيضاً. ما جاء في قصّة حليمة السعدية حين أخبرت أنّها لمّا أخذته من أمّه، كثر اللبن في ثديها، ووجد زوجها اللبن في ناقته، وكثر اللبن في شياهها، إلى غير ذلك من الأمور التي خرجت عن مألوف العادة، وحصلت ببركة وجود النبيّ صلى الله عليه وسلم بينهم. ومنها حادثة شقّ صدره صلى الله عليه وسلم. ولمّا اقترب النبيّ صلى الله عليه وسلم من الأربعين من عمره الشريف، بدأت تباشير النبوّة وإرهاصاتها، تلوح في أفق حياته، فمنها تسليم الحجر

والشجر عليه. زاده الله فضلا وشرفا لديه. روى ابن سعد في طبقاته عن برّة بنتِ أبي تِجْراة قالت: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله كرامته. وابتدأه بالنبوة. كان إذا خرج لحاجته أبعد. حتى لا يرى بيتا. ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية. فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله. وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحدا. فهذه أولى إرهاصات وتباشير النبوّة، صوتٌ يلقى في أذنه صلى الله عليه وسلم. "السلام عليك يا رسول الله". دون أن يرى أثراً أو أن يرى أحداً، يؤيِّد هذا ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم. عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنّي لأعرف حجرا كان يسلّم عليّ قبل أن أبعث إنّي لأعرفه الآن)). وروى الترمذي والدارمي. عن سيّدنا علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي عنه قال: ((كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِمَكَّةَ فَخَرَجْنَا مَعَهُ فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا فَمَرَرْنَا بَيْنَ الْجِبَالِ وَالشَّجَرِ فَلَمْ نَمُرَّ بِشَجَرَةٍ وَلاَ جَبَلٍ إِلاَّ قَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ)). أيّها المسلمون. إنّ الإنسان حينما تعرض له حوادث غريبة. خارقة للعادة، تثير في نفسه شيئاً من القلق والخوف، يكون بحاجة ماسّة إلى شخص يثق به. يبثّه ما يجده، من قلقه وتساؤله. فكان عليه الصلاة والسلام يأتي إلى البيت، ويحدِّث زوجه السيّدة خديجة رضي الله عنها بما يشعر به، إذ كانت أقرب الناس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم روحاً وجسداً، فهي أهله وسكنه، وأُنس روحه ونفسه رضي الله عنها، وصدق الله تعالى إذ يقول في سورة الروم: ((وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)). إذاً لحكمةٍ بالغةٍ. جعل الله هذه الزوجة ذات القلب الكبير، والإدراك العميق، والصدر الواسع، وقوّة التحمُّل، كانت سكناً للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وعوناً له ومثبّتاً. روى الإمام أحمد عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما. أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِخَدِيجَةَ رضي الله عنها: ((إِنِّي أَرَى ضَوْءاً وَأَسْمَعُ صَوْتاً. وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بِي جَنَنٌ، قَالَتْ: لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ، ثُمَّ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِنْ يَكُ صَادِقاً فَإِنَّ هَذَا نَامُوسٌ مِثْلُ نَامُوسِ مُوسَى. فَإِنْ بُعِثَ وَأَنَا حَيٌّ فَسَأُعَزِّزُهُ وَأَنْصُرُهُ وَأُومِنُ بِهِ)). وروى ابن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه رضي الله عنهم. أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((يا خديجة إنّي أرى ضوءا وأسمع صوتا. لقد خشيت أن أكون كاهنا. قالت: إنّ الله تعالى لا يفعل ذلك بك. إنّك تصدق الحديث. وتؤدّي الأمانة. وتصل الرحم)).. إنّها حكمة الله التي

ما بعدها حكمة. أنّ هذه الزوجة آتاها الله من العقل، ومن النُضج، ومن بُعد النظر، ومن سعة الأفق، ومن قوّة القلب. الشيء العجيب، أيّها المسلمون. ومن الإرهاصات والبشائر التي كانت تمهيدا ومقدّمة لبعثته ونبوّته صلى الله عليه وسلم، الرؤيا الصادقة، وهي أوّل ما بُدئ له من الوحي، ففي جامع الترمذي عَنْ السيّدة عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: ((أَوَّلُ مَا ابْتُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النُّبُوَّةِ. حِينَ أَرَادَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ وَرَحْمَةَ الْعِبَادِ بِهِ. أَنْ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ. وَحُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلْوَةُ. فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ)). وروى أبو نعيم عن علقمة بن قيس قال: (إنّ أوّل ما يؤتى به الأنبياء في المنام. حتى تهدأ قلوبهم. ثم ينزل الوحي. إذ الرؤيا الصادقة نوعٌ من الإعلام المباشر، الذي يريكه الله تعالى). كما في موطّأ الإمام مالك رحمه الله تعالى عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ. جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ)). وكان عليه الصلاة والسلام كلمّا رأى رؤيا قصّها على السيّدة خديجة رضي الله عنها، فتثبّته وتبشّره، فهي سكنه الذي يرتاح إليه. ويطمئنّ له. روى البيهقي عن الزهري رحمه الله قال: بلغنا أنّ أوّل ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ الله تعالى أراه رؤيا فشقّ ذلك عليه. فذكرها لخديجة. فقالت: أبشر. فإنّ الله لن يصنع بك إلاّ خيرا. قال علماء السير: استمرَّت مرحلة الرؤيا الصادقة ستّة أشهر، فيها توطئةٌ لنزول الوحي عليه يقظةً، وقد حبّب الله تعالى إليه في أثناء هذه المرحلة الخلوة لنفسه. والعزلة عن الناس. والعلماء قالوا: الإستئناس بالناس من علامات الإفلاس، فكان عليه الصلاة والسلام يعتكف في غار حراء الليالي ذوات العدد، وتزوّده السيّدة خديجة رضي الله عنها بما يحتاج إليه من طعامٍ وشراب، فإذا نفد زاده، رجع صلى الله عليه وسلم إلى السيّدة خديجة، فتزوّده بطعام وشراب يكفيه أيّاما معدودات، يجلس وحده يتأمّل، يفكّر، يناجي، ففي الصحيحين عَنْ السيّدة عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: ((أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْوَحْيِ. الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ. فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ. وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ. وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ. قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ. ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا)). مرَّت الشهور كان فيها تمهيد للوحي؛ وكلّما دنا الموعد الذي قدَّره الله الحكيم العليم. ببدء الوحي. ونزول القرآن الكريم، زادت

هواتف الحقّ واشتد النور، وكلّما سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم شيئاً جديداً، لجأ إلى السيّدة خديجة رضي الله عنها، فتثبّته وتبشّره، وبهذا ظهرت حكمة الله تعالى عندما قدّر أن تكون هذه السيّدة العاقلة الرشيدة الكريمة، ذات القلب الكبير، والصدر الحنون، والأفق الواسع. مولاتنا السيّدة خديجة رضي الله عنها، زوجةً لهذا النبيّ الكريم صلى الله عليه وسلم. أيّها المسلمون. ومن إرهاصات نبوّته عليه الصلاة والسلام. طرد الشياطين. وحجبهم من استراق السمع عند مبعثه. بكثرة تساقط النجوم. قال ابن إسحاق: لمّا تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وحضر مبعثه. حجبت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد فيها. فرموا بالنجوم. فعرف الجنّ أنّ ذلك لأمر حدث من الله في العباد، يقول الله تعالى لنبيّه حين بعثه يقصّ عليه خبرهم إذ حجبوا. قال سبحانه في سورة الجن: ((وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا. وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا)). وذلك لئلا يلتبس أمر الوحي بشيء من خبر الشياطين. وقد أشار الإمام البوصيري رحمه الله تعالى في همزيته إلى هذه البشائر والإرهاصات فقال:

وَأَحَادِيثُ أَنَّ وَعْدَ رَسُولِ اللهِ * بِالْبَعْثِ حَانَ مِنْهُ الْوَفَاءُ

أَلِفَ النُّسْكَ وَالْعِبَادَةَ وَالْخَلْـــ*ـــوَةَ طِفْلاً وَهَكَذَا النُّجَبَاءُ

وَإِذَا حَلَّتِ الْهِدَايَةُ قَلْباً * نَشِطَتْ لِلْعِبَادَةِ الأَعْضَاءُ

بَعَثَ اللهُ عِنْدَ مَبْعَثِهِ الشُّهْـ*ـبَ حِرَاساً وَضَاقَ عَنْهَا الْفَضَاء

تَطْرُدُ الْجِنَّ عَنْ مَقَاعِدَ لِلسَّمْـ*ـعِ كَمَا تَطْرُدُ الذِّئَابَ الرِّعَاءُ

فَمَحَتْ آيَةَ الْكَهَانَةِ آيَـــ*ـــاتٌ مِنَ الْوَحْيِ مَالَهُنَّ انْمِحَاءُ

أيّها المسلمون: كل هذه الدلائل والإرهاصات. اعتناء من الله عزّ وجلّ بنبيّه وحبيبه صلى الله عليه وسلم. عنايةً فائقة، ألم يقل سبحانه في سورة طه: ((وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)). وقال في سورة الطور: ((فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)). صلى الله عليه وسلم. وشرّف وكرّم. ومجّد وعظّم. ووالى عليه ذلك وأنعم. اللهم نوّر بصائرنا بنور محبّته. واستعمل جوارحنا لاتّباع سنّته. واختم أعمارنا على ملّته. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. والحمد لله رب العالمين. اهـ

11- بدء بعثة النبيّ بنزول الوحي الجليّ من عند الربّ العليّ

الحمد لله الذي بعث فينا ومنّا رسوله المصطفى. وحبيبه المجتبى. سيّدنا محمّدا صلى الله عليه وسلم. أرسله بالهدى ودين الحقّ. وخصّه من بين سائر الرسل بالرسالة العامّة لكل الخلق. وأوجب له النبوّة وآدم بين الطين والماء. وجعله خاتم الأنبياء. وإمام ملائكة السماء. فهو الشفيع المشفّع يوم العرض. المحمود في ملإ السماء والأرض. صاحب اللواء المنشور يوم النشور. والمؤتمن على سرّ الكتاب المسطور. ومخرج الناس من الظلمات إلى النور. فضّله ربّه على الأنبياء بما آتاه من الحكمة وفصل الخطاب. وأثنى عليه في كتابه الحكيم. بما بهر أولي الألباب. فهو المراد بقوله تعالى في سورة آل عمران: ((لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ)). نحمده سبحانه وتعالى أن يسّر لنا من طاعته الأسباب. ووعد العاملين الجزاء الأوفى وحسن الثواب. وهدانا بسيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم إلى مناهج الحقّ والصواب.

مدحتُ رسول الله مُفتخرا به * وقُمتُ بحمد الله أُنشي وأُنشدُ

نبيّ له فخر ومجد مُؤثّل * وجاه وتمكين مكين وسُؤددُ

وشُقّ اسمُه من أحرف اسم إلاهه * فذو العرش محمود وهذا محمّدُ

ويُذكر في التهليل مع ذكر ربّه * وإن قيل للتأذين أشهد أشهدُ

ويهتزُّ ريحانُ القلوب بذكره * إذا ذُكر ارتاحت قلوب وأكبُدُ

دوامُ سروري في مديحي لأحمد * وَأَكْبَادُنا مِنْ شَوْقِهِ تَتَوَقَّدُ

دلالا به قد زدتُ حُبّا وإنّما * مَدِيحُ رَسُولٍ بِالشَّفَاعةِ يُفْرَدُ

دعوتُك ربي بالنبيّ محمّد * به فاهدني النهج القويم وأُرشد

صلاتُك ربي والسلام على الذي * بمقعد صدق ليس يعلوه مقعد

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله. وأرسل سحائب جوده عليه. لإتمام نعمته وفضله. وأنزل أشرف كتبه إليه. لزيادة قربه ووصله. وأكمل تشريفه لديه. بقوله في سورة الأنبياء: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)). وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. حماه ربّه وطهّره من عادات الكفار والمشركين. ألهمه التفكير في ملكوت السماوات والأرضين. وهيّأه ليتلقّى قولا ثقيلا. وليتحمّل عبئا كبيرا. فأعطاه عقلا متكاملا. وصدرا رحبا عظيما. جعله أمينا قويّا رحيما صبورا.

يا أمّة المصطفى الموصوف في الكتبِ * وشائقين بمدح الطيّب الحسبِ

إن شئتم أن تنالوا النجح في الطلبِ * وتسلموا من شرور العجم والعرب

صلوا على خير مرسول وخير نبِي

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. الذي لولاه ما دخلنا في حصن لا إله إلاّ الله. ولا بسورها الحصين احتمينا. وعلى آله الذين بهديهم اهتدينا. وصحابته الذين بسيرتهم وسنّتهم اقتدينا. صلاة ترسل بها سحائب الخيرات علينا. وتدفع بها عوارض النّقم والفتن عنّا. وعن كل من ينتمي إلينا. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ في متابعة سيرة أكرم الخلق على الله تعالى. سيّدنا ومولانا محمّد صلى الله عليه وسلم. نيل للكرامة. وسبب لحيازة الخير في الدنيا ويوم القيامة. والفوز بالدخول إلى دار المقامة. فقدوتنا الذي ارتضاه لنا خالقنا خير قدرة وأسوة. هو سيّدنا رسول الله. صلى الله عليه وسلم. البشير النذير. والسراج المنير. الذي خاطبه ربّه في سورة الأحزاب بقوله: ((يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا)). بعث على فترة من الرسل، وضلال من البشر، وانحراف في الفطر، فاستطاع صلى الله عليه وسلم. بعون الله تعالى أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى. ومن الشقاء إلى السعادة، وخلال السنوات التي عاشها النبيّ صلى الله عليه وسلم في مكّة. لم يطمئن قلبه إلى أحوال قومه. من الشرك وعبادة الأوثان. والخمر والفجور، وغيرها من مظاهر الضلال والفسق، ممّا دفعه إلى اعتزال قومه. وحبّب الله إليه الخلوة والعزلة عن الناس، فكان صلى الله عليه وسلم يذهب إلى غار حراء في جبل النور. وهو جبل يقع في

الجانب الشمالي الغربي من مكة. يخلو فيه متحنّثا. وهو التعبّدُ اللياليَ ذواتِ العدد. كما في الصحيحين. ومتفكّرًا في صنع الله الذي أتقن كل شيء، ومنكراً عبادة الأصنام. التى كدّست حول الكعبة المشرّفة، وعبدها كفّار قومه سفهاً بغير علم، يتذرّعون فى عبادتهم لها بما ألفوا عليه آباءهم، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون. ولكن أصالة النبيّ الأمين صلى الله عليه وسلم ورّثته طهارة من جدّيه العظيمين. سيّدنا إبراهيم وسيّدنا إسماعيل عليهما السلام، وهما اللذان أوحى الله إليهما أن يبنيا الكعبة البيت الحرام. قال تعالى في سورة البقرة: ((وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)). وكان سيّدنا إبراهيم عليه السلام أمّة قانتاً لله حنيفاً. قال تعالى في سورة النحل: ((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)). وكان سيّدنا إسماعيل عليه السلام يأمر أهله بالصلاة والزكاة، قال تعالى في سورة مريم: ((وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا)). فليس عجيباً من نبيّنا الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم الذى انحدر من سلالتهما أن يعاف بفطرته السليمة. وعقله الكبير. وقلبه الطاهر. عبادة الأصنام، وينأى بالخلوة عن مواطن الزحام، سعيداً بخلوته ونسكه شأن الأنبياء الأصفياء الأتقياء، الذين يصطفيهم الله بعلمه. ويصطنعهم لنفسه، كم كان أنس النبيّ صلى الله عليه وسلم في خلوته بالله شديداً، حتى غلب أنسه بالله وحشة المكان؟! أيّها المسلمون. يجب أن نعلم جيّدا أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ما كان في تعبّده وتحنّثه ينتظر النبوّة أو يترقّبها، بل لم تكن تخطر على باله. كما ذكر الله تعالى في كتابه. حيث قال في سورة الشورى: ((وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)). وقال سبحانه في سورة القصص: ((وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ)). إذ النبوّة إصطفاء واختيار من الله تعالى. يختصّ بها من يشاء من عباده. قال سبحانه في سورة غافر: ((يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)). وقال صاحب جوهرة التوحيد:

وَلَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ مُكْتَسَبَةْ * وَلَوْ رَقَى فِي الْخَيْرِ أَعْلى عَقَبَةْ

بَلْ ذاكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ لِمَنْ * يَشَاءُ جَلَّ اللهُ وَاهِبُ المِنَنْ

أيّها المسلمون. ولمّا كمل له صلى الله عليه وسلم أربعون سنة، على أوفق الأقوال المروية. والتي بها تمام القوى الحسية والمعنوية. بعثه الله تعالى بشيرا لأهل الخير. ونذيرا لأهل الضلال. كما في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: ((أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنةً، فمكُث بمكة ثلاث عشرة سنةً، ثم أُمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة، فمكُث بها عشر سنين، ثم تُوُفي صلى الله عليه وسلم)). وفي يوم الإثنين السابع عشر من شهر رمضان. والنبيّ صلى الله عليه وسلم في خلوته. إذا بأمين الوحي جبريل عليه السلام يتشكّل على صورة إنسانٍ. ويقف في غار حراء أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقي إليه الرسالة الإلهية الأولى. التي يفرق فيها كل أمرٍ حكيم. قال تعالى في سورة الدخان: ((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)). وقال سبحانه في سورة القدر: ((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)). وقال عزّ من قائل سورة البقرة: ((شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)). وتمّ هذا اللقاء. وهذا الاتّصال بين الأمينين؛ أمين وحي السماء جبريل عليه السلام، وأمين وحي الأرض سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم، تمّ في اليقظة. وضَمَّ الأمين السماوي. الأمين الأرضي ضمّه إليه ضمّةً شديدة. ليتمّ الاتّصال، ويسري النور، أي أنّك لست في منام، أنت في يقظة. ضمّه حتى التصق الجسد الأرضي بالجسد النوراني السماوي، ثم ألقى عليه هذه الكلمة: إقرأ، أيّها المسلمون. جاء في الحديث الصحيح الذي حدّثت به حافظة الإسلام وراويته. أمّ المؤمنين السيّدة عائشة رضي الله عنها. عن قصّة بدء الوحي على الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم، وبزوغ هذا النور المبين، الموصوف بأعظم الأوصاف وأحسنها. قال تعالى في سورة المائدة: ((قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)). روى الإمام البخاري في صحيحه عَنْ السيّدة عَائِشَةَ رضي الله عنا أَنَّهَا قَالَتْ: ((أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ:

مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ:(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ). فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي. فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ)). وروى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدّث عن فَتْرَة الوحي قال: ((بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:(يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وربَّك فَكَبِّرْ وثيابَك فطهِّرْ وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ). فَحَمِيَ الوَحْيُ وَتَتَابَعَ)). وفي السيرة الحلبية: عن إسماعيل بن أبي حكيم مولى الزبير أنّه حدّث عن السيّدة خديجة رضي الله عنها أنّها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم. فجاءه جبريل، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني. قالت: قم يا بن عمّي فاجلس على فخذي، فقام رسول الله فجلس على فخذها، قالت: هل تراه؟ قال نعم، قالت، فتحوّل فاجلس في حجري، فتحوّل رسول الله فجلس في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، فألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في حجرها. ثم

قالت: هل تراه؟ قال: لا، قالت: يا ابن عمّي أثبت وأبشر فوالله إنّه لملك ما هذا بشيطان). وإلى ذلك أشار الإمام البوصيري في همزيته بقوله:

وَأَتَاهُ فِي بَيْتِهَا جَبْرَئِيلُ * وَلِذِي اللُّبِّ فِي الأُمُورِ ارْتِيَاءُ

فَأَمَاطَتْ عَنْهَا الْخِمارَ لِتَدْرِي * أَهُوَ الْوَحْيُ أَمْ هُوَ الإِغْمَاءُ

فَاخْتَفَى عِنْدَ كَشْفِهَا الرَّأْسَ جِبْرِيـ*ــلُ فَمَا عَادَ أَوْ أُعِيدَ الغِطَاءُ

فَاسْتَبَانَتْ خَدِيجَةٌ أَنَّهُ الْكَنْـ*ـــزُ الذِي حَاوَلَتْهُ وَالكِيمْيَاءُ

ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ يَدْعُو إِلَى اللَّـ*ـــهِ وَفِي الْكُفْرِ نَجْدَةٌ وَإِبَاءُ

رَبِّ إِنَّ الْهُدَى هُدَاكَ وَآيَا * تِكِ نُورٌ تَهْدِي بِهَا مَنْ تَشَاءُ

قال الإمام البرزنجي رحمه الله تعالى في مولده: (وأَوَّلُ من آمن به صلى الله عليه وسلم من الرِّجال أبو بكرٍ صَاحبُ الغَار والصِّدِّيقيَّة، ومن الصِّبيان عَليٌّ ومن النِّساء خديجة التي ثبَّت الله تَعالى بها قَلبهُ وَوَقَاه. ومن الموالي زيد ابن حارثة ومن الأرقَّاء بِلاَلٌ الذي عَذّبه في الله أُميَّة، وأَولاَهُ مَولاهُ أبو بكر من العِتْقِ ما أولاه. ثمَّ أَسلَمَ عُثمان وسَعدٌ وسَعيدٌ وطَلحة وابن عَوفٍ وابن العمَّة صَفِيَّة، وغيرهم ممّن أَنْهلَهُ الصدِّيق رَحِيق التَّصديق وَسَقاه. وما زَالت عِبادتهُ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه مَخْفِيَّة، حتَّى أُنزِلَ عليه (فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ) فَجَهَرَ بِدُعاء الخَلْقِ إلى الله).

فلنسأل المولى المقدّس ولنقل * يا من إليه المنتهى والمبتدا

ندعوك يا غوث العباد بجاهه * كن في الخطوب لنا مغيثا منجدا

وبحلية الإيمان حلّ قلوبنا * ولها بأنوار المعارف أسعدا

ولديننا ثبّت وقوّ يقيننا * كي ما يقينا ما نحاذره غدا

ونفوز من خير الورى بشفاعة * ونحوز في جنّات عدن مقعدا

وأجب دعانا إذ وعدت وهب لنا * حسن الختام فحاشا تخلف موعدا

صلّى عليه مسلّما مولاه مع * آل له والصحب ما نجم بدا

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَلَمِينَ. اهـ

12- أخذ العبر من قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ) وبدء النبيّ بالدعوة في السرّ واستجابة السابقين الأوّلين لهذا الأمر

الحمد لله الذي نوّر الخافقين ببعثة النور المبين. وجعلها شفاء لما في الصدور. وهدى ورحمة للمومنين. فأزال ظلمات الضلال المدلهمّة. فإذا همّت أفواه الأباطيل بإطفاء نوره. أبى الله إلاّ أن يتمّه. حين أشرق به مصباح الهداية. وقد كاد أن يهمّ بالإطفاء. واتّضح منهج الحقّ. بعدما اندرس رسمه وعفا. برسالته التي شرح الله بها الصدور وشفا. وانهار به ركن الباطل بعدما صار من الغواية على شفا. فأكمل الله به المنّة على البريّة. وأحيا به موؤودات المعارف الإلاهيّة. في فترة الجاهلية. نحمده سبحانه أن أوضح لنا سُبُل الهداية، وأزاح عن بصائرنا غشاوة الغواية، وأكرمنا ببعثة سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم. الذي أرسله شاهداً ومُبشّراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

نَجَاتِيَ فِي مَدْحِ الْحبَيبِ مُحَمَّدِ * رَجَائِي بِهِ عَفْوٌ وَفَوْزٌ وَغُفْرَانُ
نَبِيٌّ نَشَا مَا بَيْنَ زَمْزَمَ وَالصَّفَا * أَضَاءَتْ لَهُ بِالشَّرْقِ وَالْغَرْبِ بُلْدَانُ
نَمَا شَرَفاً فِي الأَرْضِ مِنْ قَبْلِ بَعْثِهِ * وَكَمْ هَتَفَتْ بِالْبَعْثِ جِنٌّ وَكُهَّانُ
رسولٌ له من ربّه الحُبُّ قد صفا * عَلَيْهِ مِنَ الْعِزِّ الإِلَهِيِّ تِيجَانُ
وَأُمَّتُهُ قَدْ شَرَّفَ اللهُ فِعْلَهُمْ * وَأَعْلَى لَهُ دِينًا عَلَى الْخَلْقِ دَيّانُ
نُرَجِّيكَ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا * لِيَوْم بُرُوزِ النَّارِ وَالرَّبُ غَضْبَانُ
فَمَا خَابَ عَبْدٌ نَحْوَ عَلْيَاك يَمَّمَا * لَقَدْ خَصَّك بِالْحُبِّ وَالْقُرْبِ رَحْمَانُ
صَلاَتُكَ رَبِّي وَالسَّلاَمُ عَلَى النَّبِي * صَلاَةً بها نُعطى من الله رضوانُ

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. أطلع فى سماء الأزل شمس أنوار معارف النبوّة المحمدية. وأشرق من أفق أسرار الرسالة مظاهر تجلّي الصفات الأحمدية. ووضع أساس نبوّته على سوابق أزليّته. ورفع دعائم رسالته على لواحق أبديّته. وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. اختاره الله تعالى لرسالته. وأمره بتبليغ شريعته، ووعد من أطاعه واتَّبعه بدخول جنَّته، وتَوعَّد من عصاه وخالف هديه بالخلود في دار شِقوته. وأمرنا أن نتأسّى به في هديه وسيرته. فقال لنا في سورة الأحزاب. قولا واضحا منيرا: ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)).

يَا أُمَّةَ المُصْطَفَى البُشْرَى تَحِقُّ لَنَا * لأَنَّ ذَا العَرْشِ بالمُخْتَارِ فَضَّلَنَا

وَبِالصَّلاَةِ عَلَيْهِ قَدْ تَخَوَّلَنَا * إنْ شِئْتُمُ أَنْ تَنَالُوا عِزَّ جَانِبِهِ

صَلُّوا عَلَى المُصْطَفَى يَا مُؤْمِنِين بِهِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. سيّد العرب والعجم. الذي بسيرته تقتدي ذوو الهمم العالية والشيم. وعلى آله سفينة النجاة. من ركبها نجا وسلِم. وصحابته الهداة. من سلك منهجهم الأحمدي ربح وغنِم. صلاة نكون بها ممّن اشتهر بمدحه الشريف وعلِم. وتحصّن بحصنه المنيع. من جميع الأهوال والآفات وعصِم. وتمّم عمره بكلمتيّ الشهادة وختم. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. لقد كان قول الحقّ تبارك وتعالى في سورة المدّثّر: ((يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وربَّك فَكَبِّرْ وثيابَك فطهِّرْ وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ)). كان هذا القول من ربّنا سبحانه بداية الأمر لسيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله عزّ وجلّ. فعندما نزلت هذه الآيات الكريمات قام سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ممتثلا لأمر ربّه. متوكّلا عليه. واثقا به. فدعا الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد. لقد كان بدء دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم سرّا. قال أبو نعيم الإصبهاني في دلائل النبوّة: كان صلى الله عليه وسلم فيما قاله عروة بن الزبير وابن شهاب ومحمد بن اسحاق: مِنْ حِينِ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ((اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)). إِلَى أَنْ كُلِّفَ الدَّعْوَةَ وَإِظْهَارَهَا فِيمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ من سورة الحجر: ((فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)). وقوله تعالى في سورة الشعراء: ((وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ)).

وقوله تعالى في سورة الحجر: ((وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)). ثَلاثَ سِنِينَ، لا يُظْهِرُ الدَّعْوَةَ إِلا لِلْمُخْتَصِّينَ بِهِ، مِنْهُمْ: خَدِيجَةُ وَأَبُو بَكْرٍ وَعَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَغَيْرُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أيّها المسلمون. بعد نزول ما تقدّم من آيات سورة المدثر، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ وحيث إنّ قومه كانوا جفاة لا دين لهم إلا عبادة الأصنام والأوثان، التي لا تنفع ولا تضرّ، ولا حجّة لهم إلا أنّهم متّبِعون لما كان يعبد آباؤهم، ولا أخلاق لهم إلا الأخذ بالعزّة والأنفة، ولا سبيل لهم في حلّ المشاكل إلا السيف، وكانوا مع ذلك متصدّرين للزعامة الدينية في جزيرة العرب، ومحتلّين مركزها الرئيسي، ضامنين حفظ كيانها، فقد كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة إلى الله تعالى في بدء أمرها سرّيّة؛ لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيّجهم. وكان من البديهي أن يعرض الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام أوّلًا على ألصق الناس به من أهل بيته، وأصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام، ودعا إليه كل من توسّم فيه الخير ممّن يعرفهم ويعرفونه، يعرفهم بحبّ الحقّ والخير، ويعرفونه بتحرّي الصدق والصلاح، فأجابه من هؤلاء الذين لم تخالجهم ريبة قطّ في عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم وجلالة نفسه وصدق خبره. جَمْعٌ عُرِفوا في التاريخ الإسلامي: بالسابقين الأوّلين، وفي مقدّمتهم زوجة النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّ المؤمنين السيّدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، قال ابن إسحاق: وآمنت به خديجة بنت خويلد. وصدّقت بما جاء به من الله. ووازرته على أمره، فكانت أوّل من آمن بالله ورسوله. وصدّق بما جاء به، فخفّف الله بذلك عن رسوله، لا يسمع بشيء يكرهه من ردّ عليه. وتكذيب له. فيحزنه ذلك. إلا فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها. تثبّته وتخفّف عليه. وتصدّقه وتهوّن عليه أمر الناس. رضي الله عنها وأرضاها. أيّها المسلمون. وأوّل ذكر أسلم وهو صبيّ لم يبلغ الحلم: سيّدنا علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي عنه. كان سنّه ثمان سنين، ولمّا زوّجه النبيّ صلى الله عليه وسلم إبنته السيّدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها. قال لها: ((زوّجتك سيّدا في الدنيا والآخرة، وإنّه لأوّل أصحابي إسلاما، وأكثرهم علما، وأعظمهم حلما)). أخرج البيهقي في دلائل النبوّة عن مجاهد قال: وكان ممّا أنعم الله على سيّدنا عليّ رضي الله عنه. أنّه كان في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام، لما أراد الله به الخير، وذلك أنّ قريشا أصابتهم أزمة شديدة. وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمّه: وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب

الناس ما ترى من هذه الأزمة. فانطلق فخفّف عنه من عياله. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنّا نريد أن نخفّف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلا وطالبا فاصنعا ما شئتما. فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّا فضمّه إليه، وأخذ العباس جعفرا فضمّه إليه، وتركا له عقيلا وطالبا، فلم يزل عليّ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله نبيّا فاتّبعه وصدّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه. وفي خصائص العشرة المبشّرين بالجنّة للزمخشري قال: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم تولّى تسميّته بعليّ. وتغذيته أيّاما من ريقه المبارك بمصّه لسانه. فعن فاطمة بنت أسد أمّ سيّدنا عليّ رضي الله عنهما أنّها قالت: لمّا ولدته سمّاه النبيّ صلى الله عليه وسلّم عليّا وبصق في فيه، ثم إنّه ألقمه لسانه، فما زال يمصّه حتى نام، قالت: فلمّا كان من الغد طلبنا له مرضعة فلم يقبل ثدي أحد، فدعونا له محمّدا فألقمه لسانه فنام، فكان كذلك ما شاء الله تعالى». وممّا نقل عن سيّدنا عليّ كرّم الله وجهه ورضي عنه أنّه قال مفتخرا وذاكرا فضل الله عليه:

محمّد النبي أخي وصهري * وحمزة سيّد الشهداء عمّي

وجعفر الذي يضحي ويمسي * يطير مع الملائكة ابن أمّي

وبنت محمّد سكني وعرسي * مشوب لحمها بدمي ولحمي

وسبطا أحمد ولداي منها * فأيّكم له سهم كسهمي

سبقتكم إلى الإسلام طرّا * صغيرا ما بلغت أوان حلمي

قال الإمام البيهقي: هذا الشعر ممّا يجب على كل متوان في محبّة الإمام عليّ رضي الله عنه حفظه. ليعلم مفاخره في الإسلام. قال ابن إسحاق: ثم أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أوّل ذكر أسلم وصلّى بعد عليّ بن أبي طالب. ولمّا تبنّى رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا كان يقال له: زيد بن محمّد، ولم يذكر في القرآن من الصحابة أحد باسمه إلا هو رضي الله عنه في قوله تعالى في سورة الأحزاب: ((فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا)). وقد أبدى الإمام السهيلي رحمه الله تعالى حكمة لذكر زيد باسمه في القرآن، وهي: أنّه لمّا نزل قوله تعالى في سورة الأحزاب: ((أدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ)). وصار يقال له: زيد بن حارثة. ولا يقال له: زيد بن محمّد، ونزع منه هذا التشريف. شرّفه

الله تعالى بذكر اسمه في القرآن دون غيره من الصحابة، فصار اسمه يتلى في المحاريب. أيّها المسلمون. وأوّل مَنْ أسلم من الصحابة من غير أهل بيته صلى الله عليه وسلم. سيّدنا أبو بكر الصدّيق بن أبي قحافة رضي الله عنهما. كان صديقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوّة. يعلم ما اتّصف به من مكارم الأخلاق. ولم يَعْهد عليه كذباً منذ اصطحبا، فأوّل ما أخبره برسالة الله أسرع بالتصديق، وقال: بأبي أنت وأمّي، أهل الصدق أنت، أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله. وكان رضي الله عنه صدراً معظّماً في قريش. على سعة من المال وكرم الأخلاق، وكان من أعفّ الناس، سخيّاً، يبذل المال، محبّباً في قومه، حسن المجالسة، ولذلك كلّه كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة الوزير، فكان يستشيره في أموره كلّها، وقال في حقّه صلى الله عليه وسلم كما في البداية والنهاية لابن كثير عن ابن إسحاق قال: بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلاّ كانت عنده كبوة وتردّد ونظر. إلاّ أبا بكر. ما عكم عنه حين ذكرته له ولا تردّد)). وقال ابن إسحاق: فلمّا أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه ودعا إلى الله تعالى. وكان رجلا مؤلّفا لقومه. محبّبا سهلا. وكان أنسب قريش لقريش. وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشرّ، وكان رجلا تاجرا ذا خلق حسن ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممّن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم على يديه فيما بلغني: عثمان بن عفّان. والزبير بن العوام. وعبد الرحمن بن عوف. وسعد بن أبي وقاص. وطلحة بن عبيد الله. فانطلقوا حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم ومعهم أبو بكر فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن وأنبأهم بحقّ الإسلام وبما وعدهم الله تعالى من الكرامة، فآمنوا وأصبحوا مقرّين بحق الإسلام. قال ابن إسحاق: فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا في الإسلام. فصلّوا وصدّقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فآمنوا بما جاءه من عند الله. ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء. وجاء في الرحيق المختوم لصفيّ الرحمن المباركفوري قال: ويظهر بعد التتبّع والإستقراء أن عدد الموصوفين بالسبق إلى الإسلام وصل إلى مائة وثلاثين رجلًا وامرأة، ولكن لا يعرف بالضبط أنّهم كلّهم أسلموا قبل الجهر بالدعوة. أو تأخّر إسلام بعضهم إلى الجهر بها. أيّها المسلمون. ومن أوائل ما نزل من الأحكام الأمر بالصلاة. روى الإمام أحمد والدارقطني عن أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله

عنهما: أنّ جبريل أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم في أوّل ما أوحي إليه. فأراه الوضوء والصلاة، فلمّا فرغ من الوضوء حتى حفنة من الماء فنضح بها فرجه. وقد ذكر ابن هشام: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، وقد رأى أبو طالب النبيّ صلى الله عليه وسلم وعليّا يصليان مرّة، فكلّمهما في ذلك، ولمّا عرف جليّة الأمر أمرهما بالثبات. تلك هي العبادة التي أمر بها المؤمنون، ولا تعرف لهم عبادات وأوامر ونواه أخرى غير ما يتعلّق بالصلاة، وإنّما كان الوحي يبيّن لهم جوانب شتّى من التوحيد، ويرغّبهم في تزكية النفوس، ويحثّهم على مكارم الأخلاق، ويصف لهم الجنّة والنار كأنّهما رأي عين، ويعظهم بمواعظ بليغة. تشرح الصدور. وتغذّي الأرواح، وتحدو بهم إلى جوّ آخر غير الذي كان فيه المجتمع البشري آنذاك. وهكذا مرّت ثلاثة أعوام، والدعوة لم تزل مقصورة على الأفراد، ولم يجهر بها النبيّ صلى الله عليه وسلم في المجامع والنوادي، إلاّ أنّها عرفت لدى قريش، وفشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدّث به الناس، وقد تنكّر له بعضهم أحيانًا، واعتدوا على بعض المؤمنين، إلاّ أنّهم لم يهتمّوا به كثيرًا. حيث لم يتعرّض رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينهم، ولم يتكلّم في آلهتهم. ومضت ثلاث سنين والأمر كما هو إلى أن أُمر عليه الصلاة السلام بالصدع بدعوة الحقّ. فنزل قول الله تعالى في سورة الشعراء:((وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ)).

يا ربّ بالمختار أفضل مُرشِد * خير الورى عين الوجود محمّدِ

وبآله الغُرّ الكرام وصحبه * أُولي المكارم والعُلا والسُّؤددِ

وبحقّ سيّدنا أبي بكر الذي * هو في الفضائل ذو المقام الأوحدِ

وبحقّ فاروق الهُدى عمر كذا * عثمان ذو النُّورين صفوة من هُدي

وكذا بسيّدنا عليّ ذي العُلا * والفخر والإعظام عالي المقعد

أسماؤهم حصن حصين مانع * ممّا يُخاف فإن تُصدّق تسعد

تُنصر وتسعد بالذي أمّلته * فاقصد حماهم والتزم ذاك النّدي

فبجاههم جد لي بما نرجوه من * فخر على مرّ الدهور مُؤبّد

واكشف بجاههم غموما غادرت * نارا بها في القلب ذات توقُّد

ولتكفنا شرّ البُغاة وكيد من * قد كادنا من حاسد مُتوبّد

واسلُك بنا سُبُل الهدى فنسير في * نهج إلى دار السلام مُمهّد

واغفر لنا الذنوب واحفظ جمعنا * وأدم سرور جميعنا بتزيُّد

ولوالدينا معْ مشائخنا ومنْ * أسدى لنا خيرا وكلّ مُوحّد

واختم لنا بالخير يسّر أمرنا * وأزل بفضلك عسرنا بتنقّد

وافسح لنا في جنّة الفردوس معْ * خير الورى وامنن بصدق المقعد

ثم الصلاة على النبيّ وآله * والصحب كلّهم النجوم الوُقّد

ما هبّ ريحُ النصر والأفراح من * أُفْق السعادة دائما بتجدُّد

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَلَمِينَ. اهـ

13- التخطيط المُحكَم للنبيّ الأكرم في دخوله لدار الأرقم بن أبي الأرقم وإظهارُه الدعوةَ للأخصّ والأعمّ

الحمد لله الذي أرسل الرسل للتبليغ والتشريع. ثم ختم النبوّة والرسالة ببعثة سيّد الجميع. سيّدنا ومولانا محمّد صلى الله عليه وسلم. المبعوث بِالحَقِّ رَسولاً، والمخصوص بعموم الرسالة والهداية. الذي اصطفاه ربّه حبيبا وخليلا. وجَعَلَهُ إِلَى السَّعادَةِ هَادِياً ودَلِيلاً،

فمَن شَاء فليَذكر جمَال بُثَينَةٍ * ومَن شَاء فليَغزل بحُبّ الرَّبائبِ

سَأذكُر حُبّي للحَبيب محمَّدٍ * إذا وَصَف العشَّاق حُبَّ الحبَائبِ

ويبْدو محيَّاه لعَينيَ في الكَرى * لنفْسِي أفديهِ إذاً والأقَاربِ

وتُدركُني في ذكرِه قَشعَريرةٌ * من الوَجد لا يحوِيه عِلم الأجَانبِ

وألفي لروحي عند ذلك هَزَّة * وأنساً وروحاً فيه وَثبَة واثب

وإنك أعلى المرسلين مكانةً * وأنت لهم شمس وهم كالثواقب

وصلّ إلهي كلما ذرّ شارق * على خاتم الرسل الكرام الأطايب

نحمده سبحانه أن رَضِيَ لَنَا الإسلاَمَ دِينا، وأَنْزلَ إلَيْنا نُوراً وكِتاباً مُبِيناً، وَنَشَرَ بِالإيمانِ عَلَى قُلُوبِنا بَرْداً وَيقِيناً، وأَشْهَدُ أَنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين. القائل في سورة الجمعة. وهو أصدق القائلين: ((هَوَ الذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ))، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وصفيّه من خلقه وخليله. مَنْ أصلح اللهُ بهِ للعبادِ المعاشَ والمعاد، فهداهُم إلى سبيل الحقّ والهدى والرشاد، صاحبِ الرسالة العظيمةِ الكاملة، والمِلّةِ المنيعةِ الشاملة. كان النبيّ فيما سبق يُبعَث إلى قومه خاصّة، وقال نبيّكم صلى الله عليه وسلم، كما في صحيح البخاري: ((وبُعثت إلى الناس عامّة)).

يا أمّةً لنبيٍّ نوره سطعا * وعزّ مقداره في المجد وارتفعا

إن شئتم تظفروا بالفضل والمِنَن * وتَسْلَموا من جميع البؤس والمحن

صلّوا على مَن أتى بالفرض والسُّنن

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد رسول الله. وعلى آله ذوي القدر الرفيع والجاه. وصحابته أهل الذكاء والفطنة والإنتباه. صلاة تنوّر بها قلوبنا بنوره المحمّدي وسناه. وتسقينا بها من بحر كرمه الأحمدي ونداه. وتجعلنا بها ممّن اقتفى أثره النبوي واهتدى بهداه. وتمسّك بحبل وِداده واغتنم بركة رضاه. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ الدعوة إلى الله تعالى عبادة من أشرف العبادات. وعمل من أجلّ الأعمال. لا يقوم به على وجهه الصحيح إلاّ أولو العزم من الرجال. لِمَا يكتنفه من مشاقّ ومسئوليات. وخاصّة في زمان غربة الدين، والدعوة إلى الله تعالى مهمّة رسل الله إلى الناس. من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين. سيّدنا ومولانا محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. هؤلاء الرسل الذين جعلهم الله تعالى واسطة بينه وبين

خلقه. يبلّغون عنه شرعه إليهم، قال تعالى في سورة الأنبياء: ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)). ويكفي في بيان شرف هذا العمل. قوله تعالى في سورة فصّلت: ((وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)). لكن الدعوة إلى الله تعالى عمل، والعمل لا يؤتي ثماره المرجوّة منه إلا أن يؤدّى على وجه من الإتقان والكمال. وهذا هو ما يحبّه الله تعالى. كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الطبراني في الأوسط. والبيهقي في شعب الإيمان، عَنْ السيّدة عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ)). ولا أحد أحسن ولا أتقن في سلوك طريق عمل الدعوة إلى الله تعالى من رسل الله عليهم الصلاة والسلام. الذين أرسلهم لقيادة العالمين في طريق الهداية والخير. ولنأخذ المثال التطبيقي على ذلك. من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعندما أوحى الله إليه برسالته. وأمره بالإنذار بقوله سبحانه: ((يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وربَّك فَكَبِّرْ وثيابَك فطهِّرْ وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ)). سلك رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقا وسطا. ولجأ إلى الدعوة الفردية السرية، فبدأ بدعوة من يأنس فيهم الرشد. ورجاحة العقل في إدراك الحقّ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يهتمّ بالتخطيط الدقيق المنظّم. ويحسب لكل خطوة حسابها، وكان مدركًا تمامًا أنّه سيأتي اليوم الذي يؤمر فيه بالدعوة عَلَنًا وجهرًا، وأنّ هذه المرحلة سيكون لها شدّتها وقوّتها، فحاجة الجماعة المؤمنة المنظّمة تقتضي أن يلتقي الرسول المربّي مع أصحابه، فكان لابدّ من مقرّ لهذا الإجتماع، فقد أصبح بيت السيّدة خديجة رضي الله عنها لا يتّسع لكثرة الأتباع، فوقع اختيار النبيّ صلى الله عليه وسلم وصحبه على دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وكانت على جبل الصفا، وهي بمعزل عن المتربّصين بالمسلمين في مكة، وكانت فضلاً عن ذلك للأرقم بن أبى الأرقم، وهو من السابقين الأوّلين الذين استجابوا لله وللرسول. وكان الأرقم رضي الله عنه في السادسة عشر من عُمُره يوم أسلم، ويوم أن تُفكِّر قريش في البحث عن مركز تجمّع المسلمين، لن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصغار، بل يتّجه نظرها إلى بيوت كبار الصحابة، وهذا من حكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وفي هذه الدار المباركة، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتقي بأصحابه رضي الله عنهم، يتلو عليهم آيات الله ويزكّيهم، ويعلّمهم أمور دينهم، ويباحثهم في شأن الدعوة وما وصلت إليه، ويسمع شكواهم وما يلقونه من أذى المشركين

وكيدهم، ويتحسّس آلامهم وآمالهم، ويطلب منهم الصبر والثبات على دينهم، ويبشّرهم أنّ العاقبة للمتّقين. وقد اتّخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم مقرّا سريّا لدعوته، والحفاظ على أصحابه وتربيّتهم وإعدادهم، بعد المواجهة الأولى التي حدثت بين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وقريش. ذكر ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلّوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شِعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلّون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحي بعير فشجّه، فكان أوّل دم أهريق في الإسلام. ومن ثَمَّ أصبحت دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه مركزاً للدعوة السرية، يتجمّع فيه المسلمون، ويتلقّون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جديد من الوحي، ويتربَّون على يديه صلى الله عليه وسلم. كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أعظم مدرسة للتربية والتعليم عرفتها البشرية. كيف لا؟ وأستاذها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم. أستاذ البشرية كلها، وتلاميذها هم الدعاة والهداة، والقادة الربانيّون. الذين حرّروا البشرية من رقّ العبودية. وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، بعد أن ربّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. أيّها المسلمون. كانت شخصيّة رسول الله صلى الله عليه وسلم المحرّك الأوّل للإسلام، وشخصيّته صلى الله عليه وسلم تملك قِوى الجذب والتأثير على الآخرين، فقد صنعه الله على عينه، وجعله أكملَ صورةٍ لبشرٍ في تاريخ الأرض. والعظمة دائما تُحَبّ، وتُحاط من الناس بالإعجاب، ويلتفّ حولها المعجَبون. يَلتصقون بها اِلْتصاقًا بدافع الإعجاب والحبّ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيف إلى عظمته تلك، أنّه رسول الله، متلقّي الوحي من الله، ومبلّغه إلى الناس، وذلك بُعْدٌ آخَر له أثرٌ في تكييف مشاعر ذلك المؤمن اتّجاهه. فهو لا يحبّه لذاته فقط. كما يحبّ العظماء من الناس، ولكن أيضا لتلك النفحة الربانية. التي تشمله من عند الله، فهو معه في حضرة الوحي الإلهيّ المكرَّم، ومن ثَمَّ يلتقي في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم البشر العظيم والرسول العظيم، ثم يصبحان شيئًا واحدًا في النهاية، غير متميّز البداية ولا النهاية، حبّ عميق شامل للرسول البشر. أو للبشر الرسول. ويرتبط حبُّ الله بحبّ رسوله. ويمتزجان في نفسه، فيصبحان في مشاعره هما نقطة ارتكاز المشاعر كلّها، ومحور الحركة

الشعورية والسلوكية كلها كذلك. كان هذا الحب الذي حرّك الرعيل الأوّل من السابقين الأوّلين من الصحابة رضي الله عنهم هو مفتاح التربية الإسلامية. ونقطة ارتكازها. ومنطلقها الذي تنطلق منه. أيّها المسلمون. وبعد الإعداد العظيم الذي قام به النبيّ صلى الله عليه وسلم لتربية أصحابه في المرحلة السرية للدعوة. وبناء الجماعة المسلمة المنظّمة الأولى على أسس عقدية وتعبدية وخلقية رفيعة المستوى، حان موعد إعلان الدعوة بنزول قول الله تعالى في سورة الشعراء: ((وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)). فقام صلى الله عليه وسلم ممتثلا أمر ربّه. واثقا بوعده ونصره. فجمع قبيلته وعشيرته. ودعاهم علانية إلى الإيمان بإله واحد. وخوّفهم من العذاب الشديد إن عصَوْه. وأمرهم بإنقاذ أنفسهم من النار. وبيّن لهم مسؤولية كل إنسان عن نفسه. روى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أنزل عليه: ((وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)). قام على الصفا. فعلا أعلاها حجرا ثم نادى: يا صباحاه. فقالوا من هذا؟ وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فاجتمعوا إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أخبرتكم أنّ خيلا تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جرّبنا عليك كذبا. فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنقذ نفسك من النار فإنّي لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفيّة عمّة محمّد، ويا فاطمة بنت محمّد أنقذا أنفسكما من النار فإنّي لا أملك لكما من الله شيئا، غير أنّ لكما رحِمًا سأبُلُّها بِبلاَلِها، أي أصِلُها بالدعاء. إنّي لكم نذير بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبّا لك سائر اليوم. ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ((تَبَّتْ يَدَا أبي لهبٍ وتَبّ ما أَغْنَى عنه مالُه وما كَسَبَ سَيصْلى ناراً ذاتَ لهبٍ وامرأتُهُ حمّالةُ الحطبِ في جِيدِها حَبْلٌ من مَسَدٍ)). وفي السيرة الحلبية قال: ثم مكث صلى الله عليه وسلم أيّاما ونزل عليه جبريل وأمره بإمضاء أمر الله تعالى، فجمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيا وخطبهم ثم قال لهم: ((إنّ الرائد لا يكذب أهله، واللهِ لو كذبتُ الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررتُ الناس جميعا ما غررتكم، واللهِ الذي لا إله إلا

هو إنّي لرسول الله إليكم خاصّة وإلى الناس كافّة، واللهِ لتموتنّ كما تنامون، ولتبعثنّ كما تستيقظون، ولتحاسبنّ بما تعملون، ولتجزوُنّ بالإحسان إحسانا. وبالسوء سوءا. وإنّها لَجنّة أبدا، أو لنار أبدا، واللهِ يا بني عبد المطلّب ما أعلم شابّا جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به؟ إنّي قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة)). فتكلّم القوم كلاما ليّنا غير أبي لهب، فإنّه قال: يا بني عبد المطلّب هذه واللهِ السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم، وإن منعتموه قُتِلتم، فقالت له أخته صفية عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي أخي. أيحسن بك خذلان ابن أخيك، فواللهِ ما زال العلماء يخبرون أنّه يخرج من ضئضيء. أي أصل. عبد المطلّب نبيّ. فهو هو، قال: هذا والله الباطل والأماني، وكلام النساء في الحجال، إذا قامت بطون قريش وقامت معها العرب فما قوّتنا بهم، فوالله ما نحن عندهم إلا أُكْلةَ رأس، فقال أبو طالب: والله لنمنعنّه ما بقينا. أيّها المسلمون. وذكر أهل السِّيَر: أنّه لمّا جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة. سخرت منه قريش. واستهزؤوا به في مجالسهم. فكان إذ مرّ عليهم يشيرون إليه ويقولون: إنّ غلام بني عبد المطلب ليكلّم من السماء، لا يزيدون على ذلك. وكان هذا دأبهم حتى عاب آلهتهم. وسفّه عقولهم. وضلّل آباءهم. حتى أنّه مرّ يوما وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام، فقال: ((يا معشر قريش. واللهِ لقد خالفتم ملّة أبيكم إبراهيم))، فقالوا: إنّما نعبد الأصنام حبّا لله. لتقرّبنا إلى الله. فأنزل الله تعالى في سورة آل عمران قوله: ((قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ))، فتناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته. إلا مَن عصم الله منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون، وجاؤوا إلى عمّه أبي طالب. سيّد بني هاشم. الذي أخذ على نفسه حمايته من أيدي أعدائه. وقالوا: يا أبا طالب إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا. وعاب ديننا. وسفّه أحلامنا وعقولنا، ينسبنا إلى قلّة العقل، وضلّل آباءنا. فإمّا أن تكفّه عنّا، وإمّا أن تخلي بيننا وبينه. فإنّك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا. وردّهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه، أيّها المسلمون. ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر دين الله ويدعو إليه. لا يلوي على إعراض من أعرض، ولا يلتفت إلى استهزاء من استهزأ، بل كانت وجهته إلى الله ربّ العالمين. كما قال تعالى في سورة الأنعام: ((قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ))، وكانت وسيلته الجهر بكلمة الحقّ. قال تعالى في سورة يوسف: ((قُلْ هَذِهِ سَبِيلِيَ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ

اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ))، وقد لاقى رسول الله صلى الله عليه وسلم جرّاء موقفه هذا شدّة وبأساً من المشركين، الذين رأوا في دعوته خطراً يهدّد ما هم عليه، فتكالبوا ضدّه لصدّه عن دعوته، وأعلنوا جهاراً الوقوف في مواجهته، آملين الإجهاز على الحقّ الذي جاء به. لكن هيهات لهم. قال تعالى في سورة يوسف: ((وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ))، إذ الأمر بيد الله تعالى. كما قال سبحانه في سورة التوبة: ((يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ))، وإلى ذلك أشار الإمام البوصيري رحمه الله تعالى في همزيته بقوله:

ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ يَدْعُو إِلَى اللَّـ*ـهِ وَفِي الْكُفْرِ نَجْدَةٌ وَإِبَاءُ

أُمَماً أُشْرِبَتْ قُلُوبُهُمُ الْكُفْـ*ـــرَ فَدَاءُ الضّلاَلِ فِيهِم عَيَاءُ

وَهْوَ يَدْعُو إلى الإلَهِ وَإنْ شَـ*ــقَّ عَلَيْهِ كُفْرٌ بِهِ وَازْدِرَاءُ

وَيَدُلُّ الْوَرَى عَلَى اللهِ بِالتَّوْ * حِيدِ وَهْوَ الْمَحَجَّةُ الْبَيْضَاءُ

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لاَنَتْ * صَخْرَةٌ مِنْ إِبَائِهِمْ صَمَّاءُ

وَرَأَيْنَا أيَاتِه فَاهْتَدَيْنَا * وَإِذَا الْحَقُّ جَاءَ زَالَ الْمِرَاءُ

رَبِّ إِنَّ الْهُدَى هُدَاكَ وَآيَـ*ــاتِك نُورٌ تَهْدِي بِهَا مَنْ تَشَاءُ

أيّها المسلمون. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ. لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ. اللّهمّ فاجز عنّا سيّدنا نبيّنا محمّدًا صلى الله عليه وسلم خيرَ الجزاء وأوفاه، وأكمله وأسناه، وأتمَّه وأبهاه، وصلِّ عليه صلاةً تكون له رِضاء، ولحقِّه أداء، ولفضلِه كِفاء، ولعظمته لِقاء، يا خيرَ مسؤول. وأكرمَ مأمول. اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا حُسْنَ اتّباعِ نبيّكَ الكريم. ومرافقَتَهُ فِي الجنّةِ دار النعيم، ومتّعنا اللهم بلذّة النظر إلى وجهه الأنور. في الدنيا ويوم المحشر. وامنحنا اللهم من المدد المحمّدي ما منحته عباداك الصالحين. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

14- صبرُ النبيِّ وتحمُّلُه لأذى المؤذين سبيلٌ إلى العِزّة والتّمكين التي وعد بها ربّ العالين

الحمد لله الذي أبرز للوجود نبيّه وعبده، وأفاض عليه من الكمالات ما لا يمكن لحاسب أن يعدّه، وحلاّه بالرسالة فبذل في آدائها جهده، حتى أضاء الوجود بالدعوة إلى الله وحده، نحمده تعالى أن جعل أمّتنا آخر الأمم وخير أمّة، وبعث فينا رسولا منّا. يتلو علينا آياته ويزكّينا. ويعلّمنا الكتاب والحكمة، أرسله ربّه للعالمين رحمة، فدعا إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكِلْمَة، فكشف الله به الغمّة، ومحا بنور سنّته الظلمة. وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ. الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَعَزَّ دِينَهُ بِرِجَالٍ صَادِقِينَ، وَاخْتَارَهُمْ لِمَحَبّةِ نَبِيِّهِ. فَكَانُوا نِعْمَ الصّاحِب وَالْمُعِين، وكَتَبَ لَهُمُ الْعِزَّةَ وَالسِّيَادَةَ وَالتَّمْكِينَ، وَجَعَلَ دِينَهُ ظَاهِراً عَلَى كُلِّ دِينٍ، وَأَشْهَدُ أَنّ سيّدنا مُحَمّداً عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ. وصفيّه من خلقه وخليله. صَدَعَ بِالحَقِّ فِي قَوْمِهِ، وَدَعَا إِلى دِينِ رَبِّهِ، وَتَحَمَّلَ الأَذَى فِي سَبِيلِهِ، وَمَا لاَنَتْ عَزِيمَتُهُ، وَلاَ وَهَنَتْ شَكِيمَتُهُ، وَلاَ فَتَرَ فِي دَعْوَتِهِ، إلى أن زكّى أنفسهم من أشرارها. وتركهم على المحجّة الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا. لا يَزِيغُ عَنْهَا إلا هَالِكٌ.

يا أُمَّةَ المصطفى الهادي إلى الرَّشَدِ * وَالْمُرْتَجِينَ ثوابَ الواحِدِ الصَّمَدِ

إنْ شِئْتُمُ أَنْ تنالوا أعْظَمَ الْمَدَدِ * مِنَ الإله وتَنْجُوا في شفاعتِهِ

صلّوا على المصطفى يَا أَهْلَ مِلَّتِهِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. إمام الزُّهَّاد والعُبّاد. وعلى آله النجباء الأفراد. وصحابته ذوي الجِدّ والإجتهاد. صلاة تصلح بها منّا القلوب والأجساد. وتحفظ لنا بها المال والأهل والأولاد. وتبلّغنا بها من رضاك ورضاه غاية القصد والمراد. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. يقول الله عزّ وجلّ في سورة الأنعام: ((وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ)). ففي هذه الآية الكريمة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنّ هذه سنّة الله أبانها لنبيّه. وهي أنّ جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين كانوا قبْلَه قد كُذِّبُوا، وأوذوا، وأنّ الله ناصرُهم بعد ابتلاءهم وصبرهم على ما

يحصل لهم من الأذى، ونظير هذه الآية قولُ الله تعالى في سورة إبراهيم. بعد أن ذكر دعوة الرسل لقومهم، وما أجابوهم به من التكذيب، قال الله سبحانه عن لسان رُسُلِه: ((وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)). فأبان سبحانه بعد هذه الآية أنّه نصرهم، فقال: ((فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِي)). فأبان عزّ وجلّ أنّ من خاف مقام الله وخاف وعيده. وصبر على الأذى من أجله، أنّ الله مُمَكِّنُه وناصِرُه، أيّها المسلمون. لم تقم دعوةُ الإسلام، ولم تبلغ ما بلغت. إلاّ بعد تضحيّاتٍ جسيمة، وتحمّلِ صنوفٍ من الأذى، وأوّلُ مَنْ واجه ذلك وصبر عليه. هو إمام هذه الدّعْوَة سيّدُنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فمِن حين أُنزل عليه قوله تعالى في سورة الحجر: ((فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)). قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ممتثلا أمر ربّه. واثقا بوعده ونصره. فقام يجهر بالدعوة إلى الإسلام في مجامع المشركين ونواديهم، يتلو عليهم كتابَ الله، ويقول لهم ما قالته الرسل لأقوامهم. كما في سورة الأعراف: ((يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)). فصار يدعو في جميع الأماكن والأزمان والأحوال. ولم يوجّه صلى الله عليه وسلم دعوتَه لصنف من الناس دون صنف؛ بل دعا الناس جميعاً مَنْ أحبّوه ومَنْ أبغضوه، ومَنِ استمع إليه، ومَنْ أعرض عنه، بل يوجّه دعوته إلى مَنْ آذاه. لأنّ الدعوة تكليف من الله تعالى. لابدّ من القيام به. كسائر التكاليف الشرعية. وبدء صلى الله عليه وسلم يعبد الله تعالى أمام أعينِهم، فكان يُصلِّي بفناء الكعبة نهارًا جِهارًا. وعلى رءوس الأشهاد. وقد نالت دعوتُه مزيدًا من القَبول، ودخل الناس في دين الله واحدًا بعد واحد. وحصل بينهم وبين مَنْ لم يُسْلِم مِن أهل بَيْتِهم تباغض وتباعد وعناد. واشمأزّت قريش من كل ذلك، وساءهم ما كانوا يُبصرون. وأضمرت الحقد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحثّ بعضهم بعضاً على ذلك. ثم مشوا إلى عمّه أبي طالب مرّة أخرى وقالوا له: (إنّ لك سِنّاً وشرَفاً ومنزلة منّا، وإنّا قد طلبنا منك أن تنهي ابن أخيك فلم تَنْهَهُ عنّا، وإنّا واللهِ لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه عقولنا، وعيب آلهتنا). فإنّهم كانوا إذا احتجّوا بالتقليد في استمرارهم على عدم اتّباع الحقّ. ذمّهم لعدم استعمال عقولهم فيما خُلِقت له. كما قال تعالى في سورة البقرة: ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءابَآءنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءابَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ)). وقال في سورة الزخرف في بيان

حجّتهم الداحضة: ((قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءابَآءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ)). ولما شبّههم بِمَنْ قَبْلَهم من الأُمَم في هذه المقالة الدّالة على التعصّب والعناد. قال في سورة الزخرف: ((قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءابَآءكُمْ قَالُواْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)). فلمّا تمسّكوا بحجّة التقليد لِآبائهم. جرّ ذلك إلى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية. فهاج ذلك أضغانهم. وقالوا لأبا طالب:(إمّا أن تكفّه عنّا، أو ننازله. وإيّاك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسا بأن يخذل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: يا ابن أخي، إنّ قومك قد جاؤوني. فقالوا لي: كذا وكذا. فأبق عليّ وعلى نفسك. ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق، فظنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ عمَّه خاذله. وأنّه ضعُف عن نصرته والقيام معه، فقال له: ((يا عمّ والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت. حتى يظهره الله أو أهلك دونه))، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلمّا ولّى ناداه أبو طالب فقال: أقبِل يا ابن أخي، فأقبل عليه، فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أُسْلِمك لشئ أبدا. وأنشد أبياتا منها: واللهِ لن يصلوا إليك بِجَمْعِهم حتى أُوَسَّدَ في التراب دفينا فامضي لأمرك ما عليك غضاضة وابشر وقَرَّ بذاك منك عيونا ولمّا رأى أبو طالب من قريش ما رأى. دعا بني هاشم، وبني المطلّب إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه. فأجابوه إلى ذلك، غير أبي لهب فكان من المجاهرين بالظلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل من آمن به، وتوالى الأذى من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى من أسلم معه. فرأى منهم كثير الأذى وعظيم الشدّة، خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت، أيّها المسلمون. وكان من أعظمهم أذًى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبو جهل. ذكر في السيرة الحلبية: أنّ أبا جهل قال يوما لقريش: يا معشر قريش إنّ محمّدا قد أتى إلى ما ترون من عيب دينكم. وشتم آلهتكم. وتسفيه أحلامكم. وسبّ آبائكم. إنّي أعاهد الله لأجلسنّ له غدا بحجر لا أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته رضختُ به رأسه. فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: واللهِ لا نُسلمك لشيء أبدا، فامض لِمَا تريد، فلمّا أصبح أبو جهل أخذ حجَرا كما وصف. ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره، وغدا رسول الله كما كان يغدو إلى الصلاة. وكانت قِبْلته إلى الشام إلى صخرة بيت المقدس، فكان يصلّي بين الركن اليماني والحجر

الأسود. ويجعل الكعبة بينه وبين الشام. وقريش جلوس في أنديتهم. وهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلمّا سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقِعا لونه من الفزع. وقد يبست يداه على حجره. حتى قذفه من يده. وقامت إليه رجال من قريش وقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلتُ لكم البارحة، فلمّا دنوتُ منه عرض لي فحل من الإبل. واللهِ ما رأيتُ مثلَه قطّ، همّ بي أن يأكلني، فلمّا ذُكِر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ذاك جبريل لو دنا لأخذه)). وإلى ذلك يشير صاحب الهمزية الإمام البوصيري رحمه الله بقوله: وَأَبُو جَهْلٍ إِذْ رَأَى عُنُقَ الْفَحْـــــلِ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ الْعَنْقَاءُ وكان أبو جهل كثيراً ما ينهي الرسول عن صلاته في البيت. فقال له مرّة بعد أن رآه يصلّي: ألم أنهك عن هذا؟ فأنزل الله تعالى قوله في سورة العلق: ((أَرَآيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى)). فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم القول وهدّده، فقال أبو جهل: أتهدّدني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟ فأنزل الله تعالى تهديداً له في آخر سورة اقرأ: ((كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)). قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو دعا ناديَه لأخذته زبانية الله. أيّها المسلمون. وممّا وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذيّة ما حدّث به بعضهم قال: لمّا أنزل الله تعالى سورة ((تَبَّتْ يَدَا أبي لهبٍ وتَبّ)). جاءت امرأة أبي لهب. وهي أم جميل، واسمُها أروى بنتُ حرب. أخت سيّدنا أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه، وفي يدها فِهرٌ أي حَجَر يملأ الكف، جاءت إلى النبيّ ومعه أبو بكر، فلمّا رآها قال: يا رسول الله إنّها امرأة بذيّة. فلو قمتَ كي لا تؤذيك، فقال صلى الله عليه وسلم: ((إنّها لن تراني)). فجاءت فقالت: يا أبا بكر صاحبُك هجاني. يُنشِد فِيَّ الشِّعر؟ قال: لا وربِّ هذا البيت. ما هجاكِ، واللهِ ما صاحبي بشاعرٍ. وما يدري ما الشّعر. فقالت له: أنت عندي مُصدَّق، فانصرفت فقلت: يا رسول الله كيف لم ترك؟ قال: ((لم يزل مَلَك يسترني منها بجناحيه)). وإلى ذلك أشار الإمام البوصيري رحمه الله تعالى في همزيته بقوله:

وَأَعَدَّتْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ الْفِهْـ*ــرَ وَجَاءَتْ كَأَنَّهَا الْوَرْقَاءُ

يَوْمَ جَاءَتْ غَضْبَى تَقولُ أَفِي مِثْــ*ــلِيَ مِنْ أَحْمَدٍ يُقَالُ الهِجَاءُ

وَتَوَلَّتْ وَمَا رَأَتْهُ وَمِنْ أَيْـ*ــنَ تَرَى الشَّمْسَ مُقْلَةٌ عَمْيَاءُ

أيّها المسلمون. وممّا وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذيّة. ما حدّث به عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من رواية البخاري قال: كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وهو يصلّي، فقال أبو جهل: ألا رجل يقوم إلى فَرْث جزور بني فلان فيلقيه على محمّد وهو ساجد؟ فقام عقبة بن أبي مُعَيْط، وجاء بذلك الفرث، فألقاه على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو ساجد، فلم يقدر أحدٌ من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه. لضَعْفهم عن مقاومة عدوِّهم، ولم يزل عليه الصلاة والسلام ساجداً حتى جاءت فاطمة بنتُه فأخذت القذر ورمته. فلمّا قام دعا على مَنْ صنع هذا الصنع القبيح. فقال: ((اللهمّ عليك بالملأ من قريش)). وسمّى أقواماً، قال ابن مسعود: فرأيتهم قُتلوا يوم بدر. ومن أشدّ ما صنعه هذا الشقيّ عقبة بن أبي مُعَيْط برسول الله صلى الله عليه وسلم ما رواه البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أخبرني بأشدّ ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: بينما رسول الله يصلّي بحِجْر الكعبة. إذ أقبل عقبة بن أبي مُعَيْط فوضع ثوبه في عنق رسول الله فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله وقال كما في سورة غافر: ((أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ)). بل ولم يَسْلَم صلى الله عليه وسلم حتى من أذى جيرانه. فقد كان بجواره جماعة يؤذونه. منهم أبو لهب. والحكم بن أبي العاص. وعقبة بن أبي معيط فكانوا يطرحون عليه الأذى في داره. فإذا طرحوه عليه أخذه وخرج به ووقف على بابه ويقول: يا بني عبد مناف أيُّ جِوَارٍ هذا. ثم يُلْقيه، أيّها المسلمون. وممّا وقع له صلى الله عليه وسلم من الأذيّة. ما كان سبباً لإسلام عمِّه سيِّدِنا حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه. فقد أدركته الحميّة عندما عيّرته بعض الجواري بإيذاء أبي جهل لابن أخيه، روى ابن أبي حاتم في تفسيره عَنِ الْأَجْلَحِ، قَالَ: كَانَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَجُلًا حَسَنَ الشَّعْرِ، حَسَنَ الْهَيْئَةِ، صَاحِبَ صَيْدٍ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى أَبِي جَهْلٍ فَوَلَعَ بِهِ وَآذَاهُ، فَرَجَعَ حَمْزَةُ مِنَ الصَّيْدِ، وَامْرَأَتَانِ تَمْشِيَانِ خَلْفَهُ، فَقَالَتْ إِحْدَاهُمَا: لَوْ عَلِمَ ذَا مَا صُنِعَ بِابْنِ أَخِيهِ؟ أَقْصَرَ عَنْ مِشْيَتِهِ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمَا فَقَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَتْ: أَبُو جَهْلٍ فَعَلَ بِمُحَمَّدٍ كَذَا وَكَذَا، فَدَخَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَفِيهِ أَبُو جَهْلٍ، فَعَلَا رَأْسَهُ بِقَوْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: دِينِي دِيْنُ مُحَمَّدٍ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَامْنَعُونِي، فَقَامَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: يَا أَبَا يَعْلَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ في سورة الفتح قولَه: ((إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ

حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى)). قَالَ الْأَجْلَح: أراد حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وقال ابن عباس رضي الله عنها: إنّ هذه الواقعة سبب لنزول قوله تعالى في سورة الأنعام: ((أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ)). يعني حمزة. ((كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)). يعني أبا جهل، وسُرَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بإسلام حمزة سروراً كبيرا. لأنّه كان أعزَّ فتىً في قريش. وأشدَّهم شكيمة. حتى صار مِن أحسنِ الناس إسلاماً، وأشدِّهم غِيرة على المسلمين، وأقواهم شكيمة على أعداء الدين. حتى سُمِّيَ أَسَدُ الله وأسد رسوله. فلمّا أسلم سيّدنا حمزة. عرفت قريش أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم عزَّ وامتنَع، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه. وأقبلوا على بعض أصحابه بالأذيّة. سِيَما المستضعَفين منهم. الذين لا جِوار لهم ولا ناصر. وكلّ هذا الأذى كان حُلواً في أعينهم. ما دام فيه رضاء الله، فلم يُفتَنوا عن دينهم. بل ثبّتهم الله. حتى أتمّ أمرَه على أيديهم، وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعَفين فيها، كما قال جلّ ذكره في سورة القصص: ((وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِى الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)). أيّها المسلمون. وقد أشار صاحب الهمزية الإمام البوصيري رحمه الله إلى أنّ هذه الإذايات التي وقعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليست منقصة له. بل هي ممّا تزيده رفعة. ودليلٌ على فخامة قدره. وعلوّ مرتبته. وعظيم رفعته ومكانته عند ربّه عزّ وجلّ، لكثرة صبره وحلمه واحتماله. مع عِلْمه باستجابة دعائه ونفوذ كلمته عند الله تعالى. وذلك سنّة من سنن النبيّين السابقين عليهم الصلاة والسلام. فالأنبياء كالذهب. والشدائد التي تصيبهم كالنار التي يُعرَض عليها الذهب، فإنّ ذلك لا يزيد الذهب إلا حُسْنا، فكذلك الشدائد لا تزيد الأنبياء إلا رفعة. وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه الدارمي والنسائي وابن ماجه والترمذي وابن حبّان والحاكم. عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وقَّاصٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً؟ قَالَ: ((الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ. فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ. فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ. وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ. فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)). قال الإمام البوصيري في الهَمْزية:

لاَ تَخَلْ جَانِبَ النَّبِيِّ مُضَاماً * حِينَ مَسَّتْهُ مِنهُمُ الأَسْوَاءُ

كُلُّ أَمْرٍ نَابَ النَّبِيئِينَ فَالشِّـ*ـــدَّةُ فِيهِ مَحْمُودَةٌ وَالرَّخَاءُ

لَوْ يَمَسُّ النُّضارَ هَوْنٌ مِنَ النَّا * رِ لَمَا اخْتِيرَ لِلنُّضارِ الصِّلاَءُ

اللهم نوِّرْ قلوبنا بأنوار الإيمان، وزِدْنا بفضلك من الجود والإحسان، وأصلِحْ لنا وللأمّةِ كلَّ شأن، اللهم نوِّرنا بأنوار الهدى. واجعلنا ممَّن بنبيِّك اقتدى، بما خفي وبما بدا. اللهم نوِّرنا بأنوار نبيِّك طه الأمين. واجعلنا من المستقيمين على منهاجه في كل شأن وحين. وحقّقنا اللهم بنصرته، وارزقنا حسنَ متابعته، واحشرنا غداً في زمرته. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. آمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

15- إختبارُ الله الأبر للصحابة الغُرَر على صبرهم لإذاية أهل الكفر واعتزازُهم بإسلام سيّدنا عمر

الحمد لله معزّ الإسلام بنصره، ومذلّ الشرك بقهره. ومصرّف الأمور بأمره، ومديم النّعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره. الذي قدّر الأيّام دُوَلاً بعدله، وجعل العاقبة للمتّقين بفضله، وأظهر دينه على الدين كلّه، فسبحانه من إله هو القاهر فوق عباده فلا يمانَع، والظاهر على خَلْقه فلا ينازَع، والآمر بما يشاء فلا يراجَع، والحاكم بما يريد فيما يدافَع، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. أرسل عبده ورسوله سيّدنا محمّداً صلى الله عليه وسلم بالهدى والنور المبين، وجعله إماماً وقائداً للغرّ المحجّلين، واختار له خير الأصحاب والأنصار من المجاهدين المؤمنين، والأبرار الصالحين، فكانوا خير أمّة أخرجت للناس أجمعين. ونالوا الإمامة بالصبر واليقين. كما قال تعالى في سورة السجدة: ((وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآَيَاتِنَا يُوقِنُونَ)). فكانوا بذلك قُدْوة لكل مَن أراد اللهَ والدارَ الآخرة ممّن يأتي بعدَهم من المسلمين والمؤمنين، وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله وصفيّه من خلقه وخليله. بعثه ربّه رافعا للشّك، وخافضا للشرك، ورافضا للإفك، فصبر في سبيل دعوته على أذى بني الإنسان. وما ضعف

وما استكان. حتى شرح الله به الصدور، وأنار به العقول، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غُلْفا.

يا أُمّةَ المصطفى يا أشرفَ الأُمَمِ * هذا نبيّكُمُ المخصوصُ بالكَرَمِ

هو الرؤوفُ الرحيمُ الطاهرُ الشِّيَمِ * إنْ شئتُمُ أنْ تنالوا رِفْعَةً وغِنَى

صلّوا عليْه لعلّ اللهَ يرْحَمُنا

اللهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ على الهادي إليك. والدالّ عليك، عبدِك المصطفى سيّدِنا محمّد، نور الأنوار. وسرّ الأسرار، وعلى الخليفة مِنْ بعده المختار، وصاحبِهِ وأنيسِه في الغار، مؤازِرِ النبيّ في حالي السَّعةِ والضِّيق، الخليفةِ الشفيق، خليفةِ رسول الله سيِّدِنا أبي بكر الصديق، وعلى الناطقِ بالصواب، حليفِ المحراب، أميرِ المؤمنين سيدِنا عمرَ بن الخطاب، وعلى الناصحِ لله في السرِّ والإعلان، مَن استحيَتْ منه ملائكةُ الرحمن، أمير المؤمنين ذي النورين سيدنا عثمان بن عفان. وعلى أخي النبيِّ المصطفى وابن عمّه، وَوَلِيِّه وبابِ مدينةِ علمه، إمامِ أهلِ المشارق والمغارب. أمير المؤمنين سيدِنا عليِّ بن أبي طالب. وعلى الحسن والحسين سيدَيْ شباب أهل الجنّة في الجنّة، وريحانَتَيْ نبيِّك بِنَصِّ السُّنَّة، وعلى أمّهما الحوراء. فاطمة البتول الزهراء، وعلى خديجة الكبرى. وعائشة الرضى، وعلى الحمزة والعباس. وسائر أهلِ بيتِ نبيّك الذين طَهَّرْتَهُم من الدَّنَس والأرجاس، وعلى أهل بدر وأهل أُحُد وأهل بيْعة الرضوان، وعلى سائرِ أصحاب نبيّك العدنان. ومن تبعَهُم إلى يوم الدين بإحسانٍ. اللهمّ أنفعنا بمحبّتهم. واحشرنا في زمرتهم. ولا تخالف بنا يا مولانا عن سنّتهم ولا عن طريقتهم. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. يقول الله عزّ وجلّ في سورة العنكبوت: ((الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ)). قال الإمام القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) قال ابن عباس وغيره: يريد بالناس قوما من المؤمنين كانوا بمكة. وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذّبونهم على الإسلام؛ كسَلَمَة بن هشام. وعياش بن أبي ربيعة. والوليد بن الوليد. وعمّار بن ياسر. وياسر أبوه. وسمّية أمّه. وعدّة من بني مخزوم وغيرهم. فكانت صدورهم تضيق لذلك. وربّما استنكر بعضهم أن يمكّن الله الكفار من المؤمنين؛ قال مجاهد

وغيره: فنزلت هذه الآية مسليّة ومعلّمة أنّ هذه هي سيرة الله في عباده المؤمنين اختبارا لهم وفتنة. قال تعالى: ((وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)) بأنواع المِحَن. فمنهم مَنْ كان يوضَع المنشار على رأسه، فيُفْرَق فرقتين، وما يصرفه ذلك عن دينه، ومنهم مَنْ كان يُمشَط بأمشاط الحديد، ومنهم مَنْ كان يُطرَح فى النار، وما يصدّه ذلك عن دينه. ((فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ)) بذلك الإمتحان ((الَّذِينَ صَدَقُوا)) في الإيمان بالثبات، ((وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)) بالرجوع عنه. روى البخاري في صحيحه عن خبّاب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكَوْنا إلى رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فقلنا ألا تستنصِر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ. فقال:((قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)). أيّها المسلمون. هذه سنّة الله في عباده. حتى مع أنبيائه وأصفيائه. كما قال تعالى في سورة فاطر: ((فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا)). من أجل ذلك أوذي رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأوذي مِنْ قبله الأنبياء جميعا والمرسلين. ومن أجل ذلك أيضا أوذي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. لاتّباعهم له، خصوصاً مَنْ ليس له عشيرة تحميه، وتردّ كيد عدوّه عنه، حتى مات منهم مَنْ مات تحت العذاب. وعَمِيَ مَنْ عَمِي. رغم عظيم فضلهم. وجليل قدرهم عند الله عزّ وجلّ. قال ابن إسحاق: ثم إنّ قريشا تذامروا بينهم على مَنْ في القبائل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا، فوثبت كل قبيلة على مَنْ فيها مِنَ المسلمين يعذّبونهم ويفتنونهم عن دينهم. فجعلوا يحبسونهم ويعذّبونهم بالضرب والجوع والعطش. وبرمضاء مكة إذا اشتدّ الحرّ. ممّن استضعفوه منهم، فمنهم مَنْ يُفْتَتَنُ مِنْ شدّة البلاء الذي يصيبهم. ومنهم مَنْ تصلّب لهم ويعصمه الله تعالى. وممّن فُتِنَ عن دينه وثبت عليه ولم يرجع للكفر. سيّدنا بلال بن رباح. كان صادق الإسلام طاهر القلب. وكان رضي الله عنه مملوكا لأميّة بن خَلَف، فكان يَجعَل في عنقه حبلاً ويَدفعه إلى الصبيان يلعبون به، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ. لم يَشْغَلْهُ ما هو فيه عن توحيد الله تعالى. وعن ابن إسحاق: أنّ أميّة بن خلف كان يُخرِج بلالا إذا حَمِيَتِ الظهيرة بعد أنْ يُجيعه ويعطشه يوما وليلة. فيطرحه على ظهْره في الرمضاء. أي الرمل إذا اشتدّت حرارته. لو وُضِعَت عليه قِطْعة لَحْم لنضجت، ثم

يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا، حتى تموت أو تكفر بمحمّد وتعبد اللاّت والعزّى، فيقول: أَحَدٌ أَحَدٌ. أي أنا لا أشرك بالله شيئا، أنا كافر باللاّت والعزّى. حتى مرَّ به أبو بكر يوماً فقال: يا أميّة أما تتّقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى تعذّبه؟ قال: أنت أفسدته فأنقذْه ممّا ترى. فاشتراه منه وأعتقه. فأنزل الله فيه وفي أميّة في سورة الليل. قوله تعالى: ((فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى لاَ يَصْلاَهَآ إِلاَّ الأشْقَى الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الأتْقَى الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لاِحَدٍ عِندَهُ مِن نّعْمَةٍ تُجْزَى إِلاَّ ابْتِغَآء وَجْهِ رَبّهِ الأعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى)). بما يعطيه الله في الأخرى جزاء أعماله. وقد نبّه الله جلّ ذِكْره على أنّ بذْل الصدّيق ماله في شراء بلال وعِتْقه لم يكن إلا ابتغاء وجه ربّه، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً للصدّيق رضي الله عنه وأرضاه، وقد أعتق جماعةً من الأرقّاء أسلموا. ممّن كان يُعَذَّب في الله. منهم حمامة أمّ بلال. ومنهم عامر بن فهيرة، فإنّه كان يُعَذَّب في الله حتى لا يدري ما يقول، ومنهم امرأة تُسمّى زِنّيرة عُذِّبَت في الله حتى عَمِيَتْ فلم يزدها ذلك إلاّ إيماناً، وكان أبو جهل يقول: ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم؟ لو كان ما أتى به محمّد خيراً ما سبقونا إليه. أفتسبقنا زِنيرة إلى رُشْد؟ فأنزل الله في سورة الأحقاف قوله: ((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَاذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ)). أيّها المسلمون. وممّن عُذِّب في الله: عمّار بن ياسر، وأخوه عبد الله، وأبوه ياسِر، وأمّه سميّة، رضي الله عنهم أجمعين. كانوا يُعَذَّبون بالنار. فمرّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((صبراً آل ياسِر فموعدكم الجنّة، اللهمّ اغفر لآل ياسر وقد فعلت)). فمات ياسر في العذاب وأغلظت سمية لأبي جهل فطعنها في قلبها فماتت، ورمي عبد الله فسقط. وأمّا هو فثقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر، فإنّ أبا جهل كان يجعل له دروعاً من الحديد في اليوم الصائف ويلبسه إيّاها، فقال المسلمون: كفر عمّار، فقال عليه الصلاة والسلام: ((عمّارٌ مُلِىءَ إيماناً من فَرْقه إلى قدمه)). وأنزل الله في شأنه استثناءً في حكم المرتدّ، قوله جلّ ذكره في سورة النحل: ((مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمَانِ وَلَاكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)). وروى البيهقي عن مجاهد قال: أوّل مَنْ أظهر الإسلام: أبو بكر وبلال وخبّاب وصهيب وعمّار، فأمّا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمّه. وأمّا أبو بكر فمنعه قومه، وأمّا الآخرون فألبسوا دروع الحديد وصهّروا في الشمس حتى بلغ الجَهْد منهم، وجاء أبو جهل إلى سميّة فطعنها في قلبها فهي أوّل

شهيدة في الإسلام. وبالجملة فلم يخل أحد من المسلمين من أَذِيّةٍ لحقته، ولكن كل ذلك ضاع سُدًى تلقاء ثباتهم وعظيم إيمانهم، فإنّهم لم يسلموا لغرض دنيوي يرجون حصوله فيسهل إرجاعهم، ولكن وفّقهم الله لإدراك حقيقة الإيمان. فرأوا كل شيء دونه سهلاً. وقد أشار الشيخ النبهاني رحمه الله في قصيدته طيبة الغراء في مدح سيّد الأنبياء إلى بعض هذا فقال:

ثمّ لمّا تَظاهروا لقريشٍ * حينَ زالَ الخفاء زاد الجفاءُ

نوَّعوا فيهمُ العذابَ وكانت مِن لَظاهم بالأبطح الرمضاءُ

لَهفَ قَلبي على بلالٍ فقد صُـ*ــــبَّ عليهِ وفاض عنه البلاءُ

لَهف قلبي على الوليّ أَبي اليقـ*ــظان إذا آل ياسرٍ أُسَراءُ

لهفَ قَلبي على الجميعِ وما ينـ*ــفعُ لَهفي وما يفيد البكاءُ

رَحمةُ اللَّه صاحَبَت خير صحبٍ * حينَ عزّت في مكّة الرحماءُ

أَحسنَ اللَّه صَبرهم فِاستلذّوا * بِالبَلايا وخفّت اللأواءُ

وَلهَذا تحمّلوا ما الجبال الشـ*ــــمُّ عَن حمْلِ بعضه ضعفاءُ

أيّها المسلمون. وخلال هذا الجوّ الملبّد بغيوم الظلم والعدوان. أضاء برق. كان أشدّ بريقًا وإضاءة. ألا وهو إسلام الشهم الهمام. سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أسلم في ذي الحجّة سنة ستّ من النبوّة. بعد ثلاثة أيام من إسلام سيّدنا حمزة رضي الله عنه. وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد دعا الله تعالى لإسلامه. فقد أخرج الترمذي عن ابن عمر، وصحّحه، وأخرج الطبراني عن ابن مسعود وأنس رضي الله عنهم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: ((اللهم أعزّ الإسلام بأحبّ الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام)). فكان أحبّهما إلى الله عمر رضي الله عنه. وقد حقّق الله بإسلامه ما رجاه عليه الصلاة والسلام، ذكر أهل السِّيَر في سبب إسلامه. أنّه لمّا علم بإسلام أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد. دخل عليهما وعندهما خبّاب بن الأرت معه صحيفة فيها سورة طه، يُقرِئْهما إيّاها، فضرب أخته وزوجها، ثم ندم وقال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه. فقالت أخته: إنّك رجس. ولا يمسّه إلاّ المطهّرون، فقام فاغتسل، ثم قرأ: بسم الله

الرحمن الرحيم، فقال: أسماء طيّبة طاهرة، فقرأ: ((طه)). إلى قوله: ((إِنَّنِي أَنَا ٱللَّهُ لا إِلَٰهَ إلا أَنَاْ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي)). فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، دلوني على محمد، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم انطلق حتى أتى دار الأرقم فضرب الباب فرآه رجلٌ من خلل الباب فاستجمع القوم فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر، فقال: وعمر! افتحوا له الباب، فإن جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرًا قتلناه بسيفه، فدخل فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجامع ثوبه وحمائل سيفه ثم جذبه جذبة شديدة فقال: ((أما أنت منتهيًا يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة، اللهم هذا عمر، اللهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب)) فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وأسلم فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من رواية البخاري: ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر. وقال أيضاً: كان إسلام عمر فتحاً، وهجرته نصراً، وإمارته رحمةً، واللَّهِ ما استطعنا أن نُصلّي حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر، فلمّا أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا نصلي. فقد كان رضي الله عنه ذا شكيمة لا يرام، وقد أثار إسلامه ضجّة بين المشركين، وشعورا لهم بالذّلّة والهوان، وكسا المسلمين عزّة وشرفًا وسرورًا. وعن صهيب الرومي رضي الله عنه قال: لمّا أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعى إليه علانية، وجلسنا حول البيت حِلَقًا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممّن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به. وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سألت عمر بن الخطاب: لأيّ شيء سمّيت الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيّام. ثم قصّ عليه قصّة إسلامه. وقال في آخره: قلت أي حين أسلمت: يا رسول الله ، ألسنا على الحقّ إن متنا وإن حيينا؟ قال: ((بلى، والذي نفسي بيده، إنّكم على الحقّ وإن متّم وإن حييتم))، قال: قلت: ففيم الإختفاء؟ والذي بعثك بالحقّ لنخرجنّ، فأخرجناه في صفَّيْن، حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر، له كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت إليّ قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسمّاني رسول الله صلى الله عليه وسلم (الفاروق) يومئذ. وروى ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمّا أسلم عمر نزل جبريل فقال: يا محمّد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر. يقول الإمام البوصيري رحمه الله في همزيّته متوسّلا بسيّدنا عمر رضي الله عنه:

وَأَبِي حَفْصٍ الذِي أَظْهَر اللَّـ*ــهُ بِهِ الدِّينَ فَارْعَوَى الرُّقَبَاءُ

وَالذِي تَقْرُبُ الأَبَاعِدُ فِي اللّــ*ــهِ إِلَيْهِ وَتَبْعُدُ الْقُرَبَاءُ

عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مَنْ قَوْلُهُ الْفَصْ*ــلُ وَمَنْ حُكْمُهُ السَّوِيُّ السَّواءُ

فَرَّ مِنْهُ الشَّيْطَانُ إِذْ كَانَ فَارُو * قاً فَلِلنَّارِ مِنْ سَنَاهُ انْبِرَاءُ

وهكذا فلله جند يعزّ بهم دينه، ويرفع بهم لواءه، وينصر أولياءه، فهم سيف الإسلام وترسه. فرضي الله عنهم وأرضاهم. ونفعنا بمحبّتهم يوم العرض والوقوف. وجعلنا ممّن اقتفى أثرهم السَّنِيّ ونهجهم المألوف. اللهم وانظمنا في سلك عقد حزبهم وزمرتهم. وامنحنا خيرهم ومعروفهم ومودّتهم. وانفعنا بهم نفعا يكون لنا عندك ذخيرة وكنزا. وشرفا بين أوليائك المحبّين وعزّا. ومأمنا من آفات الدنيا وهمومها وحرزا. وفي مواقف يوم القيامة نجاة لنا وفوزا. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

16- إذنُ النبيّ لأصحابه بالهجرة إلى أرض الأحباش وكفايةُ الله له من المستهزئين به من الكفّار الأوباش

الحمد لله ربِّ العالمين، يُعِزُّ مَن أطاعه واتّبع رسوله ولو كان عبداً حبشيّاً، ويُذِلُّ مَنْ خالف أمره واتّبع هواه ولو كان شريفاً قرشيّاً. سبحانه مَن استند إليه في جميع أموره كفاه. ومَن انتسب إليه ضمّه إلى جنابه العليّ وآواه. ومَن اعتصم به عصمه وأنجاه، ومَن أحبّه غرس له المحبّة والوِداد، ومَن أرضاه رضي عنه وأرضى عنه العباد، ومَن أسخطه أسخط عليه الحاضر والباد، وأشهد أن لا إله إلاّ الله. وحده لا شريك له. النصير لِمَن نصر شرعه. والمعزّ لِمَن أعزّ دينه وأمْره، والقاهر فوق كلّ شيء قهره، ينصر رسله والصالحين من عباده في كل وقت وحين. يمدّهم بمدده. ويذود عنهم بجنده، ويفتح بهم ولهم الفتح المبين. وأشهد أنّ سيّدنا محمّداً عبده ورسوله. وصفيه من خلقه وخليله. ملأ قلبَه بحبّ الله. وجعل حياته كلّها لدعوة الله. وأخلاقه في كلّ أحواله على منهج كتاب الله. ولم يَمِلْ طرفة عين أو أقل إلى مباهج هذه الحياة. شغلاً بخالقه ومولاه. فعصمه الله من الناس. وطهّره من الوسواس والأرجاس. وأعلى شأنه. ورفع ذكره في الدنيا. ويوم لقاء ربّ الناس.

هذا نبيّ كريم حبّه شرفُ * وجاهه ملجأ للمرتجي كنفُ

أوصافه أعجزت وصف الذي يصفُ * يا مؤمنين بعلاّم الخفيّاتِ

صلّوا على المصطفى بحر الكراماتِ

اللهمّ صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمّد. الذي بجاهه تُنال المقاصد والمطالب. وعلى آله الطيّبين العناصر والمكاسب. وصحابته النجوم الثواقب. صلاة تنجينا بها من المهالك والمعاطب. وتريحنا بها من المشاقّ والمتاعب. وتدفع بها عنّا هواجم الفتن المفضعة وجميع المصائب. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. يقول الله عزّ وجلّ في سورة النحل: ((وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)). قال الشيخ إسماعيل حقّي في تفسيره (روح البيان): أي الذين هاجروا في شأن الله ورضاه. وفي حقّه وفي التمكين من طاعته ولوجهه. ((مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا)) هم الذين ظلمهم أهل مكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأخرجوهم من ديارهم. فهاجروا إلى الحبشة. ثم إلى المدينة المنوّرة. فجمعوا بين الهجرتين. قال ابن عطيّة في تفسيره (المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز): نزلت فى الذين هاجروا إلى أرض الحبشة. لأنّ الآية مكيّة، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح في سبب الآية، ففي ظلّ تلك الظروف التي يعاني منها المسلمون، من اضطهاد وتضييق وخناق. أخذوا يبحثون عن مكان آمن يلجؤون إليه، ويتخلّصون به من عذاب المشركين واضطهادهم. نزلت سورة الكهف، تلك السورة التي أخبرت بقصّة الفتية الذين فرّوا بدينهم من ظلم مَلِكِهم، وأووا إلى كهف يحتمون به ممّا يراد بهم، كان في هذه القصّة تسلية للمؤمنين، وإرشاداً لهم إلى الطريق الذي ينبغي عليهم أن يسلكوه للخروج ممّا هم فيه. لقد عرضت قصّة أصحاب الكهف نموذجاً للإيمان في النفوس المخلصة، كيف تطمئنّ به، وتؤثره على زينة الحياة الدنيا ومتاعها، وكيف أنّ الله تعالى يرعى هذه النفوس المؤمنة ويقيها الفتنة، ويشملها برحمته ورعايته. قالتعالى في سورة الكهف: ((وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً)). لقد وضّحت هذه القصّة للمؤمنين طريق الحقّ والباطل، وبيّنت أنّه لا سبيل للإلتقاء بينهما بحال من الأحوال، وإنّما هي المفاصلة والفرار بالدين والعقيدة، وانطلاقاً من هذه الرؤية القرآنية أمر النبيّ

صلى الله عليه وسلم المسلمين المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة، وكانت هذه الهجرة في شهر رجب سنة خمس من البعثة. ذكر ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية) عن ابن إسحاق قال: فلمّا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ممّا يصيب أصحابه من البلاء. وما هو فيه من العافية من الله تعالى ثم من عمّه أبي طالب، وأنّه لا يقدر على أن يمنعهم ممّا هم فيه من البلاء. قال لهم: ((لو خرجتم إلى أرض الحبشة. فإنّ بها مَلِكا لا يُظْلَم عنده أَحَدٌ وهي أرض صِدْق، حتى يجعل الله تعالى لكم فَرَجا مما أنتم فيه)). فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة. وفرارا إلى الله تعالى بدينهم. فكانت أوّل هجرة كانت في الإسلام. فقد جاء في الحديث الشريف عنه صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإنْ كان شِبْرا من الأرض استوجب له الجنّة، وكان رفيق أبيه إبراهيم خليل الله عليه السلام ونبيّه محمّد صلى الله عليه وسلم)). وهكذا هاجر أوّل فوج من الصحابة إلى الحبشة وكان مكوّناً من اثني عشر رجلاً و أربع نسوة، كان في مقدّمتهم سيّدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومعه زوجته السيّدة رقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رحيلهم تسلّلاً تحت جنح الظلام حتى لا تشعر بهم قريش، فخرجوا إلى البحر عن طريق جدّة، وفي الحبشة وجدوا الأمن والأمان، ولقوا الحفاوة والإكرام من ملكها النجاشي. الذي كان لا يُظلَم عنده أحد، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم. واستطاعوا بصدقهم وصبرهم وتوفيق الله لهم أن يُدخِلوا الآخرين في الإسلام، ولو لم يكن من آثار هجرتهم إلا إسلام النجاشي مَلِك الحبشة لكان ذلك كافياً وأثراً عظيماً، وقد أكرمه الله تعالى بأن صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الغائب حين مات في أرض الحبشة. ولم ير الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يره الرسول صلى الله عليه وسلم. أيّها المسلمون. وبرغم ارتياح المهاجرين بالحبشة وطمأنينتهم. وفي ظروف الفتن تروج الشائعات، ولم يَطُلْ مُكْث المسلمين بالحبشة حتى بلغهم أنّ قريشاً قد أسلمت، فرجعت طائفة منهم إلى مكة. ولكنّهم أدركوا حين اقتربوا من مكة أنّ الخبر كاذب. وأنّ قريشاً أشدّ في أذاها بعد هجرتهم، ولم يستطع أحد من هؤلاء العائدين من الحبشة أن يدخل مكة إلا بإجارة أي كفالة أحد المشركين، قال ابن سعد في طبقاته: لما قدم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مكة من الهجرة الأولى. اشتدّ عليهم قومهم. وسطت بهم عشائرهم. ولقوا منهم أذى شديدا. فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى أرض الحبشة مرّة

ثانية، فكانت خرجتهم الثانية أعظمها مشقّة، ولقوا من قريش تعنيفا شديدا. ونالوهم بالأذى. واشتدّ عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره لهم، وكان عدّة مَنْ خرج في هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين. ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشيّة. وسبع غرائب. وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب وزوجه أسماء بنت عُمَيْس. ولمّا رأتْ قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص وعُمارة بن الوليد بهدايا إلى النجاشي ليُسَلِّم المسلمين، فرجعا شَرَّ رجعة، ولم ينالا من النجاشي إلا إهانة لِمَا خاطبوه به من إخفار ذمّته في قوم لاذوا به. أيّها المسلمون. ولمّا أخفق المشركون في مكيدتهم، وفشلوا في استرداد المهاجرين. استشاطوا غضبًا، وكادوا يتميّزون غيظًا، فاشتدّت ضراوتهم وانقضوا على بقيّة المسلمين، ومدّوا أيديهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوء، وظهرت منهم تصرّفات تدلّ على أنّهم أرادوا القضاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ليستأصلوا جذور الفتنة التي أقضّت مضاجعهم، حسب زعمهم. ومن بين هذه التّصرّفات: أسلوب السخرية والتحقير، والإستهزاء والتكذيب والتضحيك. قصدوا بها تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبي صلى الله عليه وسلم بتهم هازلة، وشتائم سفيهة، فكانوا ينادونه بالمجنون. قال تعالى في سورة الحجر حاكيا عنهم: ((وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)). وتولّى الله الرّدّ على هذه الفرية. مثبّتاً رسوله صلى الله عليه وسلم. فقال في سورة سبأ: ((قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)). وكانوا يصمونه بالسحر والكذب. قال تعالى في سورة ص: ((وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)). ولكنّ الله ردّ عليهم فقال في سورة الذاريات: ((كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)). واتّهموه صلى الله عليه وسلم بأنّه يقول الشعر، وأنّ هذا القرآن إنّما هو شعر، قال تعالى حاكيا عن حالهم في سورة الأنبياء: ((بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ)). وقال الله عنهم في سورة الطور: ((أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ)). إنّهم ينتظرون نهايته، وينتظرون موته حتى تُدفن دعوتُه في مهدها، ولا تقوم لها قائمة، ولكنّ الله سبحانه وتعالى تولّى الرّدّ عليهم، وتثبيت نبيّه صلى الله عليه وسلم. فقال في سورة الحاقّة: ((فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ)). وكانوا يشيّعونه ويستقبلونه بنظرات ملتهمة ناقمة، وعواطف منفعلة هائجة. قال تعالى في

سورة القلم واصفا حالهم هذا: ((وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)). وكان إذا جلس صلى الله عليه وسلم وحوله المستضعفون من أصحابه. استهزأوا بهم. قال تعالى في سورة الأنعام حاكيا عنهم: ((وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)). وكانوا كما قصّ الله علينا في سورة المطفّفين: ((إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَاكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ)). كما استخدم أهل مكة المعارضون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أسلوب التحدّي والإعجاز لمحاربته والطعن في شخصيّته. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اجتمع المشركون على رسول الله، فقالوا: إنْ كنت صادقا فشقّ لنا القمر فرقتين، فقال لهم رسول الله: إنّ فعلتُ تؤمنوا؟ قالوا: نعم، فسأل رسول الله ربّه أنْ يعطِيَه ما سألوا، فانشقّ القمر نصفا على أبي قُبَيْس ونصفا على قُعَيْقِعَان. فقال رسول الله: ((اشهدوا اشهدوا)). وعند ذلك قال أبو جهل: هذا سحر، فاسألوا أهل الآفاق حتى تنظروا هل رأوا ذلك أم لا؟ فأخبروهم أنّهم رأوه منشقّا، فعند ذلك قالوا هذا سحر مستمرّ. فأنزل الله تعالى قوله في سورة القمر: ((اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)). وإلى انشقاق القمر أشار صاحب الهمزية الإمام البوصيري رحمه الله تعالى بقوله:

شُقَّ عَنْ صَدْرِهِ وَشُقَّ لَهُ الْبَدْ * رُ وَمِنْ شَرْطِ كُلِّ شَرْطٍ جَزَاءُ

وأيضا لم يسألوا ما سألوا من تلك الآيات إلا تعنّتا واستهزاء، لا على جهة الإسترشاد ودفع الشّكّ، قال أبو جهل: تزاحمنا نحن وبنو عبد المطلّب الشرف، حتى صِرْنا كَفَرَسَيْ رِهان. قالوا: منّا نبي يوحى إليه، واللهِ لا نرضى به ولا نتّبعه أبدا. إلاّ أن يأتينا وحي كما يأتيه، فنزل قوله تعالى في سورة الأنعام: ((وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِن حَتَّى نُؤْتَى مِثْل مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ)). وإلى هذا أشار الإمام البوصيري في همزيّته بقوله:

عَجَباً لِلْكُفَّارِ زَادُوا ضَلاَلاً * بِالذِي فِيهِ لِلْعُقُولِ اهْتِدَاءُ

والذِي يَسْأَلُونَ مِنْهُ كِتَابٌ * مُنْزَلٌ قَدْ أَتَاهُمُ وَارْتِقَاءُ

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ مِنَ اللهِ ذِكْرٌ * فِيهِ لِلنَّاسِ رَحْمَةٌ وَشِفَاءُ

أَعْجَزَ الإِنْسَ آيَةٌ مِنْهُ وَالْجِـ*ـــنَّ فَهَلاَّ تَأْتِي بِهَا الْبُلَغَاءُ

كُلَّ يَوْمٍ يُهْدَي إِلَى سَامِعِيهِ * مُعْجِزَاتٌ مِنْ لَفْظِهِ الْقُرَّاءُ

تَتَحَلَّى بِهِ الْمَسَامِعُ والأَفْـ*ــوَاهُ فَهْوَ الْحُلِيُّ وَالْحَلْوَاءُ

رَقَّ لَفْظاً وَرَاقَ مَعْنىً فَجَاءَتْ * فِي حُلاَهَا وَحَلْيِهَا الْخَنْسَاءُ

وَأَرَتْنَا فِيهِ غَوَامِضَ فَضْلٍ * رِقَّةٌ مِنْ زُلاَلِهَا وَصَفَاءُ

إِنَّمَا تُجْتَلَى الْوُجُوهُ إِذَا مَا * جُلِيَتْ عَنْ مِرْآتِهَا الأَصْدَاءُ

سُوَرٌ مِنْهُ أَشْبَهَتْ صُوَراً مِـ*ـنَّا وَمِثْلُ النَّظَائِرِ النُّظَرَاءُ

وَالأَقَاوِيلُ عِنْدُهُمْ كَالتَّمَاثِيـ*ــلِ فَلاَ يُوهِمَنَّكَ الْخُطَبَاءُ

كَمْ أَبَانَتْ آيَاتُهُ مِنْ عُلُومٍ * عَنْ حُرُوفٍ أَبَانَ عَنْهَا الْهِجَاءُ

فَهْيَ كَالْحَبِّ وَالنَّوَى أَعْجَبَ الزُّ * رَّاعَ مِنْهُ سَنَابِلٌ وَزَكَاءُ

فَأَطَالُوا فِيهِ التَّرَدُّدَ والرَّيْـ*ــبَ فَقَالُوا سِحْرٌ وَقَالُوا افْتِرَاءُ

وَإِذَا الْبَيِّنَاتُ لَمْ تُغْنِ شَيْئاً * فَالْتِمَاسُ الْهُدَى بِهِنَّ عَنَاءُ

وَإِذَا ضَلَّتِ الْعُقُولُ عَلَى عِلْـ*ــمٍ فَمَاذَا تَقُولُهُ النُّصَحَاءُ

كما أنّهم أكثروا من السخرية والإستهزاء. وزادوا من الطعن والتضحيك شيئًا فشيئًا. كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ((وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ)). حتى أثّر ذلك في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قال الله تعالى في سورة الحجر: ((وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)). ثم ثبّته الله تعالى وأمره بما يذهب بهذا الضيق. فقال سبحانه في سورة الحجر: ((فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)). أيّها المسلمون. وممّا استهزىء به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء في السيرة الحلبية: أنّ أبا جهل ابتاع من شخص يقال له الإراشي أجمالا. فمطله بأثمانها، فدلّته قريش على النبيّ صلى الله عليه وسلم لينصفه من أبي جهل استهزاء برسول الله، لعلمهم بأنّه لا قدرة له على أبي جهل. بعد أن وقف على ناديهم فقال: يا معشر قريش من رجل يعينني على أبي الحكم

فإنّي غريب وابن سبيل، وقد غلبني علي حقّي، فقالوا له: أترى ذلك الرجل؟ يعنون رسول الله، إذهب إليه فهو يعينك عليه، فجاء إلى رسول الله، فذكر له حاله مع أبي جهل ـ أي قال له: يا أبا عبد الله إنّ أبا الحكم قد غلبني على حقّ لي قِبَلَهُ وأنا غريب وابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لي بحقّي منه فأشاروا إليك، فخذ حقّي منه يرحمك الله ـ فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم مع الرجل إلى أبي جهل. وضرب عليه بابه، فقال: مَنْ هذا؟ قال: محمد، فخرج إليه وقد انتقع لونه. فقال له: أعط هذا حقّه، قال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدفعه إليه. قال: ثم إنّ الرجل أقبل حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيرا يعني النبي صلى الله عليه وسلم. فقد والله أخذ لي بحقّي، وقد كانوا أرسلوا رجلا ممّن كان معهم خلف النبيّ وقالوا له: انظر ماذا يصنع؟ فقالوا لذلك الرجل: ماذا رأيت؟ قال: رأيت عجبا من العجب، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه. فقال: أعط هذا حقّه، فقال نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقّه، فدخل فخرج إليه بحقّه فأعطاه إليه، فعند ذلك قالوا لأبي جهل: ويلك ما رأينا مثل ما صنعت، قال: ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابي وسمعت صوته فملئت رعبا، ثم خرجت إليه وإنّ فوق رأسي فحلا من الإبل ما رأيت مثله قط، لو أبيت أو تأخّرت لأكلني. وإلى هذه القصّة أشار صاحب الهمزية الإمام البوصيري رحمه الله تعالى بقوله :

وَاقْتَضَاهُ النَّبِيُّ دَيْنَ الْإِرَاشِيِّ * وَقَدْ سَاءَ بَيْعُهُ وَالشِّرَاءُ

وَرَأَى الْمُصْطَفَى أَتَاهُ بِمَا لَمْ * يُنْجِ مِنْهُ دُونَ الْوَفَاءِ النَّجَاءُ

هُوَ مَا قَدْ رَآهُ مِنْ قَبْلُ لَكِنْ * مَا عَلَى مِثْلِهِ يُعَدُّ الْخَطَاءُ

وقد أخبر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم من قبل أنّه يكفيه هؤلاء المستهزئين. حيث قال له في سورة الحجر: ((إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلـهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ)). وأخبره أنّ فعلهم هذا سوف ينقلب وبالًا عليهم. فقال سبحانه في سورة الأنعام: ((وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ)). وقد وضع الله جلّ ذِكْره الوعد في صورة الماضي للتحقّق من وقوعه. وكل هؤلاء المستهزئين انتقم الله منهم. فمنهم من قُتِل كأبي جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط. ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة فهلك منها. كأبي لهب والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة ومنهم من عمي

كالأسود بن المطلّب. وقد أشار الإمام البوصيري في همزيّته إلى ما وقع لهؤلاء المستهزئين بقوله:

وَكَفَاهُ الْمُسْتَهْزِئِينَ وَكَمْ سَا * ءَ نَبِيّاً مِنْ قَوْمِهِ اسْتِهْزَاءُ

وَرَمَاهُمْ بِدَعْوَةٍ مِنْ فِنَاءِ * الْبَيْتِ فِيهَا لِلظَّالِمِينَ فَنَاءُ

خَمْسَةٌ كُلُّهُمْ أُصِيبُوا بِدَاءٍ * والرَّدَى مِنْ جُنُودِهِ الأَدْوَاءُ

فَدَهَى الأَسْوَدَ بْنَ مُطَّلِبٍ * أَيُّ عَمىً مَيِّتٌ بِهِ الأَحْيَاءُ

وَدَهَى الأَسْوَدَ بْنَ عَبْدِ يَغُوثٍ * أَنْ سَقَاهُ كَأْسَ الرَّدَى اسْتِسْقَاءُ

وَأَصَابَ الْوَلِيدَ خَدْشَةُ سَهْمٍ * قَصَّرَتْ عَنْهَا الْحَيَّةُ الرَّقْطَاءُ

وَقَضَتْ شَوْكَةٌ عَلَى مُهْجَةِ الْعَا * صِي فَلِلَّهِ النَّقْعَةُ الشَّوْكَاءُ

وعَلَى الحارِثِ الْقُيُوحُ وَقَدْ سَا * لَ بِهَا رَأْسُهُ وَسَاءَ الْوِعَاءُ

خَمْسَةٌ طُهِرَتْ بِقَطْعِهِمُ الأَرْ * ضُ فَكَفُّ الأَذَى بِهِمْ شَلاَّءُ

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: أنّ هؤلاء الخمسة هُلِكوا في ليلة واحدة، فعُلِم أنّ هؤلاء هم المرادون بقوله تعالى في سورة الحجر: ((إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)). وإنْ كان المستهزئون غير منحصرين فيهم. أيّها المسلمون. إنّ الإنسان ليزداد محبّة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإكباراً وإجلالاً له؛ حين يرى في سيرته من صبره وتحمّله على الأذى، من أجل شيء واحد: وهو تبليغ رسالة ربّه إلى الناس أجمعين، صلى الله عليه وسلم. وشرّف وكرّم. ومجّد وعظّم. ووالى عليه ذلك وأنعم. وارض اللهم عن الخلفاء الراشدين، ساداتنا وموالينا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وعن سائر أصحاب نبيّك أجمعين، وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وارض اللهم عنّا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين، اللهم أعزّ الإسلام والمسلمين، وأذلّ الشرك والمشركين. اللهم اجعل هذه البلاد آمنة مطمئنّة رخاءً سخاءً وسائر بلاد المسلمين. اللهم آمنّا في أوطاننا، وأصلح اللهم وُلاّة أمورنا، ووفّقهم لما تحبّ وترضى، وخذ بناصيتهم للبرّ والتقوى، اللهم اجعلهم من الهداة المهتدين، اللهم انصر بهم دينك، وأعْلِ بهم كلمتك، اللهم أعنهم على أمور الدنيا والدين. ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من

الخاسرين، اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجِرْنا من خِزْيِ الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم يا مقلّب القلوب ثبّت قلوبنا على دينك وطاعتك، اللهم واجعلنا من دعاتك وجندك، اللَّهُمَّ واجْعَلْ لَنا مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً، وَمِنْ كُلِّ بَلاَءٍ عَافِيَةً. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

17- حِصَارُ المشركين للنبيِّ وقَوْمِه في شِعْبِ أبي طالب ونُصْرَةُ اللهِ لهم بتأييده القويّ الغالب

الحمد لله ناصرِ الحقِّ ولو بعْد حين. وموهِن كيد الجبابرة الظالمين. وجابر صَدْع المستضعَفين البائسين. أمر بالصبر. وحطّ بتحمّله الوِزْر. ورفع به القَدْر. فسبحانه من إلهٍ وَعَد بنصْر مَنْ نَصَره. وهدى بفضله إلى العمل الصالح ويسّره. ورفع درجات مَنْ خاف مقام ربّه وحذّره. وصبر على الشدائد فحمِدَه وشَكَره. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. شرح صدور ذوي الإيمان للهدى. ونَكَت في قلوب أولي الطغيان فلا تعي الحكمة أبدا. فقال سبحانه في سورة الكهف: ((مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا)). وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. أرسله بالحقّ نورا يتلالا. وغيثا يتوالى. وأيّده بصِحابٍ نصروا دينه حتى عاد إليه مَنْ كان أعرض عنه جَهْلا. ورفع به منار الحقّ وأعلا. وكشف غياهب الباطل وأجلى. وبلّغ ما أمره به ربّه حتى انتظم لأهل الإسلام بالإيمان شملا. ونكّس أعلامَ الكفر فليس لهم في أعمال الصالحين فعلا.

يا أيّها الناس هذا سيِّدُ الأُمَمِ * هذا النبيُّ الرفيعُ القَدْرِ والقِدَمِ

هذا محمّد بحرُ الجودِ والكَرَمِ * يا أمّةً لنبيٍّ نورُه سطعا

صلّوا على المصطفى يا كلَّ مَنْ سَمِعا

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّنا محمّد. المخصوص بالسيادة والإمامة. وعلى آله الذين أجريتَ على أيديهم خوارق العادات وبواهر الكرامة. وصحابته الذين جعلتَ لهم نُصْرةَ دينك القويم شعارا وعلامة. صلاة تنظمنا بها في سِلْك أهل الهدى

والإستقامة. وتصحبنا حمايتها في الرحيل والإقامة. وتجعلها لنا في الشدائد والأزمات أمنع دِرْعٍ ولامة. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين.
أمّا بعد: فيا أيّها المسلمون. يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)). قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: أُمِروا أن يصبِروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم. وهو الإسلام، فلا يَدعوه لسرّاء ولا لضرّاء، ولا لشدّة ولا لرخاء. حتى يموتوا مسلمين، وأن يُصابِروا الأعداء الذين يكتمون دينهم. كما أنّ الدين شطران: شطر للشكر. وشطر للصبر، وهما مظهران لتديّن المسلم. وصلته بالله تعالى، إمّا بعبودية السرّاء التي تقتضي الشكر، أو عبوديّة الضرّاء وتقتضي الصبر. وبين الشكر والصبر تتجلّى حقيقة المؤمنين الصادقين. قال تعالى في سورة لقمان: ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)). أيّها المسلمون. مَنْ طالع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم واستعرض مراحل حياته؛ وجد أنه حُمِّل أعظم دعوة وأثقلها، فأدّاها صلى الله عليه وسلم وبلّغها، وتحمّل شدّة الحياة وشظفها، وصبر على كدرها ومُرِّها، حتى لقي الله ربّه؛ وذلك أنّ الله تعالى أمره بالصبر الجميل. الذي لا سخط فيه ولا شكاية. فقال له في سورة المعارج: ((فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا)). لقد أوذي صلى الله عليه وسلم في الله تعالى أشدّ الأذى. منذ أن أظهر دعوته، وبالأخصّ بعد إسلام عمّه سيّدنا حمزة بن عبد المطّلب وسيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، اللذين قَلَّبَا موازين القوّة، وأصبح المشركون بعدها يضربون للفئة المستضعَفة حسابات أخرى. وما استتبع ذلك أيضا من نجاح الدعوة ببلاد الحبشة. والفشل الذريع الذي لحق قريش في محاولة استرداد المهاجرين. فطاش منها صوابها. واضطربت حبالها. واشتعلت أفران الحمم في صدورها، وأجمعت قريش أمرها على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فبلغ ذلك أبا طالب عمّ النبي صلى الله عليه وسلم. فجمع بني هاشم مؤمنهم وكافرهم، وأخبرهم بمكيدة قريش، فتحرّكت فيهم حميَّة الدّمّ والنسب، فقرَّروا أن ينحازوا بالنبي في شِعْب بمكة. يقال له: شِعْب أبي طالب، وانحاز معهم حميَّةً أيضًا بنو المطلب بن عبد مناف. وعندها أيقن المشركون أنّ التعرّض لشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بالإيذاء أو القتل. سيؤدّي إلى أودية من الدم. تُبادُ خلالها مُعْظَم بطون قريش، فقرّر المشركون الوصول بمواجهة الدعوة الإسلامية لأعلى درجة وأعلى مستوى، وهو مستوى الحصار العام. والمقاطعة الشاملة. أو بلغة العصر حرب إبادة كاملة. وكان دخولهم الشعب هلال المحرّم سنة

سبع من النبوّة، روى ابن إسحاق في السيرة بسند صحيح عن الزهري: فلمّا عرفتْ قريش أنّ القوم قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجمعوا على ذلك، اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلّموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً، ولا يأخذهم بهم رأفة حتى يسلّموه للقتل، فلبث بنو هاشم في شِعْبهم ثلاث سنين، واشتدّ عليهم البلاء والجهد وقطعوا عنهم الأسواق؛ فلم يتركوا طعاماً يقدم مكة ولا بيعاً إلا بادروهم إليه فاشتروه دونهم. أمّا أبو طالب عمّ النبي صلى الله عليه وسلم فقد وقف موقفا عظيما شريفا في حماية النبي صلى الله عليه وسلم. كان يبيت الليل مستيقظا، يحمل سلاحه، ويطوف في الشِّعْب مع جماعة من بني هاشم، ثم ينامون النهار، وكان أبو طالب يأمر حمزة والعباس أن يُرابِطا على مدخل الشِّعب ليرصدا تحرّكات المشركين، خوفا من غدرهم أو غيلة تستهدف حياة ابن أخيه، بل بلغ من خوفه وحرصه على حياة النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينام على فراشه. ويأمر أحد بنيه أن ينام مكان النبي صلى الله عليه وسلم. وكان الذي تولّى كتابة الصحيفة الظالمة: منصور بن عكرمة. فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشلّت يده. وصار عبرة للعالمين، وكان الإستثناء الوحيد من بني هاشم وبني المطلب هو أبو لهب حيث ظاهر قريش على عشيرته. أيّها المسلمون. مع ما أصاب المسلمين من الجهد والبلاء في الشِّعب إلا أن هذا البلاء لم يكن شرًا محضًا، بل كان يحمل في طياته من الخيرية للدعوة المحمدية ما لا يدركه البشر بعقولهم، فمع ما في هذا البلاء من رفعة الدرجات وتكفير السيئات لأهل الإيمان إلا أن هذه المقاطعة والتجويع القهري كانت حدثًا إعلاميا تسامَع له العرب، وتساءلوا عن سبب هذه المحاصرة الاقتصادية والتي أخرجت قريشا عن رشدها ووقارها، فجعل العرب في غير مكة يتلقّطون أخبار هذا النبي ويتلهّفون لمعرفة حقيقة دعوته، فكان ذلك الحصار سببا في أن تخرج الدعوة المحمدية من إقليمية مكة إلى عالمية الجزيرة العربية آنذاك. وفي الشِّعْب وُلِد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ومرّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَنْ معه في الشِّعْب محاصَرين ثلاث سنوات كاملة. قاسوا خلالها مِنْ ويلات الحصار ما لم تشهده العرب ولا الإنسانية من قبل. وبلغ بالناس من الخماصة شيئًا لا يكاد يصدَّق. حتى أكلوا كلّ ما يمكن أكله. ولعلّ موقفا واحدا يصوّر لنا شيئا من حالة الجوع التي

عانى منها النبي صلى الله عليه وسلم ومَنْ معه من المحصورين، فها هو سعد بن عبادة بن أبي وقاص يذكر لنا موقفا لا ينساه في الشِّعب، فيقول: (خرجتُ ذات يوم ونحن في الشعب لأقضي حاجتي، فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا هي قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذتها فغسلتها، ثم أحرقتها، ثم رضضتها وسففتها بالماء، فتقوّيت بها ثلاث ليال). يحدث هذا في الشِّعب وأهل مكة مقيمون في ديارهم مطمئنّون منعّمون. والمسلمون يستعينون على مدافعة ذلك القَدَر الإلهي بالصبر والمصابرة. وانتظار الفرج من الله تعالى، حتى قيّض الله عزّ وجلّ مِنْ مشركي مكة أنفسهم خمسة من أشراف قريش يطالِبون بنقض هذه الصحيفة الظالمة الجائرة، وهم: هشام بن عمرو، وهو أعظمهم في ذلك بلاءً، وزهير بن أبي أمية المخزومي ابن عمّة الرسول صلى الله عليه وسلم السيّدة عاتكة، والمُطْعِم بن عديّ، وأبو البُخْتُريّ بن هشام، وزمْعَة بن الأسود، واتّفقوا على ذلك ليلاً، وإضافة للجهد البشري المبذول في فكّ الحصار من بعض عقلاء قريش. كانت صحيفة المقاطعة على مَوْعد مع معجزة إلهيّة تجلّت فيها قدرة الله عزّ وجلّ وحكمته. في نقد تلك الصحيفة. وفي ذلك الوقت تحديداً؛ فقد أخرج ابن هشام في سيرته: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي طالب: ((يا عمّ. إنّ الله قد سلّط الأَرْضَة على صحيفة قريش. وهي سوسة تأكل الخشب. وهي التي دلّت الجنّ على موت سيّدنا سليمان؛ على نبيّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام. فأكلت ما في الصحيفة. فلم تدع فيها إسماً هو لله إلاّ أثبتته فيها، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان)). فقال: أربّك أخبرك بهذا؟ قال: ((نعم)). فانطلق أبو طالب في عصابة من بني هاشم وبني المطلب. إلى قريش ليخبرهم بأمر الصحيفة وأن الأرضة قد أكلتها إلا اسم الله، ثم ساومهم أبو طالب على هذه المعلومة الغائبة عنهم فقال: إن كان كلام ابن أخي حقًا فانتهوا عن قطيعتنا، وإن يك كاذبًا دفعته إليكم، فقالوا: قد أنصفتنا، ومشى الجميع إلى جوف الكعبة فوجدوا الصحيفة كما أخبر عنها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم. فلمّا رأت قريش صِدْق ما جاء به أبو طالب قالوا: هذا سحر ابن أخيك، وزادهم ذلك بغيا وعدوانا، فعند ذلك مشى طائفة منهم وهم الخمسة في نقض الصحيفة. وصنعوا ما صنعوا. وقد أشار صاحب الهمزية الإمام البوصيري رحمه الله إلى هذه الواقعة بقوله:

فُدِيَتْ خَمْسَةُ الصّحِيفَةِ بِالْخَمْـ*ــــسةِ إِنْ كَانَ لِلْكِرَامِ فِدَاءُ

فِتْيَةٌ بَيَّتُوا عَلَى فِعْلِ خَيْرٍ * حَمِدَ الصُّبْحُ أَمْرَهُمْ وَالْمَسَاءُ

يَا لَأَمْرٍ أَتَاهُ بَعْدَ هِشَامٍ * زَمْعَةٌ إِنَّهُ الْفَتَى الأَتَّاءُ

وَزُهَيْرٌ والْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ * وَأَبُو الْبُخْتُرِيِّ مِنْ حَيْثُ شَاءُوا

نَقَضُوا مُبْرَمَ الصَّحِيفَةِ إِذْ شَـ*ـدَّتْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعِدَا الأَنْدَاءُ

أَذْكَرَتْنَا بِأَكْلِهَا أَكْلَ مِنْسَا * ةِ سُلَيْمَانَ الأَرْضَةُ الْخَرْسَاءُ

وَبِهَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ وَكَمْ أَخْـ*ـرَجَ خَبْئاً لَهُ الغُيُوبُ خِبَاءُ

أيّها المسلمون. في السنة العاشرة من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم خرج سيّد البشر صلى الله عليه وسلم هو ومَنْ معه مِنَ الشِّعب وَمِحْنة الحصار. وهم أصلب إيمانًا. وأشدّ ثباتا على الدين، وهكذا الأحداث والإبتلاءات تصنع للأمّة الرجال، وتخرج للمستقبل الأبطال. وبقيت أيّامُ الشِّعب وأحداثُها. عالقةً في ذِهْن النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينسَها مع الأيام، ولم يتجاهل أكرم الخلق صلى الله عليه وسلم لأهل الوفاء فضلهم، فكان عليه الصلاة والسلام بعد ذلك يشرك بني المطلب مع بني هاشم من خُمُس الغنيمة، ويقول: ((إنّما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد))، وكان يقول: ((إنّا وبني المطلب لم نفترق في جاهلية ولا إسلام)). وفي يوم بدر كان النبي صلى الله عليه وسلم يوصي صحابته مرارًا أن يتركوا أبا البُخْتُري بن هشام ولا يقتلوه، لمواقفه أيّام المقاطعة. ودورِه في نقْض الصحيفة. وبقيت معالم الشِّعْب في ذكريات النبي صلى الله عليه وسلم يوم دخل مكة فاتحا، فحينما كسّر الأصنام. وأزال الوثنية الجاهلية. وأدانت له مكة. أمر أصحابه أن تُضْرَبَ له خيمة في شِعْب أبي طالب. حتى ترى البشرية صِدْقَ وَعْدَ الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم، فهذه البقعة التي شهدت يوما من الدهر تأوّهات الجائعين. وصبر المستضعَفين. ها هي اليوم تشهد مقام نبي الله عزيزا شامخا، ولا أثر للشرك ولا آثار للمشركين، وصَدَقَ الله وَعْدَه حيث قال في سورة الأعراف: ((إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)). اللهم يا ناصر المستضعَفين، ويا جابر المنكسِرين، يا من يجيب دعوة المضطرّين، إلاهنا وسيّدنا ومولانا. هذا حالنا لا يخفى عليك. وهذا ضعفنا ظاهر بين يديك. فعاملنا بالإحسان إذ الفضل منك وإليك. متوسّلين بأحبّ الخلق إليك. سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وبأصحابه أهل بدر وشهداء أُحُد

وأصحاب بيعة الرضوان المقرّبين لديك. فلا تردّنا يا مولانا خائبين. وتفضّل علينا بجودك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

18- حكمةُ الله تعالى في توالي المحن والأحزان على نبيّنا سيّد ولد عدنان وما أعقبها مِنْ مِنْحةِ اللهِ ذي الفضل والإحسان برحلة الإسراء والمعراج العظيمة الشان

الحمد لله الصبور الشكور. الوليّ الغفور. يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. اقتضت حكمته سبحانه أن يمتحن خيار عباده بأنواع البلاء. ليرفع درجاتهم ويجزيهم أحسن الجزاء. ويثبّت المخلصين بالقول الثابت في السرّاء والضرّاء. ويربط على قلوبهم فيَصْدُقون في الشّدّة والرّخاء. نحمده سبحانه حَمْدَ مَنْ ظنّه في ربّه جميل. ونشكره شُكْرَ ((الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)). وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. الناصر مَنْ عليه توكّل واعتمد. والحامي مَنْ إليه إلْتَجأ وبه اعتَضَد. القائل في كتابه المكنون: ((وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)). وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. أرسله ((بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)). فقام عليه الصلاة والسلام بأعباء الرسالة. وكافح أهل الكفر والضلالة. وصبر لنصرة الحقّ ووقف على حمايته نضاله. إلى أن دكّ صرْح البغي واستأصل أدغاله. ورفع منار الدين وأجرى في الناس سلساله .

هذا محمّدُنا للحقّ أرشَدَنا * ومِنْ بحار الرَّدَى والهُلْكِ أنقذنا

هذا الذي جاء بالحقّ الْمُبِينِ لنا * وأذهب الشِّرْك بالآيات والحُجَجِ

صلّوا على المصطفى ذي الْمَنْظَرِ البَهِجِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. النبي الحليم الأوّاب. الْمُحتَرَم المعظَّم الْمُهاب. وعلى آله الأئمّة الأقطاب. وصحابته السادة الأنجاب. صلاة تطيّب بها ألسنتنا بذكره المستطاب. وتصحّح لنا بها الإنتماء إليه والإنتساب. وتدخلنا بها تحت ظلّه الظليل وجاهه العليّ الجناب. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. يقول الحقّ تبارك وتعالى في سورة القصص: ((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)). والإختيار هو الإجتباء والإصطفاء الدّالّ على ربوبيّته سبحانه ووحدانيّته. وكمال حكمته. وعلمه وقدرته. ومن اختياره وتفضيله. اختياره لبعض الأيام والشهور. وتفضيلها على بعض، منها الأشهر الحُرُم. كما قال تعالى في سورة التوبة: ((إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ)). وجاءت السُّنّة النبويّة موضّحة ومبيّنة لهذه الأشهر. كما في صحيح البخاري من حديث أبي بكرة رضي الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم خطب في حجّة الوداع. فقال: ((إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خَلَق الله السماوات والأرض. السَّنَة اثنا عشر شهرا. منها أربعة حُرُم. ثلاث متواليات: ذو القَعدة وذو الحجّة والمحرّم. ورجب مضر. الذي بين جمادى وشعبان)). أيّها المسلمون. وها نحنُ فِي أوّل جمعة من شَهْرِ رجب الْمُبارَكِ. الذي لا يزال خيره يتدارك. نَتَذَكَّرُ فيه أعظمَ نعمة. أنعمَ اللهُ بِهَا على هذه الأمّة. وَهِيَ حمْلُ سيِّدَتِنا ومولاتِنا آمنة بنت وَهْبٍ رضي الله عنها بأفضل خلْقِ الله. سيِّدِنا ومولانا محمّدٍ رسولِ الله. صلى الله عليه وسلم. قال سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه: لمّا أراد الله تعالى خَلْق سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم في بطن أمّه آمنة. ليلة رجب. وكانت ليلة جمعة. أمر الله تعالى تلك الليلة رضوان خازن الجنان. بفتح الفردوس وينادي منادٍ في السموات والأرض: ألا إنّ النّور المخزون المكنون الذي يكون منه النبيّ الهادي. في هذه الليلة يستقرّ في بطن أمّه. الذي فيه يتمّ خَلْقه. ويخرج إلى الناس بشيرا ونذيرا. وفي آخر هذا الشهر. وقعت معجزَةُ الإِسْرَاءِ وَالْمِعرَاجِ. التي كانت في السَّنةِ العاشرةِ من البعثةِ الشريفةِ. أي فِي مُنتَصَفِ فَتْرَةِ الرِّسَالَةِ. التِي امتَدَّتْ ثَلاَثةً وعِشْرِينَ عَاماً؛ فَجَاءَتْ بِمَثَابَةِ عِلاَجٍ أَزَالَ مَتَاعِبَ المَاضِي وآلامَهُ، وأَعطَى الأَمَلَ لِمُستَقبَلٍ مُشْرِقٍ مُضِيءٍ، وغَدٍ مُتَأَلِّقٍ وَضِيءٍ، ثُمَّ إِنَّ الأَحداثَ التِي وَقَعَتْ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَبلَ الإِسرَاءِ والمِعْرَاجِ مُبَاشَرَةً هِيَ أَحدَاثٌ آلَمَتْهُ، وضَايَقَتْهُ وأَحزَنَتْهُ؛ جاءتْ هذه المعجزة بعد أن فَرَضَ المشركونَ على سيِّدِنا رسولِ اللهِ

صلى الله عليه وسلم والذين معه حِصاراً ظالماً جائرا. استمرَّ ثلاثَ سنواتٍ. أَكَلَ فيه المسلمونَ الجُلودَ وأوراقَ الشَّجرِ. لِيَسُدُّوا بها الرَّمَقَ. ولِيَدْفَعُوا غَائِلَةَ الجُوعِ. أيّها المسلمون. وبعد الخروج من الحِصَارِ الظَّالِمِ بِأَشْهُرٍ مَعْدُودَاتٍ. وفي شهر رمضان. إذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يصاب بمصيبتين عظيمتين هما: وفاة زوجته أمّ المؤمنين السيّدة خديجة رضي الله عنها، ووفاة عمّه أبي طالب. لقد كان لوفاة السيّدة خديجة رضي الله عنها وَقْعَه الشديد على النبي صلى الله عليه وسلم، فهي التي آزرته في أحرج الأوقات، وأعانته على إبلاغ رسالة ربّه، وشاركته أفراحه وأتراحه، وواسته بنفسها ومالها، ووقفت بجنبه ساعة الشّدّة، وظلّت ربع قرن من الزمان تتحمّل معه كيد الخصوم، وآلام الحصار، ومتاعب الدعوة، توفّيت رضي الله عنها والرسول صلى الله عليه وسلم في الخمسين من عمره. وهي في الخامسة والستين، وكان موتها من أكبر المصائب التي مرّت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى حزن عليها أشدّ الحزن. وظلّ يذكرها بالخير طول حياته، ويبيّن للناس فضلها وإحسانها، روى الإمام أحمد عن السيّدة عائشة رضي الله عنها قالت: ((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَثْنَى عَلَيْهَا فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ. قَالَتْ فَغِرْتُ يَوْماً فَقُلْتُ: مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا. حَمْرَاءَ الشِّدْقِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا خَيْراً مِنْهَا. قَالَ: مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْراً مِنْهَا. قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ. وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ. وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ. وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ)). وفي نفس العام الذي توفّيت فيه السيّدة خديجة رضي الله عنها بأيّام يسيرة توفّي عمّه أبو طالب، وكان موته مصيبة أخرى أضيفت إلى المصائب والأحزان التي أَلَمّت برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان أبو طالب الحصن الذي تحتمي به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء. وكان يحوط النبي صلى الله عليه وسلم ويغضب له وينصره، ولم تستطع قريش أن تنال من النبي صلى الله عليه وسلم إلا بعد موت أبي طالب، فقال عليه الصلاة والسلام : ((ما نالت منّي قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب)). ولتوالي هذه الأحزان على رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام واحد. عُرِف ذلك العام العاشر من البعثة، عند أهل السِّيَر بعام الحزن، أيّها المسلمون. لقد قضت حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ، أن يفقد الرسول صلى الله عليه وسلم عمّه وزوجه ومن كان في الظاهر حاميا له. حتى تظهر للصحابة والمسلمين من بعدهم حقائق وحِكَمٍ هامّة، يستفيدون منها في حياتهم، ويستضيئون بنورها في واقعهم، وهي كثيرة،

منها: أنّ الحفظ والعناية والنصر من الله تعالى، فسواء وُجِد مَنْ يحمي رسول الله صلى الله عليه وسلم أَوْ لم يوجد، ستمضي دعوتُه. وسينتصر دينُه، لأنّ الذي ينصره في الحقيقة هو الله عَزَّ وَجَلَّ، قال الله تعالى في سورة التوبة: ((هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)). وقال تعالى في سورة غافر: ((إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)). ثم إنّ الله عزّ وجلّ قد تكفّل بحفظ نبيّه صلى الله عليه وسلم من الناس، كما قال تعالى في سورة المائدة:((وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)). قَال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: يعصمك مِنْ قتْلهم أنْ يقتلوك حتى تبلّغ ما أَنزل إليك. وليس معنى العصمة من الناس أنْ لا يرى من الناس إيذاء أو اضطهادا. فلقد قضت حكمة الله تعالى أن يذوق الأنبياء قَدْرا غيرَ يسير من الأذى والمحن، إنّما العصمة المذكورة في الآية هي العصمة من القتل، ومن أيّ عدوان أو صدٍّ مِنْ شأنه إيقاف دعوته ورسالته والقضاء عليها، ففي استمرار دعوته وانتشار رسالته صلى الله عليه وسلم بعد موت عمّه وزوجه، برهان واضح، ودليل ساطع، أنّ الذي يتولّى حِفْظه وحمايته ونَصْره هو الله سبحانه وتعالى. ومن الحِكَم الجليلة. والحقائق الهامّة من هذا العام. أي عام الحزن. الإقتداء به صلى الله عليه وسلم في الصبر والتحمّل، فمهما أصاب المسلم مِنْ ألم السخرية والإستهزاء والأذى، وَفَقْدِ بعض الأهل والأحباب والأنصار، فإنّ ذلك لا يَفُتُّ في عَضُدِه، ولا يُضْعِف من قوّته وسَيْره، بل يستسهل ويستعذب كلَّ محنة وعذاب في سبيل الله، لأنّه يشعر أنّه يضرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصيب ممّا عاناه وقاساه، فهو صلى الله عليه وسلم القُدْوة والأُسْوة لكل مسلم في السراء والضراء، والدعوة إلى الله تعالى، قال سبحانه في سورة الأحزاب: ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)). أيّها المسلمون. وعلى الرغم من المحنة التي مرّ بها النبي صلى الله عليه وسلم، لم يزل صلى الله عليه وسلم يهتمّ بشؤون أصحابه، ويقف إلى جوارهم ويواسيهم، ففي شهر شوّال من العام نفسه. تزوّج النبي صلى الله عليه وسلم بالسيّدة سودة بنت زمعة رضي الله عنها، وذلك حين خشي عليها من بطش قومها بعد وفاة زوجها، وهي أوّل زوجة للنبي صلى الله عليه وسلم بعد السيّدة خديجة رضي الله عنها. وعلَى شِدَّةِ هذه المواقِفِ. وفداحةِ هذه المصائبِ. التي أصابت رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَتْرُكِ النبيُّ صلى الله عليه وسلم اليأسَ يَدِبُّ إليه. فَوَاصَلَ المِشْوَارَ، مُمتَطِياً ظَهْرَ اللَّيلِ والنَّهارِ، بَاحِثاً عَنْ بَلَدٍ آخَرَ

يُؤوِيهِ، ويُسَانِدُ دَعوَتَهُ ويَحْمِيهِ، فَخَرَجَ إلى الطائف حيث إنّها أقرب القرى من مكة. يدعو إلى الله تعالى ويَلْتَمِسُ النُّصْرَةَ مِنْ ثَقِيف، ذهب إليها سيرا على قدميه ذهابا وإيّابا. وكان في صحبته سيّدنا زيد بن حارثة رضي الله عنه. وكان بمثابة الحامي والحارس لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فَلَمْ يَجِدْ فيهم مَا كَانَ يَأْمَلُهُ ويَرجُوهُ، حَيْثُ امتَدَّتْ إليهِ الأَيْدِي بِالإيذَاءِ. وعَبَسَتْ لَهُ الوُجُوهُ؛ فلم يُجيبوه. وآذَوْهُ وأخرجوه. ورجموه بالحجارةِ. حتى أَدْمَوْا قَدَمَيهِ الشريفتينِ. فِداهُ أبي وأمّي. فانصرف عنهم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى مكةَ، وفي طريقه دعا بذلك الدعاءِ المشهورِ بدعاءِ الطَّائِفِ قائلا: ((اللهُمَّ إليكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وقِلَّةَ حِيلَتِي، وهَوَانِي على النَّاس، يا أرحمَ الرَّاحمين، وأنتَ رَبُّ المستَضْعَفِينَ، إلى مَنْ تَكِلُنِي؟ إلى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَيْ يلقاني بالغِلْظَةِ والوجهِ الكريه. أَمْ إلى عَدُوّ مَلَّكْتَهُ أمْرِي؟ إنْ لمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فلا أُبَالي، غيرَ أنَّ عافيتَك هي أوْسَعُ لي، أعوذُ بنورِ وَجْهِكَ الذي أضاءتْ له السمواتُ، وأشْرَقَتْ له الظُّلماتُ، وصَلَحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرةِ. أنْ يَنْزِلَ بي غَضَبُكَ، أو أنْ يَحِلَّ بي سَخَطُكَ، ولك العُتْبَى أَيْ أَسْتَرْضِيكَ. حتى تَرْضَى، ولا حولَ ولا قوةَ إلاَّ بِك)). فَعَادَ صلى الله عليه وسلم مِنْ حَيْثُ جَاءَ. فَقُوبِلَ بِمَزِيدٍ مِنَ الصُّدودِ، وإيذاءٍ فَاقَ التَّصَوُّرَ والحُدُودَ، ولَمَّا لَمْ يُحَقِّقْ أَمَلَهُ ومُرَادَهُ؛ عَادَ الأَلَمُ مَرَّةً أُخْرَى يَعْصِرُ فُؤَادَهُ، وبَيْنَما هُوَ عَلَى هَذَا الوَضْعِ والحَالِ. إذْ أَكْرَمَهُ اللهُ ذو الجلال. لِتَفْرِيجِ الأَزَمَاتِ الشِّدادِ؛ بِرِحلَةِ القُرْبِ والوِدَادِ، فَكَانَتْ رِحلَةُ الإِسرَاءِ والمِعْرَاجِ شَرَفاً ونِعْمَةً. لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، المبعوث للعالمين رحمة. فَالمِنْحَةُ تَكْمُنُ فِي المِحنَةِ، والعُسْرُ بَعْدَهُ يُسْرٌ، والضِّيقُ بَعْدَهُ سَعَةٌ، والكَرْبُ بَعْدَهُ فَرَجٌ، يَقُولُ اللهُ تَعَالى في سورة الطلاق: ((سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً)). وقال تعالى في سورة الشرح: ((فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)). وأخرج الحاكم في مستدركه عن الحَسنِ بن علي رَضِيَ اللهُ عَنهُما قالَ: خَرَجَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً مَسرُوراً فَرِحاً وَهوَ يَضحَكُ وَهوَ يَقولُ: ((لَن يَغلِبَ عُسرٌ يُسرَينِ)). وروى الإمام أحمد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُما أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ((وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْراً كَثِيراً. وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ. وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ. وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً)). ومع كل هذا. فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستسلم لهذا الواقع الأليم، بل صبر وصابر، وواصل جهاده في الدعوة إلى الله تعالى، فكان عاقبة صبره نصْرٌ من الله، وفتح عظيم تتفيّأ الأمّة ظلاله، وتنعم بنوره إلى يومنا هذا، وإلى يوم الدين.

يا ربّنا هَبْنا للنبيّ وَهَبْ لنا * ما سوّلته نفوسنا تسويلا

واستر علينا ما علمت فإنّنا * لسنا نطيق بزلّة تخجيلا

واجعل لنا اللهم جاهَ محمد * فَرَطا تبلّغنا به المأمولا

وإذا تعسّرتِ الأمورُ فإنّنا * نرجو لها بمحمد تسهيلا

واصرف به عنّا عذاب جهنّم * كرما وكفّ ضِرامها المشعولا

واجعل لنا من عطفه وحنانه * ورضاه حظّا يا كريم جزيلا

واجعل صلاتك ديمة منهلّة * لم تلف دون ضريحه تهليلا

واسكب على الآل الكرام وصحبه * منها صبيبا بكرة وأصيلا

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله ربّ العالمين. اهـ

19- إزالةُ الران عن رجوع النبيّ من الطائف مهموم حيران وإيمانُ الجنّ به بعد استماعهم لقراءته القرآن

الحمد لله العزيز الغفّار. خلق الإنسان من صلصال كالفخّار. وخلق الجانّ من مارج من نار. خلقهم سبحانه وتعالى ليكلّفهم أن يوحّدوه ويعبدوه. ويقدّسوه ويمجّدوه. ويشكروه ولا يكفروه. ويطيعوه ولا يعصوه. فقال في كتابه المبين من سورة الذاريات: ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)). نحمده تبارك وتعالى حمْد المتّقين الأبرار. ونعوذ بنور وجهه الكريم من خُلُق الأشرار. ونسأله السلامة من دار البوار. ونرجوه أن ينير لنا الطريق فنتبيّن النافع من الضار. وأن يجعلنا بفضله وكرمه من المطهَّرين الأطهار. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. أرسل رُسُله كما قال في سورة النساء: ((مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)). وختمهم بالنبيّ الأمّي. العربي المكّي. الهادي لأوْضح السُّبُل،

أرسله إلى جميع خَلْقه من الإنس والجنّ، مِن لدْن بِعْثته صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: ((بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود)). قال مجاهد: يعني: الإنس والجنّ. فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلَيْن: الإنس والجنّ، مُبَلِّغًا لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز. كما قال تعالى في سورة الأنعام: ((وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)). وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه من خَلْقه وخليله. إمام المتّقين والأبرار. والشفيع الأعظم لجميع الخلائق يوم القرار. أُسْرِيَ به عَبْرَ الفيافي والقِفار. وعُرِجَ به فوق السحاب والبُخار. وَزُجَّ به إلى حظيرة القُدْس في بحر الأنوار. فما زاغ البصر وما طغى بل رأى من آيات ربّه الكبار. ومُنِحَ مَا مُنِحَ من الكنوز والأسرار .

هذا الحبيبُ الهاشميُّ شفيعُنا * يوْمَ الحسابِ وموْقِفِ الخسرانِ

صلّوا عليه وارفعوا أصواتَكم * تُعْطُوا الثوابَ وجَنَّةَ الرِّضْوانِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. المخصوصِ بالسبع المثاني والقرآن المنزّل. وعلى آله ذوي المجد الباذخ والشرف المؤصَّل. وصحابته خيرِ مَنِ انقطع إلى الله تعالى وتبتَّل. صلاةً نكون بها مِمَّن رسّخ قدَمَه في محبّته وتوغَّل. وابتهج وجهُه بنور الصلاة والسلام عليه وتهلّل. وتخلّق بأخلاقه الكريمة وبروحانيّته اتّصل. وواظب على سنّته المحمّدية ولم يتبدّل. وتضرّع به إلى الله تعالى في قضاء حوائجه وتوسّل. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. جاءنا شهر رجب، الذي أَسْرى فيه اللهُ تعالى بنبيّه سيِّدِنا محمّدٍ صلى الله عليه وسلم، بعد أن تنكّر له الخَلْق، وبعد أن سُدَّت في وجهه الشريف أبواب الأرض. وفُتِّحت له أبواب السماء، لم يكن ذلك تسريةً عنه فحسب. وإنّما كان تكريما لشخصه الكريم. وتقويةً لقلبه الرحيم، وإعلاءً لشأنه العظيم. صلى الله عليه وسلم. فحريٌّ بالأمّة الإسلامية في شهر الإسراء أنْ تعْلَم ما حَدَث للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يُبَلِّغ دعوة الله عزّ وجلّ للناس أجمعين. ليعلموا قيمة هذا الدين الذي بين أيديهم، وقيمة هذا العطاء الذي يُفَرِّج الله به كربهم، فيلتفّون حوله.

ويتحبّبون به لله ربّ العالمين، إنّ الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ذاته الذي جاء به الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام. كما قال تعالى في سورة الشورى: ((شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ)). إلا أنّ هناك بعض الإختلافات، في طبيعة الرسالة، وفي طبيعة الرسول، وفي طبيعة الذين أُرْسِل إليهم، فمن جانب الرسالة: فهي عامّة شاملة، قال تعالى في سورة آل عمران: ((إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ)). وقال أيضا: ((وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)). ومن جانب الرسول: فهو خاتم النبيّين، لا نبيّ بعده. قال تعالى في سورة الأحزاب: ((مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتِمَ النَّبِيئِينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)). وأمّا الذين أُرسْل إليهم فأنتم، الأمّة الوارثة، الوارثين لتعاليم الأنبياء، القائمين بالدعوة مقام المرسلين، الأمّة الوسط العدول. الشاهدين على الأمم يوم القيامة. قال تعالى في سورة البقرة: ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)). وقال تعالى في سورة آل عمران: ((كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)). أيّها المسلمون. تلقّى رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الدعوة إلى الله. وفي سبيل هذا الدين الحنيف. الأذى بكل أصنافه وأنواعه: الأذى الكلامي، والأذى الفعْلي، وأذى الدعاية المشوّهة لدعوته ولرسالته ولعِرْضه ولسُمْعته ولرأيه وعقله. صلى الله عليه وسلم. ولكن ماذا يفعل هذا الرسول؟ وهو لا يعرف اليأس والإحباط، لمّا لم يستجب أهل مكة لدعوته. وأوصدوا أبواب الهداية عن نفوسهم في طريق الرسول صلى الله عليه وسلم. وهو حريص عليهم، وعلى نجاتهم وفوزهم، انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، حيث إنّها أقرب القرى من مكة. وكان خروجه في شوّال سنة عشر من النبوّة. يلتمس من ثقيف الإسلام. رجاء أن يسلموا، وأن يناصروه على الإسلام والقيام معه على مَنْ خالفه مِنْ قومه. لكن أهل الطائف لم يستجيبوا له، وردّوه ردّا مُنْكَرا، وفوق كل ذلك لم يجد من صغارهم إلا هزءا، ولم يجد من صبيانهم إلا قبحا، ولم يجد من كبارهم إلا صدّا وجحودا، وكفرا وعنادا. حتى سلّطوا عليه صبيانهم وأطفالهم فرموه بالحجارة. فعاد جريح الجسد، كسير القلب. دامي

القدمين، وفي طريق عودته لم يجد إلا خالقا يحتمي بحماه، وربّا يلوذ به، وإلَهًا يَضْرَع إليه. فدعا ربّه سبحانه وتعالى بذلك القلب الخاضع الخاشع المتواضع. شكا ضَعْفه وقلّة حيلته وطلب رضوان ربّه جلّ جلاله. ولما بلغ قَرْن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبَيْن أي الجبلَيْن على أهل مكة. وهذا أسلوب ومنهج الإستئصال، وقد نُفِّذ في قوم نوح وعاد وثمود ولوط، قال تعالى في سورة العنكبوت: ((فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)). أيّها المسلمون. لكن الرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم يرفض هذا الأمر، عسى الله أن يُخْرِج من أصلاب هؤلاء الكفرة مَنْ يوحِّد الله ويعبده ولا يشرك به شيئا، يأمل صلى الله عليه وسلم أن يكون الجيل القادم جيلاً مسلما مجاهداً واعيا، يصبّ دَمَه في معارك الإسلام إعلاء لكلمة الله. وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة يسيل عَقِبَيْه دماً في الطائف، ولم يزد على قول: ((اللّهمّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون)). فأيّ حِلْم، وأيّ صَفْح، وأيّ سماحة، وأيّ خُلُق جليل فوق هذا. وقد روى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه تفصيل القصّة بسنده عن عروة بن الزبير، أنّ السيّدة عائشة رضي الله عنها حدّثته أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ. وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ. إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ. فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي. فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ. فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ. فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ. وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ. فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ. فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ. إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ. أي لَفَعَلْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)). وفي هذا الجواب الذي أدلى به الرسول صلى الله عليه وسلم تتجلّى شخصيّته الفذّة، وما كان عليه من الخُلُق العظيم لا يُدْرَك غَوْرُه. لقد كانت إصابة النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد أبلغ من الناحية الجسدية، أمّا من الناحية النفسية فإنّ إصابته يوم الطائف أبلغ وأشدّ، ومع ذلك رفض إهلاك مَنْ آذَوْه، فقد كانت نظرة النبي صلى الله عليه وسلم، نظرة مستقبلية. فيها أمل وشفقة، شفقة عليهم، وأمل في أن يكون منهم ومِن أبنائهم، مَنْ

يحمل راية الإسلام عالية خفّاقة، وكان ما رجاه وأمَّله صلى الله عليه وسلم. وإلى حِلْمه وإغضائه صلى الله عليه وسلم أشار صاحب الهمزية الإمام البوصيري رحمه الله تعالى بقوله:

جَهِلَتْ قَوْمُهُ عَلَيْهِ فأغضى * وأخو الحِلْم دَأْبُه الإغضاءُ

وَسِعَ العالمين عِلْما وحِلْما * فَهْوَ بَحْرٌ لم تُعْيِهِ الأعْباءُ

أيّها المسلمون. وعند منصرفه من الطائف. نزل نخلة وهي محلّة بين مكة والطائف، وهناك بعث الله إليه نفرًا من الجنّ. يستمعون القرآن. ويتذوّقون حلاوته. ويدركون معناه ومغزاه. ويستجيبون لأمره. فيعلنون إسلامهم فوْرا وبدون تردّد. ثم يتولَّوْن إلى قومهم منذرين ومبشّرين. ودعاةٍ مصلحين. وقد قصّ الله تعالى خبرهم على رسوله صلى الله عليه وسلم في سورة الأحقاف فقال: ((وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. وَمَنْ لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)). وذكر ابن عجيبة في تفسيره (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد) قال: قد استعملت الجنّ الأدب بين يديه صلّى الله عليه وسلم حيث قالوا: أنصتوا، فالجلوس مع الأكابر يحتاج إلى أدب كبير، كالصمت، والوقار، والهيبة، والخضوع، كما كانت حالة الصحابة رضي الله عنهم مع الرّسول صلّى الله عليه وسلم. إذا تكلّم أنصتوا كأنّما على رؤوسهم الطير. فإذا انقضى مجلس التذكير رجع كلّ واحد منذرا وداعيا إلى الله كلَّ مَنْ لقيَه، وقد كان صلّى الله عليه وسلم يقول لأصحابه: «ليبلغ الشاهد الغائب» فمَنْ بَلَغَه ذلك واستجاب ربح وغنم، ومَنْ لا يجب داعي الله خاب وخسر، أيّها المسلمون ثم أمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بإخبار الناس ما وقع بينه وبين الجنّ فقال سبحانه في سورة الجن: ((قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا به وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً. وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً)). وكان هذا الحادِث نصرًا أمدّ الله به رسوله صلى الله عليه وسلم. من كنوز غيبه المكنون. بجنوده التي لا يعلمها إلا هو، ثم إنّ الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث كانت في طيّها بشارات بنجاح دعوة النبيّ صلى الله عليه

وسلم، وأنّ أيَّ قوّة من قوّات الكوْن لا تستطيع أنْ تحول بينها وبين نجاحها. كما قال تعالى في سورة الأحقاف: ((وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)). وقال في سورة الجنّ: ((وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا)). وأمام هذه النصرة، وأمام هذه البشارات، أقشعت سحابة الكآبة والحزن التي كانت مطبقة عليه صلى الله عليه وسلم منذ أن خرج من الطائف، حتى صمّم على العوْد إلى مكة، وعلى القيام باستئناف خطّته الأولى في عرض الإسلام. وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد. وبجدّ وحماس. وحينئذ قال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعنى قريشًا، فقال صلى الله عليه وسلم: ((يا زيد، إنّ الله جاعل لما ترى فَرَجًا ومخرجًا، وإنّ الله ناصر دينه، ومظهر نبيَّه)). ثم أرسل رجلا من خزاعة إلى المطعم بن عدي يخبره أنّه داخل مكة في جواره. فاستجاب المطعم لذلك. ثم تسلّح هو وبنوه وقومُه. فنادى على راحلته: يا معشر قريش إنّي قد أجرتُ محمدا فلا يؤذه أحد منكم، وقد حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم للمطعم هذا الصنيع، فقال في أسارى بدر: ((لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلّمني في هؤلاء النَّتْنَى لتركتهم له)). أيّها المسلمون. كانت هذه الأحداث مقدّمات لرحلتي الإسراء والمعراج، فإذا كانت الأرض قد ضاقت به ذرعا، فإنّ السماء فتحت له أبوابها سماء بعد سماء، وإذا كان أهل الأرض تنكّروا له ولدعوته، فإنّ أهل السماء رحّبوا به والتفّوا حوله، فكان قائدهم وإمامهم، واستمعت الجنّ له، وبلّغت عنه، ثم كانت رحلتي الإسراء والمعراج. قال تعالى في سورة الإسراء: ((سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)).

يَا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَخَيْرَ مَنْ * تُجْلَى بِهِ عَنَّا الْمَصَائِبُ وَالْكُرَبْ

وَأَجَلَّ مَنْ يَحْمِي مِنَ الأَسْوَاءِ مَنْ * بِحِمَاهُ لاَذَ لَدَى الشَّدَائِدِ والنُّوَبْ

إِرْحَمْ بِفَضْلِكَ أُمَّةً مَا إِنْ لَهَا * لِسِوَى حِمَاكَ لَدَى الْمَكَارِهِ مِنْ هَرَبْ

قَدْ أَيْقَنَتْ إِنْ لَمْ تُوَافِ شَفَاعَةٌ * مِنْ بَحْرِ جُودِكَ بِالْهَلاكِ وَبِالْعَطَبْ

فَاشْفَعْ لَهَا عِنْدَ الْجَلِيلِ تَكَرُّماً * وَسَلِ الإِلَهَ تَفَضُّلاً تُعْطَ الأَرَبْ

إِنَّا تَوَسَّلْنَا إِلَيْكَ بِمَا بِهِ * قَدْ خَصَّكَ الْوَهَّابُ مِنْ أَسْنَى الرُّتَبْ

وَبِمَا حَبَاكَ بِلَيْلَةِ الإِسْرَاءِ مِنْ * سِرٍّ وَمَا شَاهَدْتَ فِيهَا مِنْ عَجَبْ

وَبِكُلِّ مَا أُولِيتَهُ مِنْ سُؤْدَدٍ * وَمَفَاخِرٍ مَا نَالَهَا مِنْ مُنْتَخَبْ

وَبِبِنْتِكَ الْعَذْرَى الْبَتُولِ وَبَعْلِهَا * وَبَنِيهِمَا أَهْلِ الْمَرَاتِبِ وَالْقُرَبْ

وَبِصَحْبِكَ الْغُرِّ الْكِرَامِ جَمِيعِهِمْ * أَهْلِ التُّقَى والْفَضْلِ حَقّاً والأَدَبْ

لا تُسْلِمَنَّا فِي الْحَيَاةِ لِفِتْنَةٍ * وَبَلِيَّةٍ وَكَذَاكَ عِنْدَ الْمُنْقَلَبْ

صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ مَا بَلَغَ الْمُنَى * مِنْ رَبِّهِ عَبْدٌ لِجَانِبِكَ انْتَسَبْ

والآلِ طُرّاً وَالصِّحَابِ بِأَسْرِهِمْ * وَمَنِ اقْتَدَى بِهُدَاهُمُ الأَسْنَى الأَحَبْ

وَسَلاَمُهُ يَبْقَى عَلَى مَرِّ الْمَدَى * وَأَمَانُهُ مَا انْهَلَّ مُزْنٌ وَانْسَكَبْ

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

20- السرور والإبتهاج بالإعتبار والإستنتاج من نفحات قصّة الإسراء والمعراج

الحمد لله الذي جَلا عرائس صفاته الحسنى. على ذات حبيبه صلى الله عليه وسلم النورانية الحَسْنا. وعَقَد له لواء المجْد والثّنا. في حَضَرات القُرْب والمقرّ الأسنى. ليكْمُل له الشّرف الأعلى في مقام قاب قوسين أو أدنى. فسما فوق كلّ سماءٍ وتدلّى ودنا. وجعل له الوِصال القدسيَّ دَيْدنا. حتى سَمِع النِّدا: أُبسُطْ يا أحمدُ يدك لِلنَّدَا. أنا العليُّ الأعْلى. وأنت الحبيب الأغْلى. ليس هناك إلاّ أنت وأنا. فسبحانك اللهم تنزيها لذاتك عن الحيّز والمكان. وتقديسا لكمالاتِك العليّة عن الإدراك بالأبصار. نؤمِن بأنّك تُرى سبحانك لا بكيف وتحديد. أو جهة وتمثيل. وأنّك ظاهر لا يحجبك شيء. ومع كل شيء لا بمزاوجة أو ممازجة. أو مشاكلة ومجاورة. يُسَبِّحُ لَك كُلُّ شَيْءٍ، وَيَنْطِقُ بِحَمْدِك كُلُّ حَيٍّ، وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، شرّف هذا النبيّ الكريم. باسم العبوديّة. وأنطق لسانه الفخيم. بالإقرار لله بالوحدانية. والإعتراف له بحقّ الربوبيّة. فرفع قدره العظيم. على سائر الأنبياء. وشرّفه بالمحادثة والمكالمة في بساط حضرته القدّوسيّة. وملأ قلْبه الحليم. بمواهب أسراره

اللّدنيّة. وعواطف رحماته الرَّحَموتيّة. وشرح صدره الجسيم. بعلوم صفاته السَّنِيّة. وجواهر أسمائه القُدْسيّة.

سُبحانَكَ اللَهُمَّ خَيرَ مُعَلِّمٍ * عَلَّمتَ بِالقَلَمِ القُرونَ الأولى

أَرسَلتَ بِالتَوراةِ موسى مُرشِداً * وَاِبنَ البَتولِ فَعَلَّمَ الإِنجيلا

وَفَجَرتَ يَنبوعَ البَيانِ مُحَمَّداً * فَسَقى الحَديثَ وَناوَلَ التَنزيلا

وَأَشْهَدُ أَنَّ سيّدنا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وصفيّه من خلْقه وخليله. منهاج الحنفاء. وتاج الشرفاء. ونخبة الأجلّة الكرام والأماجد الظُّرَفا. الذي أُسْرِيَ به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. ثم دُلِّيَ له المعراج فَرَقًا عليه إلى سدرة المنتهى. ثم إلى حظائر النور رَفْرَفًا رَفْرَفًا. حتى وَصَلَ إلى حضرة مولاه فنال عِزًّا وشَرَفًا.

في ليلة مسراه قاب قوسين كانا * مِنْ مالِكه عندما رآه عيانا

بالرفق واليُسْر عند ذاك أتانا * بمحمد فُزْنا على الورى شأنا

صلّوا عليه واشكروا الرحمانا

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. الأمين المأمون. وعلى آله أشرف القبائل والبطون. وصحابته الفائزين بنصرته على مَنْ سبقهم في سائر الأزمنة والقرون. صلاة تبلّغنا بها المآرب والشؤون. وتفرّج ببركتها عنّا الغموم والهموم والشجون. وتقض لنا بها جميع التبعات والديون. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. قَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعَالَى فِي الحَيَاةِ أَنْ يُنَبِّهَ عِبَادَهُ عَلَى آيَاتِهِ فِي الكَوْنِ وَمَا بَثَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مِنَ الدَّلاَئِلِ وَالبَرَاهِينِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ، فَفِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَمَا بِهَا مِنْ نُجُومٍ مُنْتَشِرَةٍ وَكَوَاكِبَ مُزْدَهِرَةٍ، تَجْرِي بِنِظَامٍ حَكِيمٍ وَدَقِيقٍ، وَفِي خَلْقِ الأَرْضِ وَمَا بِهَا مِنْ جِبَالٍ وَأَشْجَارٍ، وَأَنْهَارٍ وَبِحَارٍ، وَمَا يَتَعَاقَبُ فِيهَا مِنَ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٌ تَشْرَحُ لِلإِنْسَانِ حَقِيقَةَ القُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ، وَعَظِيمَ الصَّنْعَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى في سورة البقرة: ((إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ)). إنَّ هَذَا الكَوْنَ كُلَّهُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللهِ، وَيَنْطِقُ بِقُدْرَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَالإِنْسَانُ أَمَامَ هَذِهِ الآيَاتِ مَدْعُوٌّ إِلَى هَذَا التَّسْبِيحِ، وَمُخَاطَبٌ بِلِسَانِ القُدْرَةِ الَّتِي تَرْسُمُهَا مَظَاهِرُ الكَوْنِ أَمَامَ عَينَيْهِ أَنْ يَلْهَجَ بِالذِّكْرِ وَالتَّعْظِيمِ للهِ، وَأَنْ يُعلِنَ العُبُودِيَّةَ وَالخُضُوعَ لَهُ قَائِلاً: سُبْحَانَكَ جَلَّتْ قُدْرَتُكَ، وَعَظُمَ سُلْطَانُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُكَ، لَكَ الحَمْدُ حَتَّى تَرْضَى، وَلَكَ الحَمْدُ بَعْدَ الرِّضَا، وَلَكَ الحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا. أيّها المسلمون. إِذَا كَانَتْ آيَاتُ اللهِ تَعَالَى المَنْظُورَةُ وَاضِحَةً لِلإِنْسَانِ، لا يَجِدُ أَمَامَهَا سِوَى أَنْ يُسَبِّحَ بِحَمْدِ اللهِ؛ فَإِنَّ للهِ آيَاتٍ أُخْرَى فَوقَ قُدْرَةِ الإِنْسَانِ عَلَى التَّصَوُّرِ، آيَاتٍ خَارِقَةً لِلْعَادَةِ، تَتَوَقَّفُ مَعَهَا سَاعَاتُ الزَّمَنِ، وَتَخْرُجُ فِي الحُسْبَانِ عَنْ مَقَايِيسِ البَشَرِيَّةِ وَمَفَاهِيمِهَا، آيَاتٍ يُرَادُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَقِفَ أَمَامَهَا مُصَدِّقًا دُونَ شَكٍّ، وَمُؤْمِنًا دُونَ رَيْبٍ، وَمُسَبِّحًا بِقُدْرَةِ اللهِ الَّتِي لا حَدَّ لَهَا وَلا نِهَايَةَ، أَمثَالُ هَذِهِ الآيَاتِ العَجِيبَةِ نَجِدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُسَبِّحُ فِيهَا لِنَفْسِهِ وَيُمَجِّدُ ذَاتَهُ جَلَّ وَعَلا، لأَنَّ الإِنْسَانَ وَإِنْ سَبَّحَ أَمَامَهَا بِحَمْدِ اللهِ فَإِنَّمَا يُسَبِّحُ مُؤْمِنًا بِقُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى الإِجْمَالِ، وَمُسَلِّمًا للهِ تَعَالَى بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ إِيقَانًا وَتَصْدِيقًا. وَآيَةُ الإِسْرَاءِ والمعراج وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ الآيَاتِ العَظِيمَةِ الَّتِي سَبَّحَ اللهُ فِيهَا لِنَفْسِهِ جَلَّ وَعَلا، وَاخْتَزَلَ فِي لَفْظَةِ التَّسْبِيحِ هَذِهِ مَظَاهِرَ القُدْرَةِ العُلْيَا الَّتِي نَقَلَتْ جِسْمًا هَاجِعًا فِي ظُلْمَةِ اللَّيلِ إِلَى عَوَالِمِ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَأَبْصَرَ بِهَذِهِ القُدْرَةِ آيَاتِ اللهِ الكُبْرَى فَقَالَ جَلَّ وَعَلا في سورة الإسراء: ((سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)). وَقَدْ تَكَرَّرَ مَعْنَى التَّسْبِيحِ فِي سُورَةِ الإِسْرَاءِ، فَاستَغْرَقَ آيَاتِهَا وَأَحْدَاثَهَا، وَهِيَ تُذَكِّرُ الإِنْسَانَ بِهَذَا المَعنَى العَظِيمِ، وَتُخْبِرُ عَنِ اشْتِرَاكِ الكَوْنِ كُلِّهِ فِي الذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى في نفس السورة: ((يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)). ثُمَّ اخْتُتِمَتْ آيَاتُهَا بِالتَّأْكِيدِ عَلَى هَذَا المَعنَى نَفْسِهِ، فَوَضَعَتِ النَّاسَ أَمَامَ الصِّيغَةِ اللاَّئِقَةِ بِجَلالِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَلْهَجَ بِهَا لِسَانُ العَالَمِينَ: ((وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)). أيّها المسلمون. لَقَد تَجَلَّتْ آيَةُ اللهِ تَعَالَى فِي الإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ بِهَذِهِ القُدْرَةِ الخَارِقَةِ لِتَمنَحَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَاحَةً نَفْسِيَّةً بَعْدَ العَنَاءِ الطَّوِيلِ، وَتَنقُلَ الجِسْمَ المُتْعَبَ مِنْ عَنَتِ المُكَابِرِينَ إِلَى عَالَمِ المَلائِكَةِ وَالأَنْبِيَاءِ، وَتُحْدِثَ تَعَانُقًا مَعَ أَصْوَاتِ المُسَبِّحِينَ للهِ الَّذِينَ لا يَفْتُرُونَ، وَمَعَ جُهُودِ الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ خَطُّوا

طَرِيقَ الهِدَايَةِ إِلَى اللهِ بِدِمَائِهِمْ وَأَرْوَاحِهِمْ، دُونَ أَنْ يَصْمُتَ لَهُمْ صَوتٌ أَوْ يَتَوَقَّفَ لَهُمْ نَشَاطٌ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى في سورة الأنعام: ((وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوْا عَلَى مَا كُذِّبُوْا وَأُوْذُوْا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِيْنَ)). لقد جَاءَ الخَبَرُ بحادثة الإسراء فِي كِتَابِ اللهِ تعالى وَاضِحاً صَرِيحاً، وأمّا الخَبَرُ عن المعراج فجاء إِشَارَةً وتَلْمِيحاً، قَالَ تَعالَى في سورة النجم: ((وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى، أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى، وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)). وأصحُّ أحاديثه في السنّة النبوية. ما رواه الشيخان ونقَلَه القاضي عياض في شفائه من طريق ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ. وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ. يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ. فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ. فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ. ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ. ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ. فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ. فَقَالَ جِبْرِيلُ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ . ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ. فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا. فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ. فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا. فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَ بْنِ زَكَرِيَّاءَ. فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ. فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا. فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ. فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ. فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ. قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا. فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ. فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة مريم: (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا). ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ. فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ

لَنَا. فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ. فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ. فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا. فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى. فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ. فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا. فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ. وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ. ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ. وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلاَلِ. فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى. فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى. فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلاَةً. قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ. فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ. قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي. فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا. فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى. فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى. حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لِكُلِّ صَلاَةٍ عَشْرٌ فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلاَةً. وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً. فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ. فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ)). وإلى إسرائه صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وتحديثه قريشا بذلك أشار الإمام البوصيري رحمه الله في همزيته بقوله:

حَظِيَ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ بِمَمْشَا * هَا وَلَمْ يَنْسَ حَظَّهُ إِيلْيَاءُ

ثُمَّ وَافَى يُحَدِّثُ النَّاسَ شُكْراً * إِذْ أَتَتْهُ مِنْ رَبِّهِ النَّعْمَاءُ

وإلى عروجه صلى الله عليه وسلم ورجوعه. أشار الإمام البوصيري رحمه الله بقوله:

فَطَوَى الأَرْضَ سَائِراً والسَّمَوَا * تُ العُلاَ فَوْقَهَا لَهُ إِسْرَاءُ

فَصِفِ اللَّيْلَةَ التِي كَانَ لِلْمُخْـ*ــتَارِ فِيهَا عَلَى البُرَاقِ اسْتِوَاءُ

وَتَرَقَّى بِهِ إِلَى قَابِ قَوْسَيْــ*ــنِ وَتِلْكَ السِّيَّادَةُ الْقَعْسَاءُ

رُتَبٌ تَسْقُطُ الأَمَانِيُّ حَسْرَى * دُونَهَا مَا وَرَاءَهُنَّ وَرَاءُ

وفي البردة يصف الإمام البوصيري رحمه الله هذه الحادثة وما خصّ الله به رسوله صلى الله وسلم بقوله:

يَا خَيْرَ مَنْ يَمَّمَ العافُونَ سَاحَتَهُ * سَعْيًا وَفَوْقَ مُتُونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ

وَمَنْ هُوَ الآيَةُ الكُبْرَى لِمُعْتَبِرٍ * وَمَنْ هُوَ النِّعْمَةُ العُظْمَى لِمُغْتَنِمِ

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إِلىَ حَرَمٍ * كَمَا سَرَى البَدْرُ فيِ دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ

وَبِتَّ تَرْقَى إِلىَ أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً * مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرَكْ وَلَمْ تُرَمِ

وَقَدَّمَتْكَ جَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ بِهَا * وَالرُّسْلِ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ

وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقَ بِهِمْ * فيِ مَوْكِبٍ كُنْتَ فِيهِ الصَّاحِبَ العَلَمِ

حَتىَّ إِذَا لَمْ تَدَعْ شَأْوًا لِمُسْتَبِقٍ * مِنَ الدُّنُوِّ وَلاَ مَرْقًا لِمُسْتَنِمِ

خَفَضْتَ كُلَّ مَقَامٍ بِالإِضَافَةِ إِذْ * نُودِيتَ بِالرَّفْعِ مِثْلَ المُفْرَدِ العَلَمِ

كَيْمَا تَفُوزَ بِوَصْلٍ أَيِّ مُسْتَتِرٍ * عَنْ العُيُونِ وَسِرٍّ أَيِّ مُكْتَتَمِ

فَحُزْتَ كُلَّ فَخَارٍ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ * وَجُزْتَ كُلَّ مَقَامٍ غَيْرَ مُزْدَحَمِ

وَجَلَّ مِقْدَارُ مَا وُلِّيتَ مِنْ رُتَبٍ * وَعَزَّ إِدْرَاكُ مَا أُولِيتَ مِنْ نِعَمِ

فلمّا أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم في قومه. أخبرهم بما أراه الله عزّ وجلّ من آياته الكبرى، فاشتدّ تكذيب قريشٍ له. وأذاهم واستضرارهم عليه، وسألوه أنْ يصف لهم بيت المقدس، فجلاّه الله له، حتى عاينه، فطفِق يخبِرُهم عن آياته، ولا يستطيعون أنْ يردّوا عليه شيئًا، وأخبرهم عن عيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها، وكان الأمر كما قال صلى الله عليه وسلم، فلم يزدهم ذلك إلاّ نفورًا، وأبى الظالمون إلا كفورًا . ويقال: سُمِّيَ أبو بكر رضي الله عنه صدّيقًا؛ لتصديقه هذه الواقعة حين كذّبها الناس. أيّها المسلمون. لَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الحَادِثَةُ عِبَرًا تَسُوقُ لِلنَّاسِ جُمْلَةً مِنَ المَعَانِي النَّبِيلَةِ،

وَتَشْرَحُ لِلْخَلْقِ مِقْدَارَ العِنَايَةِ الإِلَهِيَّةِ، الَّتِي أَرَادَهَا اللهُ لِلإِنْسَانِ لَيَعْبُرَ إِلَى بَرِّ الأَمَانِ، إِلَى السَّعَادَةِ فِي الدَّارَيْنِ، إِلَى النَّجَاةِ وَالسَّلامَةِ فِي الحَيَاتَيْنِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى في سورة المائدة: ((قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)). وَلَمَّا كَانَ رُسُلُ اللهِ هُمْ حَمَلَةَ هَذَا الوَحْيِ، وَالمُبَلِّغِينَ عَنِ اللهِ مَا يَرْحَمُ بِهِ خَلْقَهُ، وَمَا يُرِيدُ لَهُمْ بِهِ اليُسْرَ وَالعَيشَ الرَّغِيدَ؛ فَإِنَّ حِمَايَةَ الرَّسُولِ وَالدِّينِ شَيْءٌ تَكَفَّلَ اللهُ بِهِ؛ لِيَظَلَّ نُوْرُ اللهِ فِي الأَرْضِ سَاطِعًا لا تُكَدِّرُهُ مَكَايِدُ الخَلْقِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى في سورة يوسف: ((حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُنجِي مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)). لَقَدْ أَفْصَحَتْ حَادِثَةُ الإِسْرَاءِ والمعراج عَنْ مَظَاهِرِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ، عِنْدَمَا اخْتَارَ لِنَبِيِّهِ بَعْدَ شِدَّةِ الإِيذَاءِ أَنْ يَستَرِيحَ مَعَ عَالَمِ المَلَكُوتِ، وَأَنْ تُلامِسَ يَدُهُ أَيْدِي مَنْ قَبلَهُ، لِيَستَمِدَّ مِنْ تِلْكَ الرِّحلَةِ الخَالِدَةِ طَاقَةً أُخْرَى عَلَى مُوَاصلَةِ الطَّرِيقِ، وَلِيُبْصِرَ مِنْ آيَاتِ اللهِ الكُبْرَى مَا يَطْمَئِنُّ بِهِ قَلْبُهُ، وَتَسْكُنُ بِهِ نَفْسُهُ المُتْعَبَةُ، وَبِهَذِهِ الرَّحْمَةِ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم. قال تعالى في سورة التوبة: ((لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)). وقال سبحانه في سورة الأنبياء: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)). فشمول رحمته يقتضي أن يكون لعمّار السّماوات نصيب من هذه الرّحمة. بمشاهدته صلّى الله عليه وسلّم. وذلك عن طريق المعراج. وما كان استفتاح جبريل له صلى الله عليه وسلم لكل سماء. إلاّ ليحظى عمّار كل سماء بشهود أنوار المجلى في هيكله المحمّدي. كما أخذ عمّار الأرض نصيبهم من هذه الرحمة. وفي هذا المعنى يقول الإمام أبو العزائم رحمه الله:

وحِكْمة إسراءِ الحبيبِ إغاثةٌ * لعالَمِه الأعلى ورحمةُ حنّانِ

ولم يك ربّ العرش فوق سمائه * تَنَزَّهَ عن كيْفٍ وعن برهانِ

ولكنْ لإظهارِ الجمال لأهله * مِنْ العالَمِ الأعلى ونيْل أمانِ

وَانْظُرُوا عِبَادَ اللهِ. كَيْفَ تَجَلَّتْ هَذِهِ الرَّحْمَةُ أَيْضًا فِي نَفْسِيَّةِ هَذَا النَّبِيِّ العَظِيمِ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، عِنْدَمَا عُرِضَتْ عَلَيْهِ فُرْصَةُ إِهْلاكِ قَوْمِهِ المُكَذِّبِينَ، فَفَاضَتْ مِنْ جَوَانِحِهِ الرَّحْمَةُ فَيْضًا سَجَّلَ التَّارِيخُ كَلِمَاتِهَا العِذَابَ، عِنْدَمَا أَجَابَ مَلَكَ

الجِبَالِ بِقَولِهِ: ((بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)). وَهَكَذَا هِيَ رِسَالَةُ الإِسْلامِ دَعْوَةُ الرَّحْمَةِ وَالمَحَبَّةِ، دَعْوَةُ السِّلْمِ وَالأَمَانِ، دَعْوَةٌ تَشْتَهِي لِلنَّاسِ الخَيْرَ، وَتَنْشُدُ فِي الحَيَاةِ الأَمَانَ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى فِيهَا وَاصِفًا نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ كما في سورة آل عمران: ((فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)). اللهم هذا إسراءُ ومعراجُ حبيبك سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم. قد تعلّقنا بأهدابه. وتشفّعنا إليك بِمَنْ رقى عليه. ولُذْنا بجاهه العظيم وجنابه. أن تشرّفنا بالإنتساب إليه. وتجعلنا من أحبابه. وتكرّمنا من رضاه بما أكرمت به خواصّ رفقائه وأصحابه. وتسقينا كما سقيتهم من كأس مودّته الأوفى. ولذيذ شرابه. واجعلنا اللهم من المنقادين لطاعته. العاملين بسنّته وكتابه. وأسعدنا برؤية وجهه السعيد في الحياة وبعد الممات. وبوِّأْنا معه في أعالي الفراديس وأسمى المقامات. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

21- التّشريفات الرّبانيّة للحضرة المحمّديّة بالتّقريب والمكالمة والمشاهدة العيانيّة

الحمد لله فضّل بعض الأزمنة على بعض. وفضّل بعض الأمكنة. فشرّف أرضا على أرض. وأسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. لِيُرِيَهُ من آياته. ويُدْنِيَهُ من حضراته. ويسمعه كلامه القديم نصّا. وجعل ذلك من أعظم التشريفات التي كان بها صلى الله عليه وسلم مختصّا. فسبحانه من إله صَرَفَ من شاء إلى الهدى. وعطف من شاء على الهوى. قرّب موسى وكلّمه وهو بالوادي المقدّس طوى. وعَرَج بسيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم فرآه بعينه وعاد وفراشه ما انطوى. فأخبر بقربه من ربّه وحدّث بما رأى وروى.

نَبِيٌّ عَظِيمٌ لِلَعَظِيمِ اتِّجَاهُهُ * وَفِي لَيْلَةِ الْمِعْرَاجِ عَنْ رَبِّهِ يَرْوِي

وَأَقْرَبُ مِنْ قَابِ لَقَوْسِيْنِ قُرْبُهُ * لَقَدْ قَامَ بِالإِكْرَامِ فِي الْمَوْقِفِ الْعُلْوِي

وَلاَ مَلَكٌ يَدْنُو إَلَى مَوْضِعٍ دَنَا * وَلاَ مُرْسَلٌ مَنْ ذَا لِمَوْقِفِهِ يَأْوِي

وَهَلْ هُوَ إلاَّ وَاحِدٌ عندَ وَاحِدٍ * لَهُ سِرُّهُ فِي طَيِّ أَسْرَارِهِ مَطْوِي

وَأَوْحَى الذِي أَوْحَى لِعَبْدِ جَلاَلِهِ * وَلَبَّاهُ بِالْحُسْنَى وَعُومِلَ بِالْعَفْوِ

وَمَا بَاتَ إلاَّ وَالْجَلِيلُ خَلِيلُهُ * أَرَى عِزَّ كُلِّ الرُّسْلِ سَيِّدُنَا يَحْوِي

وَسَائِلُ قُرْبِي عندَ أحمدَ أنّه * صفوحٌ عن الجاني عفوٌّ عن الهفْوِ

وَعِزَّةِ رَبِّي إِنَّ قَلْبِي يُحِبُّهُ * فَيَا رَبِّ بَلِّغْنِي زِيَارَةَ مَنْ أَنْوِي

صَلاَتُكَ رَبِّي وَالسَّلاَمُ عَلَى النَّبِي * على عَدِّ ما في السَّفْلِ أيضًا وفي الْعُلْوِ

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. تعالى عن الجهات، وتسامى عن المسافات. لا يحدُّه شرق ولا غرب، لأنّه هو الذي أَوْجد الشرق والغرب، ولا يُوصَلُ إليه بالخُطُوات، ولا تحيط بأوصافه الكلمات، ولا تشير إلى كُنْهِ ذاته العِبارات، جَلَّ في عظمته. وتعالى في قدرته. عنْ أنْ يُحِيط به أَحَد مِنْ خَلْقه إلا بإذنه. فإذا سُئِلْت عنه فقل: هو الموصوف بكل كمال، المنزّه عن كل عيْب ونقْص، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ. وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ. وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه مِنْ خَلْقه وخليله. إختاره الله تعالى لإمامة الأنبياء والمرسلين. وفتح له أبواب مملكته. وأطلعه على عوالم قدرته، وعلى برازخ حكمته، وعلى حقيقة ناره وجنّته، وبعد ذلك كان قُرْبُهُ مِنَ الله وهو على العرش. كَقُرْبِهِ مِنَ الله وهو على الفرش، لأنه سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار، ولا تستطيع أن تراه العيون، إلا إذا تجلّى بفضله على عبده. فأعطاه نوراً مِنْ نوره ينظر به إليه. فيكون ينظر بنور الله إلى الله.

مَا مِثْلُ رُتْبَتِهِ الرّفيعةِ رُتْبَةٌ * في الفخْر والعَلْياءِ والإجْلالِ

كَلاَّ ولا أحَدٌ يُبارِي فضْلَه * مِنْ سائرِ الأملاكِ والأرسالِ

صلّوا عليه وأكْثِروا بصلاتِكم * أبدًا لدى الإبْكار والآصالِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. حامل لواء العزّ والنصر. وعلى آله سادة أهل البدْو والحضر. وصحابته الممدوحين في الآيات والسور. صلاةً تنوّر بها منّا

القلب والسمع واالبصر. وتعصم بها منّا الألْسُنَ والخواطر والفكْر. وتدخل بها علينا نوافح بركاته المحمّديّة بالآصال والبُكَر. وتجعلها لنا تميمة واقية تحمينا بها من الإستدراج والمكر. وتحفظنا ببركتها من صولة الحوادث الوقتية ونكبات الدهر. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. ما أعظم حِكَمَ الإسراء والمعراج، وما أكثر مِنَنَها على المؤمنين، فقد كان مِنْ حِكْمة هذه الرحلة العظمى. إظهارُ كمالِ توحيدِ الله، وأنّه جلّ وعلا ليس في زمان ولا مكان، وفوق الطاقة والإمكان، لا يُظْهِره الحَدَثان. يعني الليل والنهار، ولا تلحظه العيْنان، ولا يخطر ببال أيِّ إنسان. ففي هذه الرحلة. أخذ الله تعالى حبيبه ومصطفاه. سيّدَنا محمدا صلى الله عليه وسلم. من بيته الحرام إلى بيت المقدس حيث صلّى بجميع النبيئين إماماً. ثم عرَجَ به إلى السموات العلى، سماءاً وراء سماء. بل إلى كل العوالم التي أنشأها مكوِّن الأكوان، حتى وصل إلى حيث لا زمان ولا مكان، فالزمان والمكان هنا في حياتنا الدنيا. يحيّزهم ويظهرهم تعاقب الليل والنهار. والشمس والقمر، أما في عوالم الملكوت العليا. فلا شمس ولا قمر. ولا ليل ولا نهار، بل فَلَكٌ دوّار. بأمر الواحد القهّار، لا يعلم قرارَه حتى سكّانُه من الملائكة الأبرار، والكل يُسَلِّم أمْرَه للواحد القهار. فجاب صلى الله عليه وسلم عوالم السماء. عالماً بعد عالم. حتى وصل إلى سدرة المنتهى. وهي التي ينتهي عندها عِلْم الخلائق أجمعين. من الجنّ والإنس والملائكة المقرَّبين. فأوقف الله الرسل في السموات، كل رسول وقف حيث انتهى علمه الذي علّمه اللهُ إيّاه. وأعلاهم قَدْراً سيّدنا إبراهيم خليل الله. عليه السلام. وكان يقف مُسْنِداً ظَهْره إلى البيت المعمور. وراءه ملائكة كل سماء. حيث مكانتهم في الطهر والضياء. وأعلاهم قَدْراً جبريل الأمين، عليه السلام. وقد وقف عند سدرة المنتهى. وقال: إلى هنا انتهى مقامي. قال صلى الله عليه وسلم (يا أخي يا جبريل. أها هنا يترك الخليلُ خليلَه؟). قال: يا محمد. أنا لو تقدّمت قَدْر أُنْمُلَة (مثل طرف الأُصبع) أُحْتُرِقَتُ. وأنتَ لو تقدّمتَ لاَخْتَرَقْتَ، فعَلِم أنّ حدود عِلْمِه عند هذا المكان. وتلا قولَ الله تعالى في سورة الصافات (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ). لأنّ هذا أمرٌ مخصوصٌ بسيِّدِنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وليعلّمنا الله. ويعْلَمَ رُسُلُ الله. وأنبياؤه وملائكته. أنّ هذا النبيّ الكريم صلى الله عليه وسلم أعلاهم عِلْماً، وأفضلُهم مقاماً، وأرفعُهم تكريماً ودرجة عند الله، قال صلى الله عليه وسلم (ثم زُجَّ بي في النور. فخَرَق لي سبعين ألف حجاب. ليس فيها حجاب يشبه حجابا. وانقطع عنّي حِسُّ كلِّ مَلَكٍ

وإنْسِي. فإذا النداء من العليِّ الأعْلى: أُدْنُ يا خير البرية. أُدْنُ يا أحمد، أُدْنُ يا محمد، فأدناني ربّي حتى كنتُ كما قال تعالى في سورة النجم (ثُمَّ دَنَا فَتَدلَّى فَكان قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى). فألهمني الثناء عليه فقلتُ (التّحيّات المباركات. والصلوات الطيّبات لله)، فقال تعالى: (السلام عليك أيّها النبيء ورحمة الله وبركاته)، فعمّم صلى الله عليه وسلم سلامَ الحقّ فقال (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)، فردّد جبريل وحملةُ العرش وسكّان الحظيرة القدْسيّة وقالوا: أشهد أن لا إله إلاّ الله. وحده لا شريك له. وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله. صلى الله عليه وسلم.

اللّهُ عَظَّمَ في الوجودِ محمّداً * وَأباحَهُ سِرًّا لَدَيْهِ مُكَتَّمَا

طوبى لسامعِ مَدْحهِ ومُعَزْبِدًا * في حبِّه صلّى عليهِ وسَلَّمَا

اللهم صل وسلّم وبارك على هذا النبيّ العظيم، الذي قال فيه ربُّ العزّة في سورة الضحى: ((وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)). فكان صلّى الله عليه وسلم مِنَ القُرْب مِنْ ربّه بالمكانة الفيحاء. وأَوْحى سبحانه إلى عبْده ما أَوْحى. كلّت الأقلام عن تفصيل ما أوحى. وتاهت الأحلام في تعيين تلك الآية الكبرى. يقول الإمام البوصيري رحمه الله في همزيته:

فَصِفِ اللَّيْلَةَ التِي كَانَ لِلْمُخْ*ــتَارِ فِيهَا عَلَى البُرَاقِ اسْتِوَاءُ

وَتَرَقَّى بِهِ إِلَى قَابِ قَوْسَيْــ*ــنِ وَتِلْكَ السِّيَّادَةُ الْقَعْسَاءُ

رُتَبٌ تَسْقُطُ الأَمَانِيُّ حَسْرَى * دُونَهَا مَا وَرَاءَهُنَّ وَرَاءُ

قال صلى الله عليه وسلم: وأَوْرثني عِلْم الأوّلين والآخِرين. وعلّمني علوما شتّى. فعِلْم أخذ عليَّ كتمانه. إذ عَلِم أنّه لا يقدر على حمله أحَدٌ غيري. وعِلْم خيّرني فيه. وعَلَّمني القرآن. فكان جبريل عليه السلام يذكّرني به. وعِلْم أمرني بتبليغه إلى العام والخاصّ مِنْ أُمَّتي. ومن جملة ما أَوْحَى في هذا الموْطِن من القرآن: خواتيم سورة البقرة. وبعض سورة والضحى. وبعض سورة ألم نشرح. وقولَه تعالى في سورة الأحزاب: ((هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)). والوحي بلا واسطة يقتضي الخطاب. فسمِع صلى الله عليه وسلم كلامَ الحقِّ تبارك وتعالى من غير كيفيّة. كما سمعه سيّدنا موسى عليه السلام من كل جانب. ورحم الله ابن رشيد البغدادي إذ يقول في وِتْريّاته:

تَدَانَى فَأَدْنَاهُ إِلَى الْعَرْشِ رَبُّهُ * وَقَالَ تَقَدَّمْ يَا وَحِيدَ مَحَبَّتِي

تَلَذَّذْ بِنَا وَاسْمَعْ لَذِيذَ خِطَابِنَا * وَعَيْنَيْكَ نَزِّهْ فِي عَجَائِبِ قُدْرَتِي

تَرَى الْعَرْشَ وَالْكُرْسِيَ وَالْحُجْبَ قَدْ بَدَتْ * لَدَيْكَ وَأَنْوَارِي عَلَيْكَ تَجَلَّتِ

تَأَنَّسْ بِنَا هَذَا الْوِصَالُ وَذَا اللِّقَا * مُحِبٌّ وَمَحْبُوبٌ وَسَاعَةُ خَلْوَةِ

تَقَرَّبْ وَلاَ تَجْزَعْ وَأَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ * وَسَلْ تُعْطَ عِنْدِي أَنْتَ سَيِّدُ صَفْوَتِي

تَعَالَيْتَ قَدْراً عِنْدَنَا وَمَكَانَةً * وَذِكْرُكَ مَرْفُوعٌ فَحَدِّثْ بِنِعْمَتِي

صَلاَتُكَ رَبِّي وَالسَّلاَمُ عَلَى النَّبِي * وَآلِهِ والصَّحْبِ الْعُلَا خَيْرَ أُمَّةِ

أيّها المسلمون. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في جسده وروحه. ولبّه وفؤاده. له نورانية صافية. حتى انقلب صلى الله عليه وسلم سمْعا خالصا يسمع صريف الأقلام. وعجائب ما يجري في الملأ الأعلى. وانقلب بصرا خالصا تُكْشف له الآيات الكبرى. ومعالم أمجاد الألوهية العظمى. فازدادت نورانية روحه الشريفة. صلى الله عليه وسلم. وانعكست على جسده. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربانيّا خالصا. بعِلْم مِنَ الله، ونورٍ من الله، وقُدْرة من الله. يقول فيها الله تعالى في حديثه القدسي. الذي يرويه سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه. وأورده الإمام البخاري ومسلم في صحيحَيْهما. قال تعالى: ((مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ. ولا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأعْطِيَنَّهُ، وَإِنِ اسْتَعَاذَنِي لأعِيذَنَّهُ)). أخرج النّسائي في سننه. والحاكم في مستدركه. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: أتعجبون أنْ تكون الخُلّة لإبراهيم. والكلام لموسى. والرؤية لمحمّد. صلّى الله عليه وسلّم. قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم: الراجح عند أكثر العلماء أنّه صلى الله عليه وسلم رأى ربّه بعيني رأسه. أيّها المسلمون. هنا لنا وقفة. لتصحيح مفهوم الرؤية للحقّ جلّ وعلا. فرؤية الله تعالى ممكنة عقلاً. دنيا وأخرى. فالله تبارك وتعالى موجود. وكل موجود يصحّ أنْ يُرى. لكن لم تقع في الدنيا إلاّ لنبيّنا سيّدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم. وواجبة شرعا في الآخرة. للمؤمنين دون

الكافرين. بلا كيف ولا انحصار. فالحقّ سبحانه منزّه عن المكان والجهة. قال الشيخ اللقاني في جوهرة التوحيد:

وَمِنْهُ أَنْ يُنْظَرَ بِالْأَبْصَارِ * لكِنْ بِلاَ كَيْفٍ وَلاَ انْحِصَارِ

لِلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بِجَائِزْ عُلِّقَتْ * هذا وَلِلْمُخْتَارِ دُنْيَا ثَبَتَتْ

وقد تظاهرت أدلّة الكتاب والسنّة وإجماع الأمّة على ذلك. قال تعالى في سورة القيامة: ((وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)). ومعنى ناضرة الأولى أي حسنة جميلة. وهو صفة للوجوه. وناظرة الثانية من النظر أي الرؤية. وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ. فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا. أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ. وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ. قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ. فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ. وهي الزيادة. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ التي في سورة يونس: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)). وقال الإمام القرطبي في تفسيره لسورة المطفّفين عند قوله تعالى: ((كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ)). قَالَ الزَّجَّاج: فِي هَذِهِ الْآيَة دَلِيل عَلَى أَنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ يُرَى فِي الْقِيَامَة. وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا كَانَ فِي هَذِهِ الْآيَة فَائِدَة. وَلَا خَسَّتْ مَنْزِلَة الْكُفَّار بِأَنَّهُمْ يُحْجَبُونَ. وَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ في سورة القيامة: ((وُجُوه يَوْمئِذٍ نَاضِرَة إِلَى رَبّهَا نَاظِرَة)). فَأَعْلَمَ اللَّه جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ. وَأَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّار مَحْجُوبُونَ عَنْهُ. وَقَالَ الإمام مَالِك بْن أَنَس رضي الله عنه فِي هَذِهِ الْآيَة: لَمَّا حَجَبَ أَعْدَاءَهُ فَلَمْ يَرَوْهُ تَجَلَّى لِأَوْلِيَائِهِ حَتَّى رَأَوْهُ. وَقَالَ الإمام الشَّافِعِيّ رضي الله عنه: لَمَّا حَجَبَ قَوْمًا بِالسُّخْطِ. دَلَّ عَلَى أَنَّ قَوْمًا يَرَوْنَهُ بِالرِّضَا. ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاَللَّهِ لَوْ لَمْ يُوقِنْ مُحَمَّد بْن إِدْرِيس أَنَّهُ يَرَى رَبَّهُ فِي الْمَعَاد لَمَا عَبَدَهُ فِي الدُّنْيَا. وكذلك فإنّ رؤيته تعالى في الدنيا ممكنة، ولذا طلبها سيّدنا موسى عليه السلام، فعلّق الله تعالى حصولها له بأمر جائز عقلا. وهو استقرار الجبل حين يتجلّى الله عليه، قال تعالى في سورة الأعراف: ((قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)). فلو كانت الرؤية ممتنعة في الدنيا ما سألها سيّدنا موسى عليه السلام. لأنّه نبيّ يعلم ما يجب في حقّ الله تعالى. وما يستحيل وما يجوز. إذ لا يجوز على أحد من الأنبياء الجهل بشيء من أحكام

الألوهية. لكنّه سألها سيّدنا موسى عليه السلام. فدلّ على أنّها جائزة. وقد وقعت رؤيته تعالى في الدنيا ليلة الإسراء والمعراج لحبيبه ومصطفاه سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم. أخرج البخاري والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى في سورة الاسراء: ((وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ)). قال: هي رؤيا عين أُرِيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسْرِيَ به، والشجرة المعلونة في القرآن، قال: هي شجرة الزّقّوم. ورحم الله ابن رشيد البغدادي إذ يقول في وتريّاته:

عَلِيٌّ عَلاَ فَوْقَ الْعُلاَ يَطْلُبُ الْعُلاَ * وَأَمْسَى بِوَحْيِ اللهِ سِرًّا يُمَتَّعُ

عَزِيزٌ سَرَى يَبْغِي الْعَزِيزَ فَغودِرَتْ * لَهُ الأَرْضُ تُطْوَى وَالْمَعَارِجُ تُوضَعُ

عَلِمْنَا بِأَنَّ اللهِ رَقَّى مُحَمَّدَا * إِلَى مَوْضِعٍ مَا فِيهِ لِلْخَلْقِ مَوْضِعُ

عُرَى الْعَرْشِ أمسى مَاسِكًا بِيَمِينِهِ * وَمِنْ رَبِّهِ يَلْقَى الْكَلاَمَ وَيَسْمَعُ

عَلَى قول قَوْمٍ عَايَنَ اللهَ جَهْرَةً * بِهذَا ابْنُ عَبّاَسٍ يَدِينُ وَيَقْطَعُ

وَلاَ أَخَذَتْهُ عِنْدَ رُؤْيَاهُ صَعْقَةٌ * عَلَى وَجْهِهِ نُورٌ مِنَ اللهِ يَلْمَعُ

عَسَى اللهُ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ وَمَدْحِهِ * يُدَارِكُنِي بِالْعَفْوِ وَالْجُودُ أَوْسَعُ

صَلاَتُكَ رَبِّي وَالسَّلاَمُ عَلَى النَّبِي * صلاةً وتسليما بها نتمتَّعُ

وأمّا قوله تعالى في سورة الأنعام: ((لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ)). فالمراد به لا تحيط بحقيقة ذاته العليّة. وهنا نستنتِج جواز رؤيته جل وعلا. إلاّ أنّنا لا نطيقها في الحالة البشرية. وأمّا مَنْ تغيّر عن الحالة البشرية يستطيع أن يشاهد ربّه في نوم أو غَيْبة في الأحوال. وقد وقعت لكثير من الأولياء ولم تُنْكَر. وأمّا مَنْ قال شاهدتُ ربّي بعين بصري فهو كافر يجب قتله. وقد قال بعض الصوفيّة إنّه رأى ربّه في منامه على وصفه. فقيل له: كيف رأيته؟ فقال: انكعس بصري في بصيرتي فصرتُ كلّي بصرا. فرأيت مَنْ ليس كمثله شيء. قال ابن دِحْيَة في تأليفه (الإبتهاج في أحاديث المعراج) خُصَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالرؤية والمكالمة. لأنّه صاحب الشفاعة فى القيامة، فحصل له ذلك قَبْلها لئلا يقع له حِشْمة البديهة. كما يقع لغيره من الأنبياء. أيّها المسلمون. وهذا محلٌّ تَزْلَق فيه أقدام مَنْ لا يَعْلَم. فيُضِلّون

ويعتقدون أنّ اتصال رسول الله صلى الله عليه وسلم بربّه اتّصال قُرْب جهة أو مُماسّة أو ملاصقة. وهو محال. وإنّما هو اتّصال مودّة ومحبّة وقرب. ولذلك تفضّل عليه وعلينا في هذه الرحلة العظمى. بالصلاة. حتى نَعْلَم عِلْم اليقين أنّ القرب بيننا وبين الله تعالى ليس قرب زمان. ولا تلاشي مسافات. ولا إذهاب حدود. ولا اتّجاه إلى جهات. وإنّما القرب بينك وبين الله. أنْ تُدْنِيَ قلْبَك في مناجاتك لحضرة ربّك. قال سيدنا موسى عليه السلام وهو يكلّم مولاه: يا ربّ أين أجدك؟ قال: تجدني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي. أي في قلوب المؤمنين، وفي إيقان الموقنين، وفي إسلام المسلمين، فعندما يعلم المرء منّا أنّ عينَ الله ترعاه، وأُذْن الله تسمع حديثه ونجواه، والله مطّلع على كل ظاهره وخفاياه. كما قال تعالى في سورة طه: ((وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)). يكون في هذا الحال مع الله بلا زمان ولا مكان. ولا حَيْطة ولا إمكان. قال تعالى في سورة الحديد: ((هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)). فإذا اتّجه إلى أيّ جهة وقال: يا رب، سمع نداه ولبّاه. وقال: لبّيك عبدي لك ما تريد منّي. قال تعالى في سورة البقرة: ((وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)). وفي هذا يقول سيّدنا جعفر الصادق رضي الله عنه: كلما احتجتُ إلى شيء قلتُ: يا ربّ. عبدُك جعفر يحتاج إلى كذا. فما أسْتَتِمُّ كلامي إلا وأجِد هذا الشيء بجواري. وقال الإمام علي رضي الله عنه وكرّم وجهه عندما سألوه كيف حالك مع الله؟ قال: إذا دعوتُ أجابني، وإذا طلبتُ أعطاني، وإذا سكتُّ افتتحني بالكلام. أيّها المسلمون. كان فضل الله علينا بالإسراء عظيماً، فإنّ مَنْ قبلنا قد ضلّوا الطريق. فجعلوا حائطاً للبكاء لِمَن أراد أنْ تُمحى ذنوبه، ولا تمحى إلا إذا ذهب إلى هذا الحائط وبكى الدموع، والآخرين جعلوا التوبة مربوطة بقلْب رجُل يذهبون إليه. ويجلسون بين يديه. ويعترفون له دون الله بذنوبهم. وفي يده محو ذنوبهم أو عدم قبول توبتهم، لكن الله تجلّى لنا فلم يجعل بيننا وبينه مكان ولا زمان. ولا حاجز ولا حائط. وإنما الله معنا حيثما توجّهنا. وهو في قبلتنا إذا صلّيْنا، ويسمع نداءنا إذا ناديْنا. وعلى أيّ حال كنّا، وفي أيّ زمان كنّا، سُئل رجل من الصالحين عن أقرب ما يكون العبد من ربّه؟ قال: أما سمعتم قول رسولكم صلى الله عليه وسلم: ((أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ)). فكانت حِكْمة الصلاة لِنَعْلَم أنّ الله معنا. فالصلاة هاتف محمول. لا تدفع له الرسوم. وليس له

وقت معلوم، تخاطب به في أيّ زمان ومكان الحيّ القيّوم، وتجده أقرب إليك من كل شيء، نجدة إلهية. لِمَن يستغيث بها في كل بليّة. قال قوم يا رسول الله: أَرَبُّنا قريب فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فنزل في الحال. قول الله الكبير المتعال. في سورة البقرة: ((وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)). فسبحان مَنْ خَصَّ هذا الحبيب. بخِلَعِ التشريف والتّقريب. وجعله قِبْلة للطاعة. وكعْبة للشّفاعة. اللّهمّ إنّا نسألك ونتشفّع إليك بأسرار المحبّين. وبالخَلْوة التي خصّصت بها سيّد المرسلين. صلى الله عليه وسلم. حين أَسريتَ به ليلة السّابع والعشرين. أكتبنا عندك من خدّام مقامه الشريف وسدنة أبوابه. وحطّ عنّا أعباء الكسل حتى ننشط لامتثال أوامره وسماع خطابه. اللهم اجمع شملنا بجميل رضاه وكمال عطفه. وأنشِقْنا نوافح رحماته المحمّدية. ونواسم لطفه. وأنظِمْنا في سِلْك حِزْبه وعصابته. وأرضِعْنا ثدْيَ سنّته الأحمدية. وحقائق إصابته. وغطّنا بأردية عزّه وعنايته. وحطّنا في بحور هدايته وولايته. واصعَد بنا إلى سماء الهدى والتوفيق على معارجه. واجعل آخر دقيقة من خروج روحنا على ملّته الحنفيّة وسلوك منهاجه. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

22- فضل الله ذو المنّة على سادتنا الأنصار بسكناهم المدينة لسابق علمه لينصروا دينه

الحمد لله يخلُق ما يشاء ويختَار. النافذ قضاؤه بما يجري من الأقدار، اصطفى للشَّرف من شاءَ مِنَ الأخيَار، اختار رسوله سيّدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بعلمه، وائتمنه على وحيه، واختار له خير العباد أعوانا، قذف في قلوبهم تصديقه ومحبّته، فآمنوا به وعزّروه ووقّروه، وجاهدوا في الله حق جهاده، فاستشهد لله منهم من استشهد، على المنهاج الواضح، والبيع الرابح، وتوفي منهم من توفي على الحق الناصع، والتوحيد الناصح، ((أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)). فسبحانه من إله اصطفى مَن شاء مِن خلقه. واجتبى مِن الأمم لشرعه وهدايته. مَن سبقت لهم السعادة. الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ. المُؤْثِرُونَ عَلَى

أَنْفُسِهِمْ في كل الأحوال والأحيان. الفائزين بسابقتي النصر والإيواء. أنصار الله وأنصار رسوله صلى الله عليه وسلم. الذين اصطفاهم الله له أصحابا وإخوانا. وجعلهم أنصارا على إظهار دينه وأعوانا. يعبّر عن هذا شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم. المؤيَّد بروح القُدُس. سيّدنا حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه فيقول :

سَمّاهُمْ اللهُ أَنْصَارًا بِنَصْرِهِمُ * دِينَ الْهُدَى وَعَوَانُ الْحَرْبِ تَسْتَعِرُ

وَسَارَعُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْتَرَضُوا * لِلنّائِبَاتِ وَمَا خَافوا وَمَا ضَجِرُوا

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. يُعِزُّ مَنْ أطاعه واتّقاه، وينصره على مَن عاداه، ويقيم به للحقّ دولة. وللدين قَوْمة، وللإسلام صَوْلة، وللقرآن جَوْلة. فَهُمْ خاصّة عباده، وغَرْسُ بلاده، يَصْرِفُ عنهم البلايا، ويخصّهم بالخيرات والعطايا، فهُمْ القائمون بإظهار دينه، والمتمسّكون بسنّة نبيّه، صلى الله عليه وسلم. وأشهَدُ أَنَّ سيّدَنا مُحمّداً عَبدُهُ ورَسولُهُ، وصفيّه مِنْ خَلْقه وخليله. زين المرسلين الأخيار. وقدوة السادة الأبرار. الذي قال في خطبته يوم حُنَيْن في حقّ سادتنا الأنصار: ((الْأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي. أي بطانتي وخاصتي، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي رِحَالِكُمْ. فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ. وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ. اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ. وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ. وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ)). فصلّ اللهم وسلِّم وبارك على سيّدنا محمد. الذي لعظيم جاهه وعلوّ مكانته وقُربه. وكمال عنايته وكرامته على ربّه. تشرّفت أُمّته الكريمة المرحومة على سائر الأمم. وعلى آله ينابيع الجود والكرم. وصحابته الطيّبين الأخلاق والشِّيَم. صلاة تنزل بها علينا ببركتهم موائد الخير والنِّعَم. وتدفع بها عنّا بعنايتهم عوارض الآفات والنِّقَم. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ لله تعالى خواص. في الأزمنة والأمكنة والأشخاص. يحكم ما يشاء ويختَار. قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى في أحكام القرآن: بَعَثَ اللَّهُ سيدنا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاه اسْمًا شَرِيفًا، وَهُوَ نَبِيٌّ، رَسُولٌ إلَى سَائِرِ أَسْمَائِهِ الكريمة، وَأَعْطَى مَنْ آثَرَ دِينَهُ عَلَى أَهْلِهِ وَمَالِهِ اسْمَ الْمُهَاجِرينَ، وَأَعْطَى مَنْ آوَى وَنَصر اسْمَ الْأَنْصَار، وَعَمَّهُمْ بِاسْمٍ كَرِيمٍ شَرِيفِ الْمَوْضِعِ وَالْمَقْطَعِ، وَهُوَ الصُّحْبَة، وَأَعْطَى مَنْ لَمْ يَرَهُ

حَظًّا فِي التَّشْرِيفِ بِاسْمٍ عَامٍّ يَدْخُلُونَ بِهِ فِي الْحُرْمَةِ، وَهِيَ الْأُخُوَّةُ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وَدِدْتُ أَنِّي رَأَيْت إخْوَانَنَا. قُلْنَا: أَلَسْنَا بِإِخْوَانِك يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدُ)). فَمَنْ دَخَلَ فِي الْهِجْرَةِ أَوْ تَرَسَّمَ بِالنُّصْرَةِ فَقَدْ كَمُلَ لَهُ شَرَفُ الصُّحْبَةِ، وسادتنا الأنصار رضي الله عنهم سبقت لهم من الله تعالى العناية في الأزل. بأن يكونوا أنصارا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم في نشر هذا الدين. حيث تحمّلوا مسئوليّته والدعوة إليه منذ لقاء العقبة الأولى. حين عرض رسول الله صلي الله عليه وسلم نفسه لأهل المدينة. وكانوا ستة نفر. وما مضي عام حتى أنه لا يوجد بيت بالمدينة إلا ودخله الإسلام. قال الله تعالى في سورة الأنعام: ((أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ)). أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ((فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ)) يعني أهل مكة. يقول: إن يكفروا بالقرآن ((فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ)). يعني أهل المدينة من الأنصار. لأنّ الله عزّ وجلّ أدخل في قلوب الأنصار الإيمان. وخصّهم بالكرامة. وسمّاهم أنصار الله وأنصار رسوله صلي الله عليه وسلم. وأثبت لهم الإيمان الحق. وأعطاهم المغفرة والرزق الكريم والولاية. قال الله تعالى في سورة الأنفال: ((وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيم)). وقال أيضا: ((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ)). فذكر سبحانه المهاجرين بالجهاد بالمال والنفس. وذكر معهم الأنصار بالإيواء والنصر. ووصف الفريقين معاً بولاية بعضهم لبعض. وأثبت لهم معاً حقيقة الإيمان. ((أُولَائِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً)). أي الصادقون في إيمانهم. فاستوى الأنصار مع المهاجرين في عامل النصرة وفي صِدق الإيمان. وقال سيّدنا حسّان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه في مدح الأنصار :

سَمّاهُمْ اللّهُ أَنْصَارًا بِنَصْرِهِمُ * دِينَ الْهُدَى وَعَوَانُ الْحَرْبِ تَسْتَعِرُ

وَسَارَعُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْتَرَضُوا * لِلنّائِبَاتِ وَمَا خَافوا وَمَا ضَجِرُوا

أخرج ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَدْخَلَ قُلُوبَكُمُ

الإِيمَانَ، وَخَصَّكُمْ بِالْكَرَامَةِ، وَسَمَّاكُمْ أَنْصَارَ اللَّهِ وَأَنْصَارَ رَسُولِهِ)). صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أيّها المسلمون. ذكر أهل السِّيَرِ والتاريخ: أنّ الأوس والخزرج قدموا المدينة المنوّرة بعد استيطان قبائل اليهود بها. والتي قد اختلفت نيّاتهم في استيطان المدينة. فكان قصْد فريق منهم دينيا بحتا. وهو إدراك النبي الخاتم المبعوث من مكة. وهذه البلدة هي مُهاجَره ليتّبعوه. فإنّ فريقا آخَر منهم إنّما قدموها هربا ممّا حلّ بهم في بلاد الشام. كما أنّ فريقا آخر لم يكن قصْدهم إلا الدنيا فقط. أمّا الأوس والخزرج فقد ساقهم قدرُهم الذي حتّمه الله تعالى عليهم. ليكونوا أنصارَ رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأنصارَ دينِه. يروي أهل السِّيَرِ: أنّ تُبَّعًا مَلِكَ اليمن غزا المدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها بثلاثمائة سنة. ولمّا همَّ بدخولها خرج إليه أحبار اليهود وقالوا له: إعلم بأنّك لن تتمكّن من دخولها. لأنّها مُهاجَرُ نبيٍّ يبعثه الله في آخر الزمان. يخرج من هذا الحرم من قريش أي مكة المكرمة. تكون داره وقراره، واسمُه محمدٌ صلى الله عليه وسلم، ووصفوهُ له حسْب ما وردِ في الكتب القديمة. فاستشار مَنْ معه مِنَ العلماء. وكانوا أربعمائة عالم. هم أجداد الأنصار من الأوس والخزرج، فأقرّوا بذلك. فبقيَ الملِكُ تُبّع معهم سنةً لعلّه يُدرِكُ خروجَ النبيّ الكريم عليه الصلاة والسلام. وبنى بالمدينةِ أربعمائة دارٍ لكلِ واحدٍ منَ العلماء الذين أرادوا البقاءَ هناك وملّكه له. وبنى لكبيرهم بيتاً مِنْ دَوْرَيْن، وسلّمه له. وأعطاهم مالاً كثيرا وزوّجهم، ولما مرَّ العام ولم يظهر النبي صلى الله عليه وسلم، كتبَ كتابًا وختمه بخاتم من ذهب، ودفعه إلى عالمهم الكبير، وأمره أنْ يدفعَ الكتابَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم إنْ أدركه، وإلا فيوصي به أولاده مثل ما أوصاه به، وكذلك الأولادُ حتى يتّصلَ بالنبي صلى الله عليه وسلم. وهو جدُّ سيِّدِنا أبي أيّوب الأنصاري رضي الله عنه. وكان في ذلك الكتاب: أمّا بعد، فإنّي آمنتُ بكَ، وبكتابكَ الذي أُنزلَ عليك، وأنا على دينك وسُنَّتِكَ، وآمنتُ بربّك وبكلّ ما جاء من ربّك من شرائع الإيمان والإسلام، فإنْ أدركتكَ فبها ونعمتْ، وإلا فاشفع لي ولا تنسني يومَ القيامة فإنّي من أمّتك الأوّلين، وقد بايعتكَ قبل مجيئكَ، وأنا على ملّتكَ وملّة أبيكَ إبراهيم عليه السلام. ثم ختم الكتاب، ونقش عليه:(لله الأمر من قبلُ ومن بعد). وكتب عنوانه: إلى محمد بن عبد الله ونبي الله ورسوله وخاتم النبيّين، ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم. من تُبَّع الأوّل الحِمْيَرِيّ. وقال شعرا في النبي صلى الله عليه وسلم:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّه * رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَارِي النَّسَمْ

فَلَو مُدَّ عُمْري إلى عُمْرِهِ * لَكُنْتُ نصيرا له وابن عَمْ

وَجَاهَدْتُ بالسَّيفِ أعْدَاءَهُ * وَفرَّجتُ عَنْ صَدْرِه كُلَّ غَمْ

وروى الإمام أحمد في المسند عن سهل بن سعد رضي الله عنه. أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لَا تَسُبُّوا تُبَّعًا، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ أَسْلَمَ)). وفي تاريخ ابن كثير: أنّه أوّل مَنْ كسا الكعبة. أيّها المسلمون. أمّا الأنصار من الأوس والخزرج ما كانوا يعلمون شيئا عن مكانة المدينة المنورة. إلا ما سمعوه من اليهود. حيث كان اليهود يستفتحون عليهم برسول الله صلى الله عليه وسلم. وأنّهم سيقتلونهم معه قتْل عاد وإرم. فلمّا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحق الذي يعرفونه كفروا به. قاتلهم الله. ولعنهم على كفرهم. وهذا هو دأب اليهود دائما. وقد ذكر الله تعالى ذلك في سورة البقرة. فقال سبحانه: ((وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ)). فقد كانوا عندما تَحْدُثُ بينهم وبين أيِّ قبيلة حرْب. يقولون كما قالت السيرة العطرة: (اللهم بحقّ النبي الذي ستبعثه في آخر الزمان انصرنا عليهم) فينصرهم الله تعالى، وهذا معنى الآية ((وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ)). أيْ يطلبون به النّصر فينصرهم الله. فلمّا بعث الله عزّ وجلّ رسوله المصطفى الكريم صلى الله عليه وسلم من قريش ولم يكن من بني إسرائيل وهم يعلمون أنّه ليس منهم كفروا به. ((فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ)). أيّها المسلمون. هذه سابقية العناية الإلهية بسادتنا الأنصار. رضي الله عنهم. وتخصيص الله لهم من بين جميع المخلوقات بأن يكونوا أنصارا لرسوله صلى الله عليه وسلم. وأنصارا لدينه. ((ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ. وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)). وما ننعم فيه اليوم من نعمة الإسلام، فلهم فيه الفضل الأكبر. واليد الطولى. فرضي الله عنهم أجمعين. فحقّ على كل من علم مكان عزّهم وقربهم. أن يتوسّل إلى الله تعالى بهم. ويتقرّب إليه جلّ جلاله بما ينطوي عليه الضمير من حبهم. اللهم إنّا نتقرّب إليك بحبّنا لهؤلاء الأماجد. فاجمعنا اللهم بهم في الفردوس الأعلى. ووالدينا وأزواجنا وذرياتنا. مع الذين أنعمت عليهم من النبيئين والصّدّيقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقا. في زمرة نبيّنا سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

23- الفرحُ والإستبشار وابتهاجُ أهلِ المدينة سادتِنا الأنصار بقدوم نبيّنا المصطفى المختار صلَّى عليه ربُّنا الغفّار

الحمد لله فاتِح الأبواب. وميسِّر الأسباب. وهادي مَنْ سبقت له السعادة إلى طريق الرُّشْد والصواب. نحمده سبحانه وتعالى أن امتنّ علينا بمحبّة حبيبه الأطهرْ. سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم سيّد البشر. وأكرمنا بمعرفة سيرته النبوية. التي فاز مَنْ أمعن في تحصيلها النظر. وجعل دلائل نبوّته وبِعْثَته وهِجْرته وحُسْن سيرته مِنْ أجلّ ما يُتَشَرَّف بعِلْمه في الدارَيْن ويُفْتَخَرْ. فسبحانه من إله عمّر سرائر مَنِ اصطفاهم بأسرار المحبّة المحمّدية. وجبل أخلاقهم على خدمة سيادته الأحمدية. فطاروا بجناح الشوق ليشاهدوا جمال طلعته البهيّة. ويتنعّموا في محاسن شمائله النبويّة. ويشربوا من كأس مودّته المصطفوية. ورضي الله تعالى عن سيِّدِنا حسّان ابنِ ثابت الأنصاري إذ يقول واصفا النبيَّ صلى الله عليه وسلم :

لَمّا نَظَرْتُ إِلَى أنْوَارِهِ سَطَعَتْ * وَضَعْتُ مِنْ خِيفَةٍ كَفِّي عَلَى بَصَرِي

خَوْفًا عَلَى بَصَرِي مِنْ حُسْنِ صُورَتِهِ * فَلَسْتُ أنْظُرُهُ إلاّ عَلَى قَدَرِ

الأنوارُ مِنْ نوره في نوره غَرِقَتْ * والوجهُ منه طلوعُ الشمس والقمرِ

روحٌ من النُّور في جسْمٍ من القمر * كحُلَّةٍ نُسِجَت في الأنْجُمِ الزُّهُرِ

لَوْ لَمْ تكن فيه آيةٌ مُبَيَّنَةٌ * لكان منظَرُه يُغْني عن الْخَبَرِ

صلّوا عليه لعلّ الله يرحمُنا * يوما تلظّى وترمي النارُ بالشررِ

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. نظر بعين اصطفائه إلى البلدان. فخصّ المدينة المنوّرة بأن جعلها دار الإيمان. وفضّلها بهجرة وسكنى نبيّه صلّى الله عليه وسلّم على كل مكان. وشرّف أهلها بنُصرة دينه. فحازوا لقب الأنصار على مرّ الزمان. ووعدهم بالسعادة التي ختم بها لأوليائه. مع المُنْعَم عليهم من النبيئين

والصدّيقين في فراديس الجِنان. فقال عزّ وجلّ في سورة التوبة: ((وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)). وأشهَدُ أَنَّ سيِّدَنا مُحمّداً عَبدُهُ ورَسولُهُ، وصفيّه مِنْ خَلْقه وخليله. الذي مِنْ طِيبِه طاب ذِكْرُ المدينةِ المنوّرة. طَيْبَة الطَّيِّبَة. وافتخرت الأَلْسُنُ بمدحها وثنائها. ومِنْ نوره نمت الخيرات والبركات في أرجائها.

إِنَّ المَدِينَةَ والدُّنْيا تُضِيءُ بِهَا * كَالشَّمْسِ قَدْ نَوَّرَتْ وَجْهَ السَّمَاوَاتِ

لَوْ لَمْ تَكُنْ خَيْرَ أَرْضٍ مَا أَقَامَ بِهَا * خَيْرُ البَرِيَّةِ فِي حُبٍّ وَمَرْضَاةِ

أَتَى المَدِينَةَ فازْدادَتْ بِهِ شَرَفَاً * وَفَاقَتِ الأَرْضَ فِي كُلِّ المَجَالاَتِ

مِنْهُ المَدِينَةُ قَدْ صَارتْ مُنَوَّرَةً * فَهُوَ فِيهَا سِرَاجٌ مُشْرِقُ الذَّاتِ

يَا رَبِّ فَاجْعَلْ بِهَا قَبْرِي وَمَنْزِلَتِي * وَاغْفِرْ بِحُبِّي لَهَا ذَنْبِي وَزَلاَّتِي

حَتَّى أَنَالَ بِحُبِّ المُصْطَفَى فَرَجاً * وَأَنْ أَنَالَ بِهِ خَيْرَ الشَّفَاعَاتِ

إخواني صلّوا على هذا النبيّ الكريم. بقدر محبّتكم فيه. وارفعوا أصواتكم بها. فإنّها ترضي الله وترضيه. اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على سيّدنا محمّد. لَبِنَةِ التمام. ومِسْكِ الخِتام. وإمامِ طَيْبَةَ والحرام. وعلى آله البررة الكرام. وصحابته نجومِ الهداية ومصابيح الظلام. صلاة دائمة لا انقضاء لها ولا انصرام. تتوالى على ضريحه المُنوَّر على ممرّ الليالي والأيّام. وتعودُ بركتُها علينا ببلوغ القصد ونَيْل المرام. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. يقول الله تعالى في سورة غافر: ((إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)). فذا وعْدٌ كريمٌ من الله العزيز الحكيم. وعَدَ فيه بالنّصر عبادَه المؤمنين. وحزْبَه المفلِحين. وقد أكّد هذا الوعد بإنَّا. وزاد تأكيدَه بلام التوكيد. ((إِنَّا لَنَنصُرُ)). وليس الرُّسُل وحْدَهم ولكنّه سبحانه شَمِلَنا معهم. أي نحن ننصر الرسل والمؤمنين الذين معهم، في الدنيا وفي الآخرة. هذا الوعد ظهر بأجْلَى مظهرِه في هجرة سيّدِنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فالكُفْر كلُّه تحدّى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم. ووقفوا جميعاً ضدَّه. حتى كان عليه الصلاة والسلام يتجشّم الصعاب هو وأصحابهُ من أجل أن يبلّغَ دعوة الله، ولم يعبأ بكل ما جهّزه له أعداءُ الله.

إعتماداً على مولاه. وتحصّناً بحصون كتاب الله. واعتزازاً بشَرْع الله. فصدق فيه قولُ الله عزَّ وجلّ في سورة الطلاق: ((وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ (أيْ كافيه) إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهُ. قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)). فأيّده سبحانه بالمهاجرين، أهل مكة. وأيّده بالأنصار، أهل المدينة المنوّرة. بل وأيّده بأُناس قَبْلَه. جهّزوا له المكان الذي سيسكنه. فالهجرة إلى المدينة المنوّرة كان يعلمها عليه الصلاة والسلام من قَبْل. من ساعة ما نزل عليه الوحي. وأخذته زوجته السيّدة خديجة رضي الله عنها إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل. وقال له: ليتني أكون فيها جَذَعاً (يعني شابّاً فَتِيّاً) عندما يُخْرِجُكَ قوْمُك. فقال: أَوَ مُخْرِجِي هم؟ قال: نعم. ما أُرْسِل رسول بما أُرْسِلْتَ به إلاّ أخرجَه قوْمُه. حتى المكان الذي هاجر إليه صلى الله عليه وسلم كان يعلمه مَنْ سبقه من الأنبياء والمرسلين. ولذلك يروي لنا القرآن الكريم أنّ اليهود تركوا بلاد الشام وجاءوا إلى المدينة المنوّرة مترقّبين ظهور النبي الذي قَرُب زمانُه. وعندهم صفاتُه. وكانوا يرجون أن يكون منهم. وقد ذكر الله ذلك في سورة البقرة. فقال سبحانه: ((وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ)). فقد كانوا عندما تَحْدُثُ بينهم حرْب وبين أيِّ قبيلة يقولون كما قالت السيرة العطرة: (اللهم بحقّ النبي الذي ستبعثه في آخر الزمان انصرنا عليهم) فينصرهم الله تعالى، وهذا معنى الآية ((وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ)). أيْ يطلبون به النّصر فينصرهم الله. ولكن هل كانوا يعرفونه؟ نعم. القرآن يقول في سورة البقرة: ((الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)). وهل هناك أحد لا يعرف أولاده؟!! بل حتى البيت الذي نزل فيه النبي صلى الله عليه وسلم عند وصوله المدينة المنوّرة كان مهيّأً له قبل هجرته بثلاثمائة عام أو يزيد، يروي أهل السِّيَرِ: أنّ تُبَّعًا مَلِك اليمن غزا المدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها بثلاثمائة سنة. ولمّا همَّ بدخولها خرج إليه أحبار اليهود وقالوا له: إعلم بأنّك لن تتمكّن من دخولها. لأنّها مُهاجَرُ نبيٍّ يبعثه الله في آخر الزمان. فاستشار مَنْ معه مِنَ العلماء. وكانوا أربعمائة عالم. هم أجداد الأنصار من الأوس والخزرج، فأقرّوا بذلك. فأعطاهم مالاً وزوّجهم وبنى لكل عالم منهم بيتاً، وملّكه له. وبنى لكبيرهم بيتاً مِنْ دَوْرَيْن، وسلّمه له. ثم كتب كتابا، وختمه بخاتم من ذهب، ودفعه إلى عالمهم الكبير، وأمره أنْ يدفعَ الكتابَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم إنْ أدركه، وإلا فيوصي به أولاده

مثل ما أوصاه به، وكذلك الأولادُ حتى يتّصلَ بالنبي صلى الله عليه وسلم. وهو جدُّ سيِّدِنا أبي أيّوب الأنصاري رضي الله عنه. وكان في ذلك الكتاب: أما بعد، فإنّي آمنتُ بكَ، وبكتابكَ الذي أُنزلَ عليك، وأنا على دينك وسُنَّتِكَ، وآمنتُ بربّك وبكلّ ما جاء من ربّك من شرائع الإيمان والإسلام، فإنْ أدركتكَ فبها ونعمتْ، وإلا فاشفع لي ولا تنسني يومَ القيامة فإنّي من أمّتك الأوّلين، وقد بايعتكَ قبل مجيئكَ، وأنا على ملّتكَ وملّة أبيكَ إبراهيم عليه السلام. ثم ختم الكتاب، ونقش عليه:(لله الأمر من قبلُ ومن بعد). وكتب عنوانه: إلى محمد بن عبد الله ونبي الله ورسوله وخاتم النبيّين، ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم. من تُبَّع الأوّل الحِمْيَريّ. وقال شعرا في النبي صلى الله عليه وسلم:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّه * رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَارِي النَّسَمْ

فَلَو مُدَّ عُمْرِي إلى عُمْرِهِ * لَكُنْتُ نصيرا له وابن عَمْ

وَجَاهَدْتُ بالسَّيفِ أعْدَاءَهُ * وَفرَّجتُ عَنْ صَدْرِه كُلَّ غَمْ

وروى الإمام أحمد في المسند عن سهل بن سعد رضي الله عنه. أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لَا تَسُبُّوا تُبَّعًا، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ أَسْلَمَ)). وفي تاريخ ابن كثير: أنّه أوّل مَنْ كسا الكعبة. أيّها المسلمون. إذا ذكرنا تأييدَ اللهِ تعالى ونصرتَه لنبيّه صلى الله عليه وسلم في حادثة الهجرة النبوية. فإنّه لِزامٌ علينا ذِكْر سادتنا الأنصار. فلولا وجود الأنصار ما تمّت الهجرة. ولا آتت أُكلها. وإنّ دعوة الإسلام ما كانت لتعلو لولا راية الأنصار، ولذلك فإنّ من حقّ الأنصار إذا ذُكرت الهجرة النبوية أن يُذْكَروا، روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((آية الإيمان حبّ الأنصار وآية النفاق بُغْض الأنصار)). وقال الله تعالى في سورة التوبة: ((وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)). وروى البخاري في صحيحه عن غيلان بن جرير رضي الله عنه قال: قلت لأنس: أرأيت اسم الأنصار؟! كُنْتُمْ تُسَمَّوْنَ بِهِ أَمْ سَمَّاكُمْ اللَّهُ؟! قَالَ: بَلْ سَمَّانَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وقال الله تعالى في سورة الإسراء: ((وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)). قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: جعل الله مدخل صدق المدينة ومخرج صدق مكة، وسلطانا نصيرا الأنصار. وقال ابن عبد البر في كتابه: الدُّرَر

في اختصار المغازي والسير: وفيه دليل واضح على تفضيل المدينة؛ لأنّ الله ابتدأ بها، وكان القياس أن يبتدئ بمكة؛ لأنّه خرج منها قبل أن يدخل المدينة، وأيضًا قد جعل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم سلطانًا نصيرًا في المدينة ولم يجعله بمكة، ويأبى الله تعالى بكرمه إلا أن ينقل نبيّه إلا إلى ما هو خير. وروى الحاكم والبيهقي وابن سعد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((اللهم إنّك أخرجتني من أحبّ البقاع إليّ فأسكنّي في أحبّ البقاع إليك)). ومن فضل الله تعالى وتأييده لنبيّه صلى الله عليه وسلم أن بيّن له دار هجرته. روى الشيخان عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((رأيتُ في المنام أنّي أهاجِر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وَهَلِي إلى أنّها اليمامة أو هَجَرْ فإذا هي المدينة يثرب))، فبشّر أصحابه بها. وأخذوا يهاجرون. ولمّا تسامع المسلمون بخروجه صلى الله عليه وسلم تحرّك لذلك منهم ساكنا. وظهر عليهم من آثار الشوق وعلامة الوجد ما كان فيهم كامنا. فإنّ قلوب أهل المحبّة بعد الفراق تكون منطوية على نارها. قد استمرّت مع حرارة جمارها. فإذا برق لهم بارق الوِصال. وطمعوا في تبدّل الإنفصال بالإتّصال. تأجّجت نارهم بهبوب رياح التذكار. واشتعلت جمارهم باجتماع حطب الإنتظار. روى البخاري عن أمّ المؤمنين السيّدة عائشة رضي الله عنها: أنّ المسلمين بالمدينة لما سمعوا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وتوكّفوا قدومه. كانوا يخرجون إذا صلّوا الصبح إلى ظاهر الحَرَّة ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال، ويؤذيهم حرّ الظهيرة، فإذا لم يجدوا ظِلاّ دخلوا، وذلك في أيام حارّة. حتى كان اليوم الذي قَدِم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلوا البيوت فأوفى رجل من اليهود على أُطُمٍ من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابِه مبيّضين، يلوح بهم السراب، فلم يملك اليهودي نفسه فصرخ بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا صاحبكم الذي تنتظرون، قد جاء. فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظَهْر الْحَرَّة وذلك يوم الاثنين لشهر ربيع الاوّل، فخرجوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في ظلّ نخلة ومعه أبو بكر في مثل سِنّه. وقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا، فطفق من جاء من الانصار مِمَّنْ لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحَيِّي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل أبو بكر حتى ظَلَّل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله عند ذلك. وكان خروجه عليه

الصلاة والسلام من مكة يوم الإثنين ومكث في سفر هجرته أسبوعين، ودخل المدينة عليه الصلاة والسلام يوم الإثنين من جهة قباء وكانت يوم ذاك دياراً لبني عمرو بن عوف، فنزل على دار كلثوم بن الهدم رضي الله عنه، وكانت جهة جنوب مسجد قباء اليوم، وأسّس مسجدها، وهو أوّل مسجد أُسِّسَ في الإسلام، قال الله جل وعلا في سورة التوبة: ((لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)). ومكث في قباء الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، ويوم الجمعة مضى صلى الله عليه وسلم ومعه جَمْع مِمَّن استقبلوه أكثر من مائة رجل حتى أتى بطن الوادي ما يسمّى اليوم بمسجد الجمعة، فصلّى صلى الله عليه وسلم الجمعة بأصحابه في ذلك الموطن، وهي أوّل جمعة أقيمت بعد هجرته صلوات الله وسلامه عليه، ثم ركب ناقته القصواء، وأرسل إلى أخواله من بني النجار، لأنّ هاشماً جدّ النبي صلى الله عليه وسلم كان متزوّجاً من امرأة من بني النجار يقال لها سلمى، وأنجب منها ابنه شيبة الذي عرف بعد ذلك بـعبد المطلب، فأرسل صلى الله عليه وسلم إلى أخواله من بني النجار فجاءوا متقلّدين السيوف، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، فسمع فيها التكبير: الله أكبر جاء رسول الله، فخرج الحيّان الأوس والخزرج وكانوا كما قال ابن خلدون وغيره: كانوا ذوي قوّة وأَنَفَة وشكيمة وإباء، فلم يُقَدِّموا إلى أحد من الملوك أتاوة ولا غيرها ولا جباية. فدخل صلى الله عليه وسلم المدينة، فلما دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنار منها كل شيء صلوات الله وسلامه عليه، كما قال أنس، وهو عليه الصلاة والسلام على ناقته القصواء، والناس ذات اليمين وذات الشمال، ولم يكن الأنصار قوماً ذا ثراء، لكنّهم كانوا محبّين لرسولهم صلى الله عليه وسلم، فيتسابقون إلى زمام ناقته: هلمّ إلى العزّ والمنعة. هلمّ إلى العدد والأنفة، وهو صلى الله عليه وسلم يقول: (خلّوا سبيلها أي الناقة؛ فإنّها مأمورة)، فكانت إذا مرّت ببيت يهودي تمرّ مسرعة ولا تقف، وإذا مرّت ببيت أنصاري تقف بأمر الله، حتى يقدِّم تحيّته لرسول الله صلى الله عليه وسلم. حتى أتت إلى موضع المسجد اليوم فبركت فيه، وكانت الأرض ليتيمين من أخواله من بني النجار، وكان صلى الله عليه وسلم يحبّ أن ينزل في ديار أخواله، حتى يكرمهم بأنّه نزل عندهم على غيرهم، فبركت الناقلة ولم ينزل منها عليه الصلاة والسلام ثم قامت، فجالت جولة كأنّها تتأكّد من الموضع، ثم رجعت إلى مبركها الأوّل فبركت، فنزل صلى الله عليه وسلم بعد أن عمد أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه إلى متاعه ورَحْله

وأدخله داره، فقال عليه الصلاة والسلام: (المرء مع رَحْله)، فسكن عليه الصلاة والسلام في دار أبي أيوب الأنصاري مدّة بناء الحجرات والمسجد الشريف. فعن سيّدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لمّا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة. أضاء منها كلّ شيء. وخرجت النّساء والصّبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا * من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا * ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا * جئت بالأمر المطاع

جئتَ شرّفت المدينة * مرحبا يا خير داع

وجعلت نساء بني النّجار يضربن بالدّفوف ويقلن:

نحن جوار من بني النّجارِ * يا حبّذا محمّد من جارِ

فمرحبا بذا النبي المختارِ * ومرحبا بسيّد الأبرارِ

فقال لهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتحببنني ؟. قلن: أي والله. فقال: والله إنّي أحبّكنّ. قال الطبراني: وتفرّق الغلمان والخدم في الطريق ينادون: جاء محمّد. جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروى الامام أحمد وأبو داود عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم المدينة لعبت الحبشة بحرابها فرحا بقدومه). وروى البخاري عن البراء رضي الله عنه أنه قال: (ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم). وقد حقّ لهم والله أن يزدحموا على شهود تلك الطلعة المباركة. ويتسابقوا إلى رؤية ذلك الوجه الذي هو معدن كلّ خير وبركة. ثم أمرَ صلى الله عليه وسلم ببناءِ المسجدِ. وكانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَبنِي مَعهم. وينقلُ الَّلبِنَ والحجارةَ بنفِسهِ. ويقولُ:

اللهمَّ لا عيشَ إلاَّ عيشُ الآخرة * فاغفرْ للأنصارِ والمُهَاجرة

وجعلُوا يرتجِزُونَ. وهُم ينقلونَ اللّبِنَ ويقولُ بعضُهم:

لَئِنْ قَعدْنا والرسولُ يَعملُ * لَذاكَ مِنَّا العملُ المضلّلُ

ما أجملَ هذه الرّوح؟! وما أحلَى هذا التواضع؟! وما أحسَنَ هذَا الإجتهاد؟! أيّها المسلمون. وبعد ذلك أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يرتّب شؤون المدينة وشؤون أصحابه وينشئ المجتمع المثالي الفاضل على قواعد الحب والإخاء والعدل والمساواة والتكافل والتعاون. والتضحية والإيثار. وهي المبادئ التي وضعها الإسلام للمجتمع الصالح ليعيش الناس في كل زمان ومكان إخوة متعاونين ويسودهم الوئام ويظلهم الأمن والسلام .ولقد كانت الحفاوة التي استُقْبِل بها الرسول الكريم في المدينة مظهرا جديدا يختلف عمّا كان يراه في مكة. فبمقدار ما كان من البغض والإستهانة في مكة كان الحب والاكبار في المدينة. فأيقن صلى الله عليه وسلم أنّ الله قد أذن لدينه بالنصر. وأنّ العقيدة التي ظل يضع قواعدها على أساس الإيمان بالله وحده قد آن لها أن تؤتي ثمارها. وبذلك انتهى عهد الإضطراب في مكة وبدأ عهد الإستقرار والأمن في المدينة. أيّها المسلمون. عندما هاجر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء. فسألهم: لماذا تصومون هذا اليوم؟ فقالوا: هذا يوم نجّى الله فيه موسى وبني إسرائيل من فرعون وقومه فقال صلى الله عليه وسلم: ((نحن أَوْلى بموسى منكم)). وصامه وأمر أصحابه بصيامه. ولذلك فصيام هذا اليوم سنّة. ولما كان في آخر حياته وجد أنّ اليهود يصومون هذا اليوم والمسلمون يصومونه فقال: لابدّ أن نخالفهم. فقال لأصحابه: ((صُومُوا التَّاسِعَ والعَاشِرَ وخَالِفُوا اليَهُودَ)). وقال: ((لَئِنْ بَقِيتُ إِلَىٰ قَابِلٍ لأَصُومَنَّ التَّاسِعَ والعاشر)). وتوفي صلى الله عليه وسلم فلم يصم إلا يوم العاشر فقط. وغدا إنشاء الله هو اليوم العاشر من المحرّم. فمن السنّة أن يصوم المسلم يوم عاشوراء. إقتداء بالحبيب المصطفى. صلى الله عليه وسلم. سيّدي يارسول الله إنّا نتوسّل بك إلى الله تعالى الذي اصطفاك بالرّسالة والوسيلة، واختصّك بالدّرجة الرّفيعة والفضيلة، واتمنك على إقامة حقّه، وابْتَعثك بالنّور والهدى إلى جميع خلقه، ليُسعدنا بجوارك، ويُكرمنا بحلول دار هجرتك وأنصارك، سيّدي يارسول الله غيرُ عزيز على من شفّعك يوم القيامة، وأقطعك دار المُقامة، وأعطاك لواء الحمد والكرامة، أن يجمع لنا بك بين الشفاعتين، ويكرمنا في الدنيا برؤياك، وفي الآخرة بسُقياك الحُسْنيين. اللهمّ كما جعلتنا من أمّته، واستعملتنا بسنّته، وشوّقتنا إلى آثاره، وشغلت قلوبنا بتذكّره وتذكاره، وأريتنا تلك المعالم المُنيفة خيالا، وخطّطت منها في الضّمير مِثالا، فاشف بمرآها بصرا ضريرا،

وبسناها يرتدّ بصيرا. واجعل لنا فيها مقرّا ومَقيلا، وضع عنّا من شوقها إصرا ثقيلا. آمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

24- حلاوةُ السَّمَر لِأَخْذ الدّروس والعِبَر في حُسْن التوكّل وتسليم الأمر المستوحاة من هِجْرة سيّدِ البشر صلَّى عليه الله الأبرّ

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ، يُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحزَنُونَ، وَيَمْنَحُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ أَجْرًا غَيْرَ مَمنُونٍ، يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ، ومَنْ تَوكَّلَ عَلَيْهِ بَعْدَ طَرْقِ الأَسْبَابِ حَفِظَهُ وَرَعَاهُ، وَكَلَّلَ بِالنَّجَاحِ مَسْعَاهُ، فسبحانه من إله أعزَّ الإسلامَ بِهجرةِ سيّدِ الأنامِ. ورفعَ شأْنَ المسلمينَ وَتَوَّجَهم بتاجِ النّصرِ والظَّفَرِ والإكرامِ. وأشهدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَحدَهُ لاَ شَريكَ لَهُ، جعل ذكرياتِ الإسلام مواطن للعِبَر والعظات. وخَصّ هجرة الرسول بالنصر والمعيّة والسكينة والنفحات، فسَهَّل لِلهجْرةِ النبويّة المَسالِكَ، وجَعلَها نوراً أَضاءَ الأَمصارَ والمَمالِكَ، وأشهَدُ أَنَّ سيِّدَنا مُحمّداً عَبدُهُ ورَسولُهُ، وصفيّه مِنْ خَلْقه وخليله. تولاّه الله عزّ وجلّ بعنايته، وأدّبه برحمته، وجعله نعمة لجميع بريّته، وأَخْرَجَ بِبِعثَتِهِ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَجَعَلَ فِي هِجْرَتِهِ دَرْسًا فِي حُسْنِ التَّوَكُّلِ وَتَرتِيبِ الأُمُورِ،

محمّدُ المصطفى الهادي لسنّتِهِ * أعزِز به من نبيّ في سيادتِهِ

الجود والخير طَبْعٌ في جِبِلَّتِهِ * يا مُرْتَجين نوالا من عطيّتِهِ

صلّوا عليه وزيدوا في محبّتِهِ

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيِّدِنا محمّد. طريقِ السعادة البشير النذير. وعلى آله المخصوصين بالشرف وآية التطهير. وصحابته ذوي الجِدّ والإجتهاد والتشمير. صلاة تُعِزّ بها منّا الذليل والحقير. وتشفي بها منّا العليل والضرير. وتدفع بها عنّا عوارض الكسل والعجز والتقصير. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. نُهنّئُكُمْ بحلولِ العامِ الهجريِّ الجديدِ، الذِي نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ. أنْ يجعلَ أيّامَهُ أيامَ سعدٍ وهناءٍ. وسلامٍ وصفاءٍ. علَى العالَمِ

أجمعَ. حتَّى تعيشَ الإنسانيةُ كلُّهَا فِي سرورٍ وسعادةٍ. وخيرٍ وبركةٍ. كما نسألُه جلَّ جلالُهُ. أنْ يجعلَهُ عام خيرٍ ورخاءٍ. تعمُّ فيهِ الخيراتُ والبركاتُ. علَى بلدِنَا خاصّةً. وعلَى جميعِ بلادِ المسلمينَ عامَّةً. واعلموا أنّ في دنيا الناس، ذكريات لا يُمَلُّ حديثُها، ولا تُسْأم سيرتُها، بل قد تحلو أو تعلو إذا أُعِيدت وتَكرَّرت، كما يحلو مذاق الشهد وهو يُكرَّر، ومن الذكريات التي لا يُملّ حديثُها، ولا تُسْأم سيرتُها، حياة سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. إمام البشرية، وسيّد ولد آدم. فهي من الذكريات الغوالي، التي تَتَجدَّد آثارُها وعِظاتُها، كلّما سلك المرء سبيلَه إلى الإعتبار والإدّكار، والعبد المؤمن إذْ يغشى معالم سيرة النبيّ صلى الله عليه وسلم. فهو كعابد يغشى مصلاّه، ومِنْ حُسْن حظّ المؤمن، أنّه ما قلّب سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم يوما فأخطأ دمع العين مجراه، وفي أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم الجليلة النبيلة. أيامٌ خوالِد، ما تزال تتضوّأ على الأيام. وتتألّق في غرّة الزمان، ولعلّ من أسطعها وأروعها، يوم الهجرة، أيْ هِجْرَةُ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم وأصحابِه. مِنْ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ، الذي تهبّ علينا نسمات ذِكْراه، فِي بِدَايَةِ كُلِّ عَامٍ هِجْرِيٍّ جَدِيدٍ. والتي كانت في أعقاب جسام. واجه فيها النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُه صنوفا من الإيذاء والإضطهاد والتنكيل. حتى خَشِيَ عليه الصلاة والسلام على هذه الدعوة. أن تذهب أدراج الرياح. أو أنْ يُقضى عليها في مهدها. وليس هذا من باب التحكّم على حُكْم المشيئة والإقتدار. وإنّما هذا هو الشعور والإحساس الذي طُبِعَ عليه نبيّنا صلى الله عليه وسلم. بمقتضى قولِ ربّنا في سورة التوبة: ((لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)). إنّها الرحمة التي دُبغ بها أَدِيمُه. والتي صُبِغت بها ذاته عليه الصلاة والسلام. من هذا المنطلَق. أمر أصحابَه بالهجرة فهاجروا زَرافاتٍ وَوُحْدانا. وبقي هو بمكة حتى جاءه الإذنُ من الله سبحانه. يقول الإمام البوصيري رحمه الله في همزيته:

ويحَ قومٍ جَفَوا نبيّاً بأرضٍ * أَلِفَتْهُ ضِبابُها والظِّباءُ

وسَلَوْهُ وحَنَّ جِذْعٌ إليهِ * وقَلَوْهُ ووَدَّهُ الغرباءُ

وَنَحَا الْمُصْطَفَى الْمَدِينَةَ وَاشْتَا * قَتْ إِلَيْهِ مِنْ مَكَّةَ الأَنْحَاءُ

نَعَم. إنّها المشيئة. التي قد تأتي بما لا يشتهيه المرء في حياته. ولكنْ إنْ عَلِم الله مِنْ عبده رسوخا في مقام التوكّل عليه. كفاه مؤونة الأمر وتبعاته. فلقد هاجر صلى الله عليه وسلم من وطنه. محلّ أُنْسِه ومَسْقَط رأسه. إلى حيث الْمُكْنَة والتمكين. إلى حيث العِزّة والإستقرار. إلى حيث الإنطلاق نحو آفاقٍ واسعة. ولم يكن خروجه صلى الله عليه وسلم عن زُهْد في بلده. وإنّما كان خروجه عليه الصلاة والسلام من أجل هذه الرسالة. من أجل هذه الذعوة. فهاجر وهو كارِه. وقف على مشارِف مكة يخاطبها. إمّا بلسان الحال. أو بلسان المقال. فقد روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عدي رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على الْحَزْوَرَةِ فقال: ((واللهِ إنّكِ لَخَيْرُ أرضِ الله. وأحبّ أرضٍ إليَّ. ولولا أنّ أَهْلَكِ أخرجوني منكِ ما خرجتُ)). كلماتٌ تَنِمُّ عمّا وراءها مِنْ صادق الإلتحام بمكة. بهذه البلد التي دعا لها سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام. كما قال الله تعالى في سورة البقرة: ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً)). لقد خرج منها على كُرْه. ولكنّ الله سبحانه وتعالى عوّضه خيرا. أيضا ببركة دعوتِه صلى الله عليه وسلم. ففي صحيح البخاري عَنْ أمّ المؤمنين السيّدة عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ)). فلذلك لم يرغب عنها. كما أنّ أهلَها الأنصار. لم يرغبوا عن نصرته. أهل المدينة. الذين مدحهم الله تعالى بقوله في سورة الحشر: ((وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)). الَّذِينَ آمَنُواْ. الَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ. الذين فتح الله بهم. الذين أعزّ الله بهم الإسلام وأهلَه. هذا هو العِوَض. ولم يكن هذا العِوَض نتيجة تخطيطٍ منه عليه الصلاة والسلام. وإنّما كان نتيجة تسليمٍ منه فيما أَمَر الله. يوم أن أنزل جبريل يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: لا تَبِتْ على فراشك الليلة. فامتثل أمر ربّه. واثِقا بنصره. متوكِّلا عليه. أيّها المسلمون. كم في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مواقف. نستطيع أن نستَلْهِم منها دروسا نعالج بها مشاكلنا وقضايانا. منها أنّه عليه الصلاة والسلام خرج على أعين القوم. وهو يعلم أنّهم يرصدون خروجه للفتك به. كما قال تَعَالَى في سورة الأنفال: ((وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)). يعلم هذا حقيقة. وقد استعدّ لهذا الأمر. بأن أخذ حَفْنة من تراب بيمينه. ونثرها على رؤوسهم وهو

يتلو قولَه تعالى: ((وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ)). موقف ينمّ عن الثقةِ بالله. وحُسْنِ التوكّل على الله. تحرسُهُ عين الله، وتكلؤه عناية الله، مُعْلِناً للدنيا أنّ مَنْ ينصره الله لا يُخْذَلُ، ومن يؤيّدُهُ الله لا يُهْزَم، يقولُ اللهُ تعالَى في سورة التوبة: ((إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ)). والمتأمِّل في سياق هذه الآية. يرى أنّ ما أورده النّصّ الكريم في موضع جواب الشرط لا يصلُح أن يكون جوابا. لأنّه جملةٌ زمنها في الماضي. لم يقل: إِلاَّ تَنصُرُوهُ يَنْصُرْهُ اللّهُ. بل قال: فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ. والشرط موضوع للمستقبل. فكيف نوجّه هذا؟ نقول: لابدّ من تقدير جواب. ولا يصلُح أن نقول: إنّ جواب الشرط هنا: يَنْصُرْهُ اللّهُ. لأنّه يفيد بهذا التوجيه أنّ نصرة الله جاءت متأخِّرة حتى تخلّى القوم عن نصرته. نقول: إنّ نصرة الحقّ لنبيّه صلى الله عليه وسلم سابقة على كل سبب من الأسباب. إذًا لا يصلُح جوابا لهذا الشرط إلاّ أن نقول: فهو غنيّ عنكم بنصرة الله الذي قَدْ نَصَرَهُ من قَبْل. أيْ قَبْل خَلْقِ الخَلْق، ونَصْرُ الله واضح في آيات القرآن الكريم. فإنّ الله تعالى عندما خَلَق الحبيب صلى الله عليه وسلم روحاً نورانية. قبل خَلْق جِسْمه الشريف. وخَلَق أرواح الأنبياء والمرسلين. أخذ عليهم العهد والميثاق أن يؤمنوا به. وينصروه ويؤازروه. ويبلِّغوا أُمَمَهم بصفاته ونعوته. ويطلبوا مِمَّن طال به الزمن إلى عصر رسالته. أن يؤمنوا به صلى الله عليه وسلم ويتّبعوه. كما قال الله تعالى في سورة آل عمران: ((وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيئِينَ لَمَا ءاتَيْنَاكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ)). وقد كان ذلك. منها ما جاء على لسان سيّدنا عيسى عليه السلام. قال تعالى في سورة الصف: ((وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ)). ومنها أنّ الله تعالى بعث النبيئين مِنْ قَبْله. مُمَهِّدين ومبشِّرين بنبوّته صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى في سورة الأعراف: ((الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيءَ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)). ولم يبشّروا به وبنعوته فقط. بل حتى أوصاف أصحابه كانت مذكورة في التوراة والإنجيل. قال تعالى في سورة الفتح:((مُحَمَّدٌ

رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)). حتى أنّ التاريخ يروي: أنّ سيّدَنا عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه لمّا توجّه للصلح مع البطارقة. واستلام مفاتيح بيت المقدِس. ذهب هو وخادمه. ولم يكن لهم إلا مركب واحد. فكانوا يتناوبون ركوبه. سيِّدُنا عمر يركب والخادم يمشي. ثم يركب الخادم ويمشي سيِّدُنا عمر خَلْفَه. فلمّا اقتربوا من القوم كانت نَوْبة الخادم في الركوب. فقال يا أمير المؤمنين إنّي تنازلتُ لك عن نَوْبتي هذه. لأنّ القوم على استعدادٍ لِلِقاءَك. وكيف يَلْقُون أمير المؤمنين ماشياً والخادم يركب. فأصرّ سيِّدُنا عمر على ذلك. فلمّا دخلوا عليهم سألوا أين عمر؟ فقالوا: الذي يمشي فقالوا: هكذا نجد عندنا صفته في الإنجيل. إنّه يدخل بيت المقدس ماشياً وخادمه راكب بجواره، فأوصاف أصحابه كذلك ذكرها الله في التوراة والإنجيل والزابور. وذكرها في كل الكتب السابقة. أيّها المسلمون. فَنَصْر الله لحبيبه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم كان من قَبْل القَبْل. فقد أيّده. وأمر الرسل الكرام بإبلاغ صفاته ونعوته لأُمَمِهم، وهيّأ الكوْن كلَّه وأمَرَه أن يكون رَهْن إشارته، فنحن نأخذ من الهجرة النبوية عِظَة وعِبْرة. وهي أنّ مَنْ توكّل على الله كفاه، ومَنِ اِستعان بالله أعانه وقوّاه، ومَنِ اِنتصر بالله نصره على مَنْ عاداه. لا يستطيع أحد أن يصل إليه بأذى. لأنّه في وقاية الله. وكفالته وعنايته. لِذا عبّر الحقّ سبحانه عن هذه الحقيقة بقوله: ((إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ)). والنصر كما قال الله تعالى في سورة آل عمران:((وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)). فالنصر ليس بالقوّة ولا بالسلاح ولا بالرجال. وإنّما بالله. لأنّه خير الناصرين. لمّا وصل النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى غار ثور. سخّر الله له جنودا لا يُصَدِّق أحدٌ أبداً أنّها أصبحت في ميدان القتال. حمامة وعنكبوت. من أجل ماذا أيّها المسلمون؟ من أجل أن نعلم عِلْم اليقين أنّ الله عزّ وجلّ إذا أراد نَصْر عَبْدٍ اعتمد عليه. نَصَرَه ولو بأضعف مخلوقاته. وبأقلِّ كائناته. ففي مُسْنَد البزّار: أنّ الله عزّ وجلّ أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار. وأرسل حمامتين وحشيّتين فوقفتا على وجه الغار. وإنّ ذلك ممّا صدّ المشركين عنه صلى الله عليه وسلم. وإنّ حمام الحرم من نسْل تَيْنِكِ

الحمامتين. وقد أشار الإمام البوصيري رحمه الله في همزيته إلى هذه النصرة بقوله:

أَخْرَجُوهُ مِنْهَا وَآوَاهُ غَارٌ * وَحَمَتْهُ حَمَامَةٌ وَرْقَاءُ

وَكَفَتْهُ بِنَسْجِهَا عَنْكَبُوتٌ * مَاكَفَتْهُ الْحَمَامَةُ الْحَصْدَاءُ

وَاخْتَفَى مِنْهُمُ عَلَى قُرْبِ مَرآ * هُ وَمِنْ شِدَّةِ الظُّهُورِ الْخَفَاءُ

وَنَحَا الْمُصْطَفَى الْمَدِينَةَ وَاشْتَا * قَتْ إِلَيْهِ مِنْ مَكَّةَ الأَنْحَاءُ

وَتَغَنَّتْ بِمَدْحِهِ الْجِنُّ حَتَّى أَطْرَبَ الإِنْسَ مِنْهُ ذَاكَ الْغِنَاءُ

وكما قال رحمه الله تعالى أيضا في البردة:

وَمَا حَوَى الْغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمٍ * وَكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْهُ عَمِ

فَالصِّدْقُ فِي الْغَارِ وَالصِّدِّيقُ لَمْ يَرِمَا * وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرِمِ

ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ على * خَيْرِ الْبَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ وَلَمْ تَحُمِ

وِقَايَةُ اللهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةٍ * مِنَ الدُّرُوْعِ وَعَنْ عَالٍ مِّنَ الأُطُمِ

رُوِيَ أنّ سيّدَنا أبا بكر رضي الله عنه لمّا رأى القافة. أيْ الذين يتّبعون الأثر. إشتدّ حُزْنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال: إنْ قُتِلْتُ أنا فإنّما أنا رَجُل واحد. وإنْ قُتِلْتَ أنت. هلكت الأمّة. فعندها قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)). يعني بالمعونة والنصر. ((فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ)). جمهور المفسّرين على أنّ الضمير في قوله: ((عَلَيْهِ)). عائد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. كيف ذلك؟ والذي كان منزعِجا ويفتقِر إلى الإحساس بالأمن والطمأنينة هو الصّدّيق رضي الله عنه؟ نقول: إنّ السكينة كانت تتنزّل على النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم تنسحِب على مَنْ معه. لأنّه صاحب البرزخيّة الكاملة في انسحابها. لذلك قال سبحانه. ولعلّ هذا من باب التضمين وهو من أساليب البلاغة. يقول سبحانه في سورة الفتح: ((هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ)). لم يقل: على قلوب المومنين. بل قال: فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ. والإنزال لا يتعدّى إلا بِحَرْفِ على. لكن لماذا قال: في؟ نقول: لِيُضَمِّنَ هذا المعنى الإضافي. فأنزل الله سكينته على رسوله

فانسحبت بأذيالها من بساطه حتى كان لها التمكّن والإستقرار فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ. فلذلك إذا نظرتَ إلى آيات السكينة في القرآن الكريم لوجدتَ أنّها ما حَدَثت وما تنزّلت إلاّ لِعَلاقة مرتبِطة بالنبي صلى الله عليه وسلم. وهكذا أيّها المسلمون. إن أردنا السكينة والطمأنينة فَلْنُوَثِّقْ صِلَتَنا بالنبي صلى الله عليه وسلم. نُوَثِّقْ صِلَتَنا بمنهجه. برسالته. بدعوته. بسنّته. صلى الله عليه وسلم. أخرج الإمام مسلم في صحيحه. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَغْزُو فِئَامٌ مِنْ النَّاسِ فَيُقَالُ لَهُمْ: فِيكُمْ مَنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُفْتَحُ لَهُمْ. ثُمَّ يَغْزُو فِئَامٌ مِنْ النَّاسِ فَيُقَالُ لَهُمْ: فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ صَحِبَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُفْتَحُ لَهُمْ. ثُمَّ يَغْزُو فِئَامٌ مِنْ النَّاسِ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُفْتَحُ لَهُمْ)). هذا هو الشأن. لا عِزَّ لهذه الأمّة إلاّ إذا تفيّأت ظلال هذا الشرع الكريم. وظلال هذا الهَدْيَ المحمّدي العظيم. قال الإمام القسطلاني في كتابه: (المواهب اللدنية بالمِنَح المحمدية): أُنظر لمّا رأى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُزْن الصّدّيق قد اشتدّ. لكن لا على نفسه. قوّى قلبه ببشارة ((لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)). فكانت تحفة ((ثَانِيَ اثْنَيْنِ)) مدّخَرَة له دون سائر الصحب. فهو الثاني في الإسلام. والثاني في بَذْل النّفس. ولمّا وَقّى الرسول عليه الصلاة والسلام بماله ونفسه. جُوزِيَ بمواراته معه في رَمْسه. وقام مؤذِّن التشريف ينادي على منابر الأمصار: ((ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ)). أخرج ابن عدي وابن عساكر من طريق الزهري وروى الحاكم في مستدركه عن أنس رضي الله عنه: قال رسول صلى الله عليه وسلم لحسّان بن ثابت: هل قلتَ في أبي بكر شيئاً؟ فقال: نعم. فقال: قُلْ وأنا أسمع. فقال:

إِذَا تَذَكَّرْت شَجْوًا مِنْ أَخِي ثِقَةٍ * فَاذْكُرْ أَخَاك أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا

خَيْرَ الْبَرِيَّةِ أَتْقَاهَا وَأَعْدَلَهَا * بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلَا

الثَّانِيَ التَّالِيَ الْمَحْمُودَ مَشْهَدُهُ * وَأَوَّلَ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَّقَ الرُّسُلَا

وثانِيَ اثنيْن في الغار المنيف وقد * طاف العدوُّ به إذ صَعِد الجبلا

وكان حِبُّ رسولِ الله قد علموا * من البرية لم يعدِل به رجلا

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه، ثم قال: صدقتَ يا حسّان هو كما قلت. أيّها المسلمون. إنّ أحداث الهجرة في ذاتها والحمد لله معظمنا بل أغلبنا يعلمها ويحفظها جيّداً. لكنّ الله تعالى أمرنا أن نستلهم العِبَر ونأخذ الْمُثُل والقُدْوة من سِيَرِ الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام. وذلك حين يقول عزّ شأنه في سورة يوسف: ((لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)). لنعلم عِلْم اليقين ولا نشكّ في ذلك طرفة عين ولا أقلّ. أنّ الذي يتمسّك بهدى الله. ولم يبتغِ بعمله إلا وجه الله. مهما واجهته الفتن. ومهما تعرّض للمحن. ومهما أحاطت به الظروف. فإنّ الله عزّ وجلّ يجعل له قِسْطاً من نَصْرِ الله لحبيبه ومصطفاه. صلى الله عليه وسلم. فتلك سنّة الله. ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، قال سبحانه في سورة الحج: ((وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)). اللهمَّ اجعَلْ قُلوبَنَا عَامِرَةً بِحُبِّ وَتَعْظِيمِ وَإِجْلالِ حَبِيبِكَ سَيِّدِنَا محمدٍ صلى الله عليه وسلم. وَثَبِّتْنَا اللهمَّ علَى هَدْيِهِ وَطَرِيقَتِهِ. وأَعِدْ اللهمَّ عَلَيْنَا بالخَيْرِ وَالبَرَكاتِ ذكرَى هجرته. اللهم وتوفَّنا على ملَّته، واحشرنا في زمرته، وأدخلنا في شفاعته، واسْقِنا من حوضه، فإنّك خير مسؤول. وأكرم مأمول. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. اهـ

25- ابتهاجُ سادتِنا الأنصار بقدوم نبيِّنا المختار صلَّى الله عليه وسلم

الحمد لله الذي امتنّ علينا بمحبّة حبيبه الأطهرْ. سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم سيّد البشر. وأكرمنا بمعرفة سيرته النبوية. التي فاز مَنْ أمعن في تحصيلها النظر. وجعل دلائل نبوّته وبِعْثَته وهِجْرته وحُسْن سيرته مِنْ أجلّ ما يُتَشَرَّف بعِلْمه في الدارَيْن ويُفْتَخَرْ. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. نظر بعين اصطفائه إلى البلدان. فخصّ المدينة المنوّرة بأن جعلها دار الإيمان. وفضّلها بهجرة وسكنى نبيّه صلّى الله عليه وسلّم على كل مكان. وشرّف أهلها بنُصرة دينه. فحازوا لقب الأنصار على مرّ الزمان. وأشهَدُ أَنَّ سيِّدَنا مُحمّداً عَبدُهُ ورَسولُهُ، وصفيّه مِنْ خَلْقه

وخليله. الذي مِنْ طِيبِه طاب ذِكْرُ المدينةِ المنوّرة. طَيْبَة الطَّيِّبَة. وافتخرت الأَلْسُنُ بمدحها وثنائها. ومِنْ نوره نمت الخيرات والبركات في أرجائها. إخواني صلّوا على هذا النبيّ الكريم. بقدر محبّتكم فيه. وارفعوا أصواتكم بها. فإنّها ترضي الله وترضيه. اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على سيّدنا محمّد. لَبِنَةِ التمام. ومِسْكِ الخِتام. وإمامِ طَيْبَةَ والحرام. وعلى آله البررة الكرام. وصحابته نجومِ الهداية ومصابيح الظلام. صلاة دائمة لا انقضاء لها ولا انصرام. تتوالى على ضريحه المُنوَّر على ممرّ الليالي والأيّام. وتعودُ بركتُها علينا ببلوغ القصد ونَيْل المرام. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إذا ذكرنا تأييدَ اللهِ تعالى ونصرتَه لنبيّه صلى الله عليه وسلم في حادثة الهجرة النبوية. فإنّه لِزامٌ علينا ذِكْر سادتنا الأنصار. فلولا وجود الأنصار ما تمّت الهجرة. ولا آتت أُكلها. وإنّ دعوة الإسلام ما كانت لتعلو لولا راية الأنصار، ولذلك فإنّ من حقّ الأنصار إذا ذُكرت الهجرة النبوية أن يُذْكَروا، روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((آية الإيمان حبّ الأنصار وآية النفاق بُغْض الأنصار)). وقال الله تعالى في سورة التوبة: ((وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)). وروى البخاري في صحيحه عن غيلان بن جرير رضي الله عنه قال: قلت لأنس: أرأيت اسم الأنصار؟! كُنْتُمْ تُسَمَّوْنَ بِهِ أَمْ سَمَّاكُمْ اللَّهُ؟! قَالَ: بَلْ سَمَّانَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وقال الله تعالى في سورة الإسراء: ((وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)). قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: جعل الله مدخل صدق المدينة ومخرج صدق مكة، وسلطانا نصيرا الأنصار. وقال ابن عبد البر في كتابه: الدُّرَر في اختصار المغازي والسير: وفيه دليل واضح على تفضيل المدينة؛ لأنّ الله ابتدأ بها، وكان القياس أن يبتدئ بمكة؛ لأنّه خرج منها قبل أن يدخل المدينة، وأيضًا قد جعل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم سلطانًا نصيرًا في المدينة ولم يجعله بمكة، ويأبى الله تعالى بكرمه إلا أن ينقل نبيّه إلا إلى ما هو خير. وروى الحاكم والبيهقي وابن سعد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((اللهم إنّك أخرجتني من أحبّ البقاع إليّ فأسكنّي في أحبّ البقاع إليك)). ومن فضل الله تعالى وتأييده لنبيّه صلى الله عليه وسلم أن بيّن له دار هجرته. روى الشيخان عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((رأيتُ في المنام أنّي

أهاجِر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وَهَلِي إلى أنّها اليمامة أو هَجَرْ فإذا هي المدينة يثرب))، فبشّر أصحابه بها. وأخذوا يهاجرون. ولمّا تسامع المسلمون بخروجه صلى الله عليه وسلم تحرّك لذلك منهم ما كان ساكنا. وظهر عليهم من آثار الشوق وعلامة الوجد ما كان فيهم كامنا. فإنّ قلوب أهل المحبّة بعد الفراق تكون منطوية على نارها. قد استمرّت مع حرارة جمارها. فإذا برق لهم بارق الوِصال. وطمعوا في تبدّل الإنفصال بالإتّصال. تأجّجت نارهم بهبوب رياح التذكار. واشتعلت جمارهم باجتماع حطب الإنتظار. روى البخاري عن أمّ المؤمنين السيّدة عائشة رضي الله عنها: أنّ المسلمين بالمدينة لما سمعوا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وتوكّفوا قدومه. كانوا يخرجون إذا صلّوا الصبح إلى ظاهر الحَرَّة ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال، ويؤذيهم حرّ الظهيرة، فإذا لم يجدوا ظِلاّ دخلوا، وذلك في أيام حارّة. حتى كان اليوم الذي قَدِم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلوا البيوت فأوفى رجل من اليهود على أُطُمٍ من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابِه مبيّضين، يلوح بهم السراب، فلم يملك اليهودي نفسه فصرخ بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا صاحبكم الذي تنتظرون، قد جاء. فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظَهْر الْحَرَّة وذلك يوم الاثنين لشهر ربيع الاوّل، فخرجوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في ظلّ نخلة ومعه أبو بكر في مثل سِنِّه. وقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا، فطفق من جاء من الانصار مِمَّنْ لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحَيِّي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل أبو بكر حتى ظَلَّل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله عند ذلك. وكان خروجه عليه الصلاة والسلام من مكة يوم الإثنين ومكث في سفر هجرته أسبوعين، ودخل المدينة عليه الصلاة والسلام يوم الإثنين من جهة قباء وكانت يوم ذاك دياراً لبني عمرو بن عوف، فنزل على دار كلثوم بن الهدم رضي الله عنه، وكانت جهة جنوب مسجد قباء اليوم، وأسّس مسجدها، وهو أوّل مسجد أُسِّسَ في الإسلام، قال الله جل وعلا في سورة التوبة: ((لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)). ومكث في قباء الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، ويوم الجمعة مضى صلى الله عليه وسلم ومعه جَمْع مِمَّن استقبلوه أكثر من مائة رجل حتى أتى بطن الوادي ما يسمّى اليوم

بمسجد الجمعة، فصلّى صلى الله عليه وسلم الجمعة بأصحابه في ذلك الموطن، وهي أوّل جمعة أقيمت بعد هجرته صلوات الله وسلامه عليه، ثم ركب ناقته القصواء، وأرسل إلى أخواله من بني النجار، لأنّ هاشماً جدّ النبي صلى الله عليه وسلم كان متزوّجاً من امرأة من بني النجار يقال لها سلمى، وأنجب منها ابنه شيبة الذي عرف بعد ذلك بعبد المطلب، فأرسل صلى الله عليه وسلم إلى أخواله من بني النجار فجاءوا متقلّدين السيوف، وخرج الحيّان الأوس والخزرج وكانوا كما قال ابن خلدون وغيره: كانوا ذوي قوّة وأَنَفَة وشكيمة وإباء، فلم يُقَدِّموا إلى أحد من الملوك أتاوة ولا غيرها ولا جباية. فدخل صلى الله عليه وسلم المدينة، فلما دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنار منها كل شيء صلوات الله وسلامه عليه، كما قال أنس، وهو عليه الصلاة والسلام على ناقته القصواء، والناس ذات اليمين وذات الشمال، ولم يكن الأنصار قوماً ذا ثراء، لكنّهم كانوا محبّين لرسولهم صلى الله عليه وسلم، فيتسابقون إلى زمام ناقته: هلمّ إلى العزّ والمنعة. هلمّ إلى العدد والأنفة، وهو صلى الله عليه وسلم يقول: (خلّوا سبيلها أي الناقة؛ فإنّها مأمورة)، فكانت إذا مرّت ببيت يهودي تمرّ مسرعة ولا تقف، وإذا مرّت ببيت أنصاري تقف بأمر الله، حتى يقدِّم تحيّته لرسول الله صلى الله عليه وسلم. حتى أتت إلى موضع المسجد اليوم فبركت فيه، وكانت الأرض ليتيمين من أخواله من بني النجار، وكان صلى الله عليه وسلم يحبّ أن ينزل في ديار أخواله، حتى يكرمهم بأنّه نزل عندهم على غيرهم، فبركت الناقلة ولم ينزل منها عليه الصلاة والسلام ثم قامت، فجالت جولة كأنّها تتأكّد من الموضع، ثم رجعت إلى مبركها الأوّل فبركت، فنزل صلى الله عليه وسلم بعد أن عمد أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه إلى متاعه ورَحْله وأدخله داره، فقال عليه الصلاة والسلام: (المرء مع رَحْله)، فسكن عليه الصلاة والسلام في دار أبي أيوب الأنصاري مدّة بناء الحجرات والمسجد الشريف. فعن سيّدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لمّا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة. أضاء منها كلّ شيء. وخرجت النّساء والصّبيان والولائد يقلن:

طلع البدر علينا * من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا * ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا * جئت بالأمر المطاع

جئت شرّفت المدينة * مرحبا يا خير داع

وجعلت نساء بني النّجار يضربن بالدّفوف ويقلن:

نحن جوار من بني النّجارِ * يا حبّذا محمّد من جارِ

فمرحبا بذا النبي المختارِ * ومرحبا بسيّد الأبرارِ

فقال لهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتحببنني ؟. قلن: أي والله. فقال: والله إنّي أحبّكنّ. قال الطبراني: وتفرّق الغلمان والخدم في الطريق ينادون: جاء محمّد. جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد حقّ لهم والله أن يزدحموا على شهود تلك الطلعة المباركة. ويتسابقوا إلى رؤية ذلك الوجه الذي هو معدن كلّ خير وبركة. ثم أمرَ صلى الله عليه وسلم ببناءِ المسجدِ. وكانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَبنِي مَعهم. وينقلُ اللَّبِنَ والحجارةَ بنفِسهِ. ما أجملَ هذه الرّوح؟! وما أحلَى هذا التواضع؟! وما أحسَنَ هذَا الإجتهاد؟! أيّها المسلمون. وبعد ذلك أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يرتّب شؤون المدينة وشؤون أصحابه وينشئ المجتمع المثالي الفاضل على قواعد الحب والإخاء والعدل والمساواة والتكافل والتعاون. والتضحية والإيثار. وهي المبادئ التي وضعها الإسلام للمجتمع الصالح ليعيش الناس في كل زمان ومكان إخوة متعاونين ويسودهم الوئام ويظلهم الأمن والسلام .ولقد كانت الحفاوة التي استُقْبِل بها الرسول الكريم في المدينة مظهرا جديدا يختلف عمّا كان يراه في مكة. فبمقدار ما كان من البغض والإستهانة في مكة كان الحب والاكبار في المدينة. فأيقن صلى الله عليه وسلم أنّ الله قد أذن لدينه بالنصر. وأنّ العقيدة التي ظل يضع قواعدها على أساس الإيمان بالله وحده قد آن لها أن تؤتي ثمارها. وبذلك انتهى عهد الإضطراب في مكة وبدأ عهد الإستقرار والأمن في المدينة. أيّها المسلمون. عندما هاجر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء. فسألهم: لماذا تصومون هذا اليوم؟ فقالوا: هذا يوم نجّى الله فيه موسى وبني إسرائيل من فرعون وقومه فقال صلى الله عليه وسلم: ((نحن أولى بموسى منكم)). وصامه وأمر أصحابه بصيامه. ولذلك فصيام هذا اليوم سنّة. ولما كان في آخر حياته وجد أنّ اليهود يصومون هذا اليوم والمسلمون يصومونه فقال: لابدّ أن نخالفهم. فقال لأصحابه: ((صُومُوا التَّاسِعَ والعَاشِرَ وخَالِفُوا اليَهُودَ)). وقال: ((لَئِنْ بَقِيتُ إِلَىٰ قَابِلٍ لأَصُومَنَّ التَّاسِعَ والعاشر)).

وتوفي صلى الله عليه وسلم فلم يصم إلا يوم العاشر فقط. وغدا إنشاء الله هو اليوم العاشر من المحرّم. فمن السنّة أن يصوم المسلم يوم عاشوراء. إقتداء بالحبيب المصطفى. صلى الله عليه وسلم. اللهم اسعدنا بجواره، واكرمنا بحلول دار هجرته وأنصاره، اللهمّ كما جعلتنا من أمّته، واستعملتنا بسنّته، وشوّقتنا إلى آثاره، وشغلت قلوبنا بتذكّره وتذكاره، وأريتنا تلك المعالم المُنيفة خيالا، وخطّطت منها في الضّمير مِثالا، فاشف بمرآها بصرا ضريرا، وبسناها يرتدّ بصيرا. واجعل لنا فيها مقرّا ومَقيلا، وضع عنّا من شوقها إصرا ثقيلا. آمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.اهـ

26- التّذكرة والتّبصرة في معايشة اللحظات الأُولى لقدوم الموكب النبويّ للمدينة المنوّرة

الحمد لله الذي نشر الحق وأبطل الباطل بهجرة خير البرايا. فجعلها للأمّة أكرم النعم وأجلّ الهدايا. فسبحانه من إله اصطفانا واجتبانا وجعلنا مسلمين، وتفضّل علينا فأعطانا وِسام الخيرية فجعلنا خير أمّة أخرجت للناس أجمعين، ووعدنا في الدنيا إن تقلّدنا هديه وتابعنا رسوله بالخير والهُدى والتمكين، وفي الآخرة بأن نكون من السعداء الفائزين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل ذكرياتِ الإسلام مواطن للعِبَر والعظات. وخَصّ هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم بالنصر والمعيّة والسكينة والنفحات، فكانت عزّا للإسلام. ورفعا لشأْن المسلمينَ الكرام. وأشهَدُ أَنَّ سيِّدَنا مُحمّداً عَبدُهُ ورَسولُهُ، وصفيّه مِنْ خَلْقه وخليله. أفضل من عبد الله وخضع. وهاجر في سبيل الله فأيّده بجنود لا تُرى ولا تُسمَع. فألّف به القلوب وأقنع. ووحّد به الصفوف وجمع. اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على سيدنا محمد، سيد من استمسك بهداك، وخير من بلَّغ شرعك إلى سواك، سيدنا محمد الإمام الأوّاب، والنبي الذي أثنيت عليه في الكتاب، وآله وأحبابه والأصحاب، وكل من تابعهم على هذا الهَدْي القويم المتين وأناب، وعلينا معهم أجمعين، وارزقنا اللهم التوفيق لاتّباع سنّته، وخذ بأيدينا دَوْماً للعمل على رَفْع شأن

شريعته، وأَزِلْ بيننا وبينه كل حجاب حتى نتمتّع في الدنيا بجمال حضرته، ونكون في الآخرة تحت لواء شفاعته، ونحظى أجمعين في الجنّة بجوار حضرته. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنَّ الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن سيرته الشريفة، مما تطيب به النفوس، وتهنأ به الأرواح، وتطمئن به القلوب؛ ذلك لأنَّ فيها الخير والهدى، وفيها من بيان الطريق الذي ينبغي أن نسلكه ونقتدي فيه بنبينا سيدنا ومولانا محمد عليه الصلاة والسلام ما هو واضح وبيِّن، وقد قال رب العزة سبحانه في سورة الأحزاب: ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)). وفي أيام رسول الله صلَّى الله عليه وسلم الجليلة النبيلة أيَّام خوالد، ما تزال تنطوي على الأيام، وتتألَّق في غُرَّة الزَّمان، ولعلَّ مِن أصدعها وأروعها يومَ الْهِجرة، ومن شواهد عِظَم حدث الهجرة أنه يزداد بَهاءً وسناءً كُلَّما تناوله العَرْض والبحث، كالذَّهب الإبريز كلَّما عرضْتَه على النار لتُمحِّصه؛ ازداد إشراقًا وصفاءً. وهجرة المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم كانت فاتِحَة الأمل، وبارقة النَّصر، وطريقة العودة له ولأصحابه إلى مكَّة فاتحين ظافرين، كما قال تعالى في سورة القصص: ((إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ))؛ أيْ: إلى مكَّة. وفي هذا المقام ننتقل إلى تلك البدايات الكريمة لدخول نبيّنا عليه الصلاة والسلام للمدينة النبوية المنوّرة، لقد شَرُفت المدينة بهجرةِ النبي عليه الصلاة والسلام، وصارت مأرِزًا لأوليائه ومكانًا ومأوًى للصالحين، ومعقلًا وحِصنًا منيعًا للمسلمين، ودار هدًى للعالمين، إنّها مدينة النور، إنها عاصمة النور بالحقِّ والحقيقة، فمنها شعَّ الهدى، ومنها عمَّ الخير إلى كلِّ الناس، ولا يزال العالم ينهلُ من آثارِ وبركات مُهاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذه المدينة المنوّرة، فحين يُقال: عاصمة النور، يُراد بها مدينة معيّنة في عالم اليوم، فإنَّ الحق والحقيقة أنَّ عاصمة النور هي المدينة النبوية المنوّرة، وعند التأمّل في سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام، بعد أن أذِن الله له بالهجرة من مكة، بعد أن أقام بها ثلاثة عشر عامًا يدعو إلى دينِ الله، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربه، أذِن الله له بعد أن استنكفت قريش عن قَبول هذا الهدى، وبعد أن تمادت في صَلَفها في أذيَّة هذا النبي الكريم، ورفض دعوته ومحاربة شرعته، أذِن الله له جل وعلا أن يهاجر إلى المدينة النبوية المنوّرة، وكانت قبل ذلك تُدعى يثرب، فلمّا دخلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عمَّها النور والخير والهدى للعالمين. قال الله تعالى في

سورة الإسراء: ((وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)). قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: جعل الله مدخل صدق المدينة ومخرج صدق مكة، وسلطانا نصيرا الأنصار. وقال ابن عبد البر في كتابه: الدُّرَر في اختصار المغازي والسير: وفيه دليل واضح على تفضيل المدينة؛ لأنّ الله ابتدأ بها، وكان القياس أن يبتدئ بمكة؛ لأنّه خرج منها قبل أن يدخل المدينة، وأيضًا قد جعل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم سلطانًا نصيرًا في المدينة ولم يجعله بمكة، ويأبى الله تعالى بكرمه إلا أن ينقل نبيّه إلا إلى ما هو خير.

أيّها المسلمون. وفي هذه الدقائق نقف عند اللحظات الأولى، والأيام الأولى لمقدم النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم للمدينة النبوية المنوّرة، وذلك كما ذكره الإمام البخاري في صحيحه، وابن إسحاق في سيرته، والحاكم في مستدركه، وغيرهم، فإنّه لمّا بلغ الأنصار مخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة مهاجرًا إلى المدينة المنوّرة، وكانوا يتراؤون هذا الحدث، بعد أن كان منهم البيْعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بنُصرته عند مجيئه إليهم، ولَمَّا يعلموا بعدُ متى يكون هذا القدوم لهذا الركب الميمون؟ لكن لَمَّا جاءت بعض الإرهاصات بمقدم النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وعلموا بخروجه من مكة، كانوا يتراؤون قدومه عليه الصلاة والسلام، فكانوا يخرجون كل يوم إلى الحَرَّة ينتظرونه أوّل النهار، والحَرّة هي الحجارة السود التي تحيط بالمدينة، وبالمدينة المنوّرة حرّتان معروفتان، فكانوا يخرجون خارج المدينة؛ ليكونوا في استقبال النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا اشتدّ الحر رجعوا إلى منازلهم، فلمّا كان يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأوّل سنة أربع عشرة من البعثة الشريفة، وهي السنة الأولى من الهجرة. خرجوا على عادتهم، فلما حَمِي الحر، رجعوا إلى دُورهم يستظلون من حر الشمس وضوئها، فصعد رجل من اليهود على أُطم من آطام المدينة، على واحد من حصونها المرتفعة، وذلك لبعض شأنه، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فصرخ بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا صاحِبُكم قد جاء، هذا جدُّكم الذي تنتظرون. فحين سمع المسلمون هذا الخبر من اليهودي، بادروا وثاروا جميعًا إلى السلاح؛ وذلك لإظهار الحفاوة بهذا الركب الميمون، وكبَّر المسلمون فرحًا بقدومه صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك كان هذا المقدم عظيمًا كريمًا في نفوسهم، نعم. كبَّر الغلمان والجواري، وعامّة أهل المدينة (الله أكبر، جاء محمد)، فتلقَّوه، وحيَّوه بتحية النُّبوة، فأحدقوا به مُطيفين حولَه، والسَّكينة تَغْشاه، والوحي

يَنْزل عليه، ((فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)). والكل متهلّل فَرِحٌ بهذا النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وهؤلاء الغِلمان والصبيان والخدم وغيرهم، يصيحون وينادون: (جاء محمد، جاء رسول الله، الله أكبر، جاء محمد)، ويذكر بعض أهل كتب السِّير ما كان منهم من هذا النشيد المعروف:

طلَع البدرُ علينا * من ثنيات الوداع

وجَب الشكرُ علينا * ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا * جئت بالأمر المطاع

جئت شرّفت المدينة * مرحبا يا خير داع

هكذا فرِحوا رضي الله عنهم وحُقَّ لهم أن يَفرحوا. إنَّها لحظات يتمنَّى كلُّ مسلم أن يعيشها، وأن يسكُبَ شيئًا من الدُّموع فرحًا بِها، الْمَوكب يتحرَّك بِبُطء، الطريق قد ازدحم بِسَيل الدُّموع وابتسامات الأطفال ولفتات الجموع، وسار صلى الله عليه وسلم على ناقته القَصْواء يُرخي زِمامَها، كُلَّما مرَّ بدارٍ من دور الأنصار أمسكوا بزِمام النَّاقة؛ لِيَنْزل عليهم، وهو يقول: ((دَعوها؛ فإنَّها مأمورة))، وعلى الطُّرق، وفِي البيوت لا تكاد تَسْمع إلاَّ (الله أكبر، جاء رسولُ الله)، الموكب يتهادى بين القلوبِ، والبيوت، والأطفال يركضون، ويقفزون، ويهتفون، وبِبَراءة العيون في خَلَلِ الزِّحام عن صاحب النَّاقة يبحثون، وبِلُغتهم يُعبِّرون، فيهم أنَسٌ رضي الله عنه يَصِفُ ذلك بِحُروف تنبض بالمشاعر، فيقول: إنِّي لأَسْعى في الغلمان، وهم يقولون: جاء مُحمَّدٌ رسول الله، فلا أرى شيئًا، وأسعى، ولا أرى شيئًا، حتَّى جاء فخرج أهلُ المدينة، حتَّى إنَّ العواتق فوق البيوت يَتراءَيْنه، فما رأَيْن منظرًا شبيهًا به يومئذ، والله لقد أضاء مِن المدينة كلُّ شيء، ولم يُرَ في تاريخها مِن حفاوة تُعادِلُها حفاوة ويَذكر أنَسٌ رضي الله عنه أنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلم مرَّ بحيٍّ مِن بني النجَّار، وجُوَيرياتٌ يُنْشِدن:

نحن جَوَارٍ من بني النّجارِ * يا حبّذا محمّد من جارِ

فمرحبا بذا النبي المختارِ * ومرحبا بسيّد الأبرارِ

فقال لهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أتحببنني؟ قلن: أي والله. فقال: والله إنّي أحبّكنّ)). يا له من نَبِيٍّ! ما أعظمه! ما أرقَّ مشاعِرَه! يُعْلِن حُبَّه للصغير والكبير، في البيوت وعلى الطرقات، بل ويُعلن حُبَّه حتَّى للجِبال، يَمرُّ بعْدُ بجبل أُحُد، فيقول: ((هذا أُحُد، جبلٌ يحبُّنا ونُحبُّه)). أيّها المسلمون. ذكر الإمام البخاري رحمه الله عن الزهري عن عروة أنه عليه الصلاة والسلام نزل في بني عمرو بن عوف بقُباء، وأقام فيهم بضع عشرة ليلة، وأسّس مسجد قُباء تلك الأيام، ثم ركب ومعه الناس، حتى بركت راحلته في مكان مسجده، وكان مربدًا لغلامَيْن يتيمَيْن، هما سهل وسُهيْل، فكان أن قدّما هذا المكان تبرّعًا منهما، إلا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل ذلك وابتاعه منهما، واتّخذه مسجدًا، وذلك في دار بني النجار رضي الله عنهم. وهكذا نشاهد حفاوة الصحابة رضي الله عنهم بهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الذي ما يمرّ بدار ولا في قَبِيلٍ وقوم، إلا وهم يدعونه عليه الصلاة والسلام ليشرّفهم بنزوله عندهم. وما زال الموكب يسير، وأمام بيت أبي أيُّوب الأنصاري رضي الله عنه برَكَت الناقة، فنَزل صلَّى الله عليه وسلم عن ناقته، وازدحَم عليه أنصارُه، كلٌّ يَعْرِض عليه النُّزول، ويتسلَّلُ أبو أيّوب رضي الله عنه فيأخذ رَحْل النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم إلى بيتِه، وهم في خِضَمّ ذلك قال صلَّى الله عليه وسلم : ((أين رَحْلي؟))، قال أبو أيُّوب: هو عندي، قال صلَّى الله عليه وسلم: ((المرء مع رَحْلِه، هيِّئْ لنا مقيلاً))، وقد هيَّأه، وَحلَّ في دارِ أبي أيُّوب وقَلْبِ أبي أيوب، والمدينةُ كلُّها تَغْبطه، وتَعْرف الشَّرف الذي حلَّ بين جدران مَنْزله، إي والله.. لكن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم نزَل في سُفْل الدَّار عن رَغْبة مِنه، أمَّا أبو أيُّوب فَبِرغم شدَّة فرَحِه برسول الله صلَّى الله عليه وسلم فقد كان في حرجٍ عظيم، لو رأيتَه وهو يسير في مَنْزله لأشفَقْتَ عليه، لا يتحرَّك إلاَّ في مساحة ضيِّقة من عُلْيَة بيته، لا يتعدَّاها، في حسٍّ مُرْهَف، وإيمانٍ عميق، يُخاطب نفْسَه، ويقول: وَيْحك أبا أيُّوب، أتَعْلو رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلم. وأصبحَ فأتَى النبِيَّ صلَّى الله عليه وسلم فقال: لا تكون تَحْتَنا بِأَبِي أنت وأُمِّي ونفسي يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: ((يا أبا أيُّوب، السُّفلُ خير بنا؛ يغشاني أصحابي))، فقال أبو أيُّوب: والله لا أَعْلو سقيفةً أنت تَحْتَها يا رسول الله، فتحوَّل رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم وقرَّت عينُ أَبِي أيوب رضي الله عنه وأرضاه. والمقصود أنّ هذا الاستقبال العظيم الذي كان من الصحابة رضي الله عنهم، يبيِّن شدّة حبِّهم له عليه الصلاة والسلام، وما جعل الله لهم من الفضل بهذا الاستقبال. لقد أحَبُّوه صلَّى الله عليه وسلم حُبًّا ملَكَ

عليهم مشاعِرَهم، وخالط دماءَهم، وحلَّ في سُوَيْداء قلوبهم رضوان الله عليهم. وأثنى الله جلّ وعلا على هؤلاء القوم من الأنصار بقوله في سورة الحشر: ((وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ. وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)). وأثنى الله جل وعلا أيضًا على إخوانهم المهاجرين فقال في سورة التوبة: ((وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)). وإن شاء الله تعالى نكون ممّن قال فيهم: ((وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)). أيّها المسلمون. فكما تقدَّم كان مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوّل ما قدم إلى المدينة كان مقامه في قُباء، ثم إنّه عليه الصلاة والسلام لمّا خرج متوجّهًا إلى المدينة المنوّرة، أدركته الجمعة في دار بني سالم بن عوف، وهنالك صلى النبي صلى الله عليه وسلم بالمسلمين أوّل جمعة بالمدينة المنوّرة، في المسجد الذي في بطن الوادي، وموضعه لا زال قائمًا إلى يومنا هذا، وخطب فيهم خطبةً شريفةً كريمة، وقد أورد هذه الخطبة الإمام ابن جرير الطبري في تاريخه، وكذلك ابن كثير في البداية، والقرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن، وكان نصّ هذه الخطبة قوله عليه الصلاة والسلام: ((الحَمْدُ للهِ. أحْمَدُهُ وأسْتَعينُهُ، وأَسْتَغْفِرُهُ وَأَسْتَهْديهِ، وَأُومِنُ بِه وَلا أكفُرهُ، وأُعادِي مَنْ يَكفُر به. وَأَشْهَدُ أنْ لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَه لا شَرِيكَ لَهُ. وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسولُه، أَرْسَلَهُ بالهُدَى ودِينِ الحَقّ، والنُّورِ والمَوْعِظَةِ والحِكمَة عَلَى فَتْرةٍ مِنَ الرُّسُل، وقِلّةٍ مِنَ العِلْمِ، وضَلاَلَةٍ مِن النَّاسِ، وانقطاعٍ من الزَّمَانِ. ودُنُوٍّ من السَّاعَةِ، وقُرْبٍ من الأجَلِ. مَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسولَه فَقَدْ رَشَدَ. ومَن يَعْصِ اللهَ ورَسولَه فَقَدْ غَوَى وفَرَّطَ وضَلَّ ضَلاَلاً بَعيداً. أُوصِيكم بتَقْوى اللهِ، فإنّهُ خَيرُ مَا أوصَى به المسلمُ المُسلمَ أنْ يَحُضَّهُ عَلَى الآخِرَةِ، وأنْ يَأمُرَه بِتَقْوى اللهِ. واحْذَروا مَا حَذَّرَكم الله من نَفْسِهِ؛ فإنَّ تَقوى اللهِ لِمَن عَمِلَ به عَلَى وَجَلٍ ومَخافةٍ مِن رَبِّهِ عَوْنُ صِدْقٍ عَلَى مَا تَبغُون من أمْرِ الآخِرَةِ. ومَن يُصْلِح الذي بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّهِ مِنْ أمْرِه في السِّر والعَلاَنِية، لا ينوِي به إلا وَجْهَ اللهِ يَكُنْ لَهُ ذِكْراً فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ، وذُخْراً فيمَا بَعدَ المَوْتِ، حِينَ يَفْتَقِرُ المَرءُ إلى مَا قَدَّمَ. ومَا كَانَ مِمَّا سِوَى ذَلكَ يَوَدّ لَو أَنَّ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ أمَداً بَعيداً. (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ). هو الذي

صَدق قولَه، وأنجز وَعْدَهُ، لا خُلْف لذلك؛ فَإنَّهُ يَقول تعالى: (مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَاْ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ). فاتقوا الله في عاجِل أمْرِكُم وآجِله في السِّرِّ والعَلانِيَة؛ فَإنَّه (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً). (ومن يَتَّقِ الله فَقَد فازَ فَوْزاً عظيماً). وإنّ تَقوى الله توقّي مَقْتَه وتُوَقِّي عقوبتَه وتُوَقِّي سَخَطه. وإنَّ تَقْوى الله تُبَيِّضُ الوجوهَ، وتُرْضِي الرَّبَّ، وتَرْفَعُ الدَّرَجَةَ. فخُذوا بحظّكم ولا تفرِّطوا في جَنْب الله، فقد علَّمكم كتابَه، ونَهَج لكم سبيلَه؛ ليعلم الذين صَدَقوا ويَعلمَ الكاذبينَ. فَأحْسِنُوا كما أحْسَنَ اللهُ إليكم، وعَادوا أعْداءَه، وجَاهِدوا في الله حَقَّ جِهَادِهِ؛ هو اجْتَبَاكُم وسَمَّاكم المسلمينَ. لِيَهْلِك من هَلَك عن بيِّنة، ويَحيا من حَيِيَ عَن بَيِّنَةٍ. ولا حَولَ ولا قُوّةَ إلا بالله. فَأكثروا ذكرَ الله تعالى، واعمَلوا لِما بَعدَ المَوتِ؛ فإنَّه مَن يُصلح ما بَينَه وبينَ الله يَكْفِه الله ما بَينَه وبينَ الناس. ذلكَ بِأنَّ اللهَ يَقضِي على النَّاس ولا يَقْضُون عليه، ويَملِك منَ النَّاسِ ولاَ يَمْلِكون منه. الله أكبرُ، ولا حَوْل ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم)). أيّها المسلمون. فهذه بدايات نبيِّنا عليه الصلاة والسلام في المدينة النبوية المنوّرة، وحقٌّ على كل مسلم إن أراد سعادة نفسه ونجاتها أن يقتفي آثار هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وأن يعرف من سيرته وسُنّته ما يخرج به عن عداد الجاهلين به، فإن الله أنكر على مَن تنكّب هذا السبيل، ولم يرفع رأسًا بمعرفة النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فقال عز من قائل في سورة المؤمنون: ((أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)). وإنه لقبيحٌ بالإنسان أن تكون عنده هذه النعمة العظمى والمنحة الكبرى، ثم بعد ذلك لا يرفع بها رأسًا، ولا يعظِّم هذا الشأن، مع أنه فضل من الله عظيم. وقبيحٌ من الإنسان أيضًا أن تكون معرفته بعدد من الناس من آحادهم، ممن ليس لهم مقام ولا أثر كريم أن يعرف من شأنهم ما يعرفه، ويحفل به، ثم بعد ذلك يُعْرِض عن معرفة سيرة نبيّه صلى الله عليه وسلم وهديه وسُنّته، فهذا علامة على الخِذلان، وعلامة على البعد عن الصراط المستقيم، نعوذ بالله من كل ذلك!. فحقيق بالمسلم أن يكون عالمًا بسيرة وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم، مزدادًا من ذلك، فهذا هو الفضل العظيم والخير والبر الكبير، وأن يتدارس هذا الأمر مع كل مَن يجالسهم من أصدقائه وزملائه، ومع أهل بيته وأولاده، فذلك خير عظيم. قال الإمام المنذريّ رحمه الله تعالى: باب التّرهيبُ من أن يجلسَ الإنسانُ مجلسًا لا يُذكرُ اللهُ فيه، ولا يُصلّى على نبيِّه محمّد صلى الله عليه وسلم. عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم قال: ((مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً، فَإِنْ

شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ)). وَمَعْنَى قَوْلِهِ تِرَةً يَعْنِي حَسْرَةً وَنَدَامَةً. فعياذًا بالله من الإعراض ومن الخِذلان، ونسأله سبحانه أن يُكرمنا بالاستقامة على شرعه، والقرب من هدي نبيّه صلى الله عليه وسلم، والقرب من مجلسه يوم القيامة، والشرب من حوضه الشريف صلى الله عليه وسلم، إنّ ربي سميع قريب مجيب. اللهمّ كما جعلتنا من أمّته، واستعملتنا بسنّته، وشوّقتنا إلى آثاره، وشغلت قلوبنا بتذكّره وتذكاره، وأريتنا تلك المعالم المُنيفة خيالا، وخطّطت منها في الضّمير مِثالا، فاشف بمرآها بصرا ضريرا، وبسناها يرتدّ بصيرا. واجعل لنا فيها مقرّا ومَقيلا، وضع عنّا من شوقها إصرا ثقيلا. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. اهـ

27- ترسيخ خير البريّة لِأُسُس المواطنة الصّالحة السِّلميّة من خلال وثيقة المدينة المنوّرة النّبويّة

الحمد لله الذي جعل فيما شرعه منجاة من الزَّلَل. وأتاح حياة طيّبة حسنة في الدنيا والآخرة لمن أخلص في القول والعمل. وأمر بالتّدبّر في العواقب لاجتناب الخَطَل. وحثّ على الصبر واقتحام المصاعب لإدراك الأمل. فسبحانه من إله يجازي كلّ أحدٍ على نيّته وأعماله. فمَن يعمل خيرا يره بمقتضى كرمه ونواله. ومَن يَضل ويعمل شرا يلق جزاء شره وضلاله. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. أمر بالعدل والإحسان. ونهى عن التّفرّق والتنازع المُوجب للخِذلان. وجعل الإتّحاد قوّة شامخة البنيان. بها يُدفع الشر والعدوان. ويستتبّ الأمن ويعمّ الإطمئنان. وبها يحصل التعاون على الخير ويزدهر العمران. وأشهد أنّ سيّدنا محمدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. أقام الدين على دعائم السداد. وقاوم الاستبداد والطغيان والفساد. وطهّر العقول من الأوهام والإلحاد. ودعا إلى التعاون والاتّحاد. ونهى عن التّفرّق وإثارة الإحن والأحقاد.

يَا أُمَّةَ المُصْطَفَى البُشْرَى تَحِقُّ لَنَا * لأَنَّ ذَا العَرْشِ بالمُخْتَارِ فَضَّلَنَا

وَبِالصَّلاَةِ عَلَيْهِ قَدْ تَخَوَّلَنَا * إِنْ شِئْتُمُ أَنْ تَنَالُوا عِزَّ جَانِبِهِ

صَلُّوا عَلَى المُصْطَفَى يَا مُؤْمِنِين بِهِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. الذي يزول برؤيته عن القلب الرّان ويُشْفَى العليل. وعلى آله ذوي التعظيم والتبجيل. وصحابته وجميعِ أمّته الموسومين بالغرّة والتحجيل. صلاة يفيض بها علينا بحر فضلك وكرمك الجزيل. ونكون بها ممّن لا ينحرف قلبه عن طريق الحقّ ولا يميل. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ الروابط التي تجمع بين الأمم والشعوب كثيرة، منها رابطة الإنسانية، ورابطة الدِّين ورابطة العشيرة، ولكن الرابطة التي تجمع بين هذه الروابط جمعيا هي رابطة الوطن، وما من إنسان إلا ويعتزّ بوطنه, لأنه مَهْد صِباه. ومَدْرج خُطاه. ومَرْتع طفولته, وملجأ كهولته، ومن حكمة الله تعالى أن جعل الناس شعوباً وقبائل، كلٌّ واحد منها له انتماؤه لأرضه ووطنه، يبذل الغالي والنفيس لأجله، بل يبذل رُوحه رخيصة إذا امتدت له يد الغدر والعدوان. وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب لنا أروع الأمثلة في الوفاء لوطنه مكة بعد هجرته منها، واشتياقه لمحل ولادته ونشأته، مع أنّ أهلها قد أخرجوه منها. وساموه وشيعته سوء العذاب، ومع أنّه قد كان في هجرته منها نشرٌ للإسلام. وتوطيدٌ لدعائمه. كما ورد في الأثر عن الزهري، قال: قدم أُصَيْل الغفاري على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من مكة قبل أن يُضرب الحجاب، فقالت عائشة: كيف تركتَ مكة؟ قال: اخضرّت جنباتها، وابيضّت بطحاؤها، وأغدق إذخرها، وانتشر سَلَمها، فقال له رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. وقد أثار هذا حنينه إلى وطنه الأصلي: ((حسبك يا أُصَيْل. لا تُحزنّي))، فلقد أحب النبي صلى الله عليه وسلم مكة حباً شديداً، وآلمه تركها، وحزّ في نفسه أن يخرجه قومه منها. روى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لمكة يوم هاجر منها: ((ما أطْيَبَكِ من بلد، وأحبَّكِ إليّ، ولولا أنَّ قومي أخرجوني منكِ ما سكنتُ غيرَكِ)). وقد أجابه الله تعالى تطيباً لخاطره. فقال في سورة القصص: ((إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)). ثم واساه في هذه الفطرة، فحوّل الله تعالى قِبلة المسلمين الأُولى من بيت المقدس إلى مكة المكرمة. تطيباً لنفس النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه صلى الله عليه وسلم مع تسليمه لله تعالى بحُكمه وحِكمته أحب في قلبه لو تكون قِبلة المسلمين اتّجاه الكعبة المشرّفة،

مَوْطنه الأصيل. كما روى ذلك البخاري في صحيحه، فأنزل الله تعالى: ((قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا)). أيّها المسلمون. إنّ المواطَنة الصالحة هي أهمّ أركان الانتماء للأوطان. والتعبير الحقيقي عن حبها، بجميع مكوّناتها. وقد ضرب النبي عليه الصلاة والسلام في وثيقة المدينة المنوّرة أروع الأمثلة لهذه المواطنة. من خلال العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين. وجَمْعهم برباط الوطن، الذي يقوم على أساس المساواة في الحقوق والواجبات, دون النظر إلي الانتماء الديني أو العِرقي أو المذهبي أو أيّ اعتبارات أخرى, فكانت هذه الوثيقة التاريخية أوّل دستور للدولة المدنية في العالم, جاء ليحدّد ملامح الدولة الجديدة, من خلال تعاون أبنائها. ونصرة بعضهم بعضًا. دون أيّ خطرٍ يحيق بمجتمعهم، وتقديم العَوْن والتناصح، وتعزيز رُوح المساواة والعدل، مما يُرَسِّخ في قلوبهم محبّة الوطن، والوفاء له. وَنَصَّتْ الْوَثِيقَةُ عَلَى أَنَّ: ((كُلَّ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ خِلاَفٍ، فَإِنَّ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ)). صلى الله عليه وسلم. فَكَانَتْ بُنُودُهَا الأُولَى تُقَرِّرُ إِقَامَةَ الْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ، وَالتَّقَاضِيَ بِالْقِسْطِ، وَهُوَ الأَصْلُ الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ الشَّرَائِعُ وَالأَدْيَانُ وَالْحَضَارَاتُ، وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ في سورة النحل: ((إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)). وَمِنْ قَوَاعِدِ الإِنْصَافِ الَّتِي أَثْبَتَهَا رسول الله صلى الله عليه وسلم فِي وَثِيقَةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ نُصْرَةُ الْمَظْلُومِ، فَجَاءَ فِيهَا: ((وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوِ ابْتَغَى كَبِيرَةَ ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ أَوْ عُدْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِم جَمِيعِهِمْ، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ)). كَمَا جَاءَ فِيهَا: ((وَأَنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ)). وَذَلِكَ لِجَمِيعِ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ، فَإِنْ وَقَعَ ظُلْمٌ أَوْ بَغْيٌ مِنْ أَحَدٍ عَلَى آخَرَ فَإِنَّه يُنْتَصَرُ لِلْمَظْلُومِ، وَيُسْتَرَدُّ الْحَقُّ مِنَ الظَّالِمِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة الحجرات: ((وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)). أيّها المسلمون. لَقَدْ أَرْسَتْ وَثِيقَةُ الْمَدِينَةِ قَوَاعِدَ التَّعَايُشِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَجَاءَ فِيهَا: ((وَأَنَّ بَيْنَهُمُ أَيْ: الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ سُكَّانِ الْمَدِينَةِ. النُّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ، وَأَنَّ الْبِرَّ دُونَ الإِثْمِ)). وَ((لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ)). فَرَسَّخَتِ الْوَثِيقَةُ مَفْهُومَ التَّسَامُحِ الدِّينِيِّ، وَحُرِّيَةَ الاِعْتِقَادِ، وَقَضَتْ عَلَى مَبْدَإِ التَّعَصُّبِ وَإِكْرَاهِ النَّاسِ عَلَى الدِّينِ، قَالَ تَعَالَى في سورة البقرة: ((لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)). وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ في سورة الكافرون: ((لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)). فَأَقَرَّتْ بِذَلِكَ السَّلاَمَ وَالْوِئَامَ بَدَلاً

مِنَ الْخُصُومَةِ وَالصِّدَامِ؛ لأَنَّ الاِخْتِلاَفَ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَشْكَالِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ وَمُعْتَقَدَاتِهِمْ سُنَّةٌ إِلَهِيَّةٌ، وَحِكْمَةٌ رَبَّانِيَّةٌ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ في سورة هود: ((وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً. وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ. وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)). وَأَكَّدَتْ وَثِيقَةُ الْمَدِينَةِ مَبْدَأَ الْبِرِّ بِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَوَاضِعَ عِدَّةٍ مِنْهَا، وَهُوَ مَا قَرَّرَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى في سورة الممتحنة: ((لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)). فَمَا أَجْمَلَ دِينَ الإِسْلاَمِ، الَّذِي جَاءَ لِيَنْشُرَ فِي الأَرْضِ السَّلاَمَ، وَالْبِرَّ وَالإِحْسَانَ، وَالرَّحْمَةَ وَالْوِئَامَ. أيّها المسلمون. لَقَدْ قَرَّرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فِي وَثِيقَةِ الْمَدِينَةِ حُقُوقَ الْمُوَاطَنَةِ، فَمِنْ حَقِّ كَافَّةِ فِئَاتِ الْمُجْتَمَعِ عَلَى اخْتِلاَفِ أَعْرَاقِهَا وَأَلْسِنَتِهَا وَمُعْتَقَدَاتِهَا أَنْ تَنْعَمَ بِالاِسْتِقْرَارِ وَالْحُرِيَّةِ، وَتَأْمَنَ عَلَى الدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالْمَالِ وَالْعِرْضِ، دُونَ تَمْيِيزٍ عَلَى أَسَاسٍ دِينِيٍّ أَوْ عِرْقِيٍّ، فَكَانَ مِمَّا جَاءَ فِي الْوَثِيقَةِ النَّبَوِيَّةِ: ((وَأَنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ، وَمَنْ قَعَدَ بِالْمَدِينَةِ آمِنٌ)). فَكَانَتِ الْمَدِينَةُ وَاحَةَ أَمَانٍ، وَرَوْضَةَ اطْمِئْنَانٍ، يَعِيشُ جَمِيعُ أَهْلِهَا بِسَلاَمٍ، وَهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ، يَعْمَلُونَ عَلَى أَحْسَنِ هَدْيٍ وَأَقْوَمِهِ، وَأَيْدِيهِمْ عَلَى مَنْ بَغَى أَوْ أَحْدَثَ فَسَادًا، يَهُبُّونَ لِلدِّفَاعِ عَنْهَا، وَيَقِفُونَ فِي وَجْهِ مَنْ يُدَاهِمُهَا. وَأَسَّسَتِ الْوَثِيقَةُ النَّبَوِيَّةُ لِمُجْتَمَعٍ تُحْتَرَمُ فِيهِ الْخُصُوصِيَّةُ، وَتُحْفَظُ الْمِلْكِيَّةُ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ، وَتُحَدَّدُ الْمَسْؤُولِيَّةُ الشَّخْصِيَّةُ، فَقَدْ نَصَّتْ عَلَى أَنَّهُ:((لاَ يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلاَّ عَلَى نَفْسِهِ)). وَجَاءَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى في سورة الأنعام: ((وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)). فَكَانَ ذَلِكَ دَعْوَةً إِلَى الْبُعْدِ عَنْ ثَارَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ وَحَمِيَّتِهَا، وَوُجُوبِ الْخُضُوعِ لِلْقَانُونِ، وَرَدِّ الأَمْرِ إِلَى حَاكِمِ الْمَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ الْمَبْدَأُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ الْقُرْآنُ بِقَوْلِهِ: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ)). أيّها المسلمون. إنّ في وثيقة المدينة المنوّرة النّبويّة إشارة إلى أنّ المرء الصالح يتمنّى الخير لموطنه، ويبغض كل ما يسيء إلى بلده، وأنّ الإنسان يرى وطنه أجمل وأفضل بقاع الأرض، ويتفانى في خدمته والدفاع عنه، وعن مقدّراته وخيراته، ويحافظ على هويّته ويكون فرداً صالحاً فيه، فقد جاء في آثار العرب. من طريق الأصمعي، قال: سمعتُ أعرابيا يقول: إذا أردتَ أن تعرف الرجل فانظر كيف تحنّنه إلى أوْطانه، وتشوّقه إلى إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه، وإذا كان الإنسان يتأثّر بالوطن الذي وُلد فيه، ونشأ على ترابه، وعاش من خيراته، فإنّ لهذا الوطن عليه حقوقاً وواجباتٍ كثيرةً تتمثّل في حقوق الأُخوّة،

وحقوق الجِوار، وحقوق القرابة، وغيرها من الحقوق الأُخرى التي على الإنسان في أيّ زمانٍ ومكان أن يُراعيها، وأن يؤدّيها على الوجه المطلوب؛ وفاءً وحباً منه لوطنه، لأنّ ذلك تحقيقٌ لمعنى الاستخلاف الذي قال فيه سبحانه وتعالى في سورة هود: ((هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)). اللَّهُمَّ أَدِمْ عَلَيْنَا الإِسْتِقْرَارَ فِي الأَوْطَانِ، وَارْزُقْنَا دَارَ السَّلاَمِ يَوْمَ نَلْقَاكَ يَا رَحِيمُ يَا رَحْمَنُ. اللَّهُمَّ انْشُرِ الإِسْتِقْرَارَ وَالسَّلاَمَ فِي بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ وَالْعَالَمِ أَجْمَعِينَ. اللَّهُمَّ أَدِمْ مَحَبَّتَنَا، وَبَارِكْ أُلْفَتَنَا، وَوَفِّقْنَا لِطَاعَتِكَ، وَطَاعَةِ رَسُولِكَ صلى الله عليه وسلم وَطَاعَةِ مَنْ أَمَرْتَنَا بِطَاعَتِهِ. اللهم آمنّا في أوطاننا. وأصلح أئمّتنا وولاّة أمورنا، اللهم ادفع عنّا الغلاء والوباء. والربا والزنا. والزلازل والمحن. وسوء الفتن. ما ظهر منها وما بطن. عن بلدنا هذا خاصة. وعن سائر بلاد المسلمين عامّة. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

28- الْمَوْرِدُ الأحلى في سلوة الحزين والثَّكلى بأخذ العبرة الْمُثلى من مصيبة انتقال النبيّ إلى الرّفيق الأعلى صلّى عليه اللهُ ذو العُلى

الحمد لله الذي تفرّد بالبقاء والدوام. فليس له شريك ولا شبيه الحيّ القيّوم ذو الجلال والإكرام. كلّ المخلوقات قَهْر عظمته وأمره بالكاف والنون. وإذا قضى أمرًا فإنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. حَكَم بالموت على جميع مخوقاته. فقال في كتابه المكنون. ((كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)). نحمده تعالى على نعمة الإسلام. ونشكره جلّ وعلا على الدوام. ونستوهب منه عفوه الجميل ممّا ارتكبناه من الآثام. ونطلب منه الهداية والدخول في زمرة مَنْ قال: ربِّيَ اللهُ ثم استقام. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. جعل الموت سبيلا يلتحق به الأوّلون والآخِرورن. ويشترك فيه المؤمنون والكافرون. ويسلكه الأولياء والأصفياء والمرسَلون. فقال: ((كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)). وأشهد أنّ سيّدنا محمدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. أرسله بالدعوة الهادية والشِّرعة الصافية والملّة

الباقية والعصمة الواقية والكلمة العالية والمكرُمة الوافية على مكارم الأمم الماضية فجاهد في الله بعزيمة ماضية وسيرة راضية حتى لانت الشكائم العالية ودانت الخلائق لله في الدانية والقاصية ثم استأثر اللهُ به ليكافئه وخيّره فاختار الباقية على الفانية.

فبالله يا عشّاق وجهِ محمدٍ * ورؤيتِهِ أذكارَه لا توادِعُ

فميلوا إليه بالحنين وبالجَوَى * فما وُدُّ محبوبٍ لدى الصّبّ ضائعُ

وصلّوا عليه بالدوام وسلِّموا * وسنّتَه الزَّهْرَاءَ مدى الدّهرِ تابع

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمد. خيرِ مَن افتخرت بظهوره العصور والقرون. وعلى آله المنتَخَبين من أطهر الأصلاب وأشرف البطون. وصحابته العاملين بأحكام الشريعة فيما يأتون وما يذرون. صلاة توفّي لنا بها الظنون. وتقضي لنا بها جميع المآرب والشؤون. وترحمنا ببركتها عند انقضاء الأجل وحلول المنون. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أما بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ الله تعالى قضى بالموت على خَلْقه فلا رادّ لقضائه. فمَن طمع في البقاء فلا سبيل إلى بقائه. فلا يبقى نبيّ ولا رسول ولا مَلَك. ولا إنس ولا جانّ ولا عالَم ولا فَلَك. وقد سبق الإنذار والإعلام. بقول العليم العلاّم. حيث قال في سورة الرحمان: ((كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)). فلا يَعْصِم من الموت حِصْنٌ حصين. ولا يُنْجِي منه خصوصية المختَصِّين. ولا ينفع في دفعه جاه ولا مال. ولا تُجْدي فيه حيلة محتال. ولا تُقْبَل فيه عند الله شفاعة. ولا توسّل بقربة أو طاعة. ولا يتحاشى عنه أحد لتقواه. ولا يُنَزَّه عنه مخلوق لفضله وهداه. ولو كان ذلك لكان الأولى به حبيب الله ونجيّه. وخليله وصفيّه. مَن أوجد الله لأجله جميع الأنام.سيّدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام. وقد أتاه الله مفاتيخ خزائن الدنيا والخُلْد فيها ثم الجنّة. فخيّره بين ذلك وبين لقائه والجنّة. فاختار لقاء الله والجنّة. فأعظِمْ بها مِنْ مِنّة. ومع هذه المنزلة التي لا يصل إليها الواصلون. نُعِيَت إليه نفسه الكريمة وأنذره الله ريب المنون. فقال تعالى في سورة الزمر: ((إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)). وسلاه بمن مات قبله في سالف القرون. فقال تعالى في سورة الأنبياء: ((وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ)). وإنّه لم يؤَخَّر عند انقضاء مدّته. ولم يُعَمَّر عند حضور منيّته. أيّها

المسلمون. إنَّ الحديث عن وفاة سيِّد البشر. إنّما لأجل ما فيها من العظات والعبر، فكما كانت حياتُه صلى الله عليه وسلم متدَفِّقةً دَعوةً وهِدايةً وبِناءً، فكذَلك كانت وفاتُه عليه الصلاة والسلام نضَّاخَةً دروسًا وعِبرًا واقتداءً، تستخلِص الأمّة عَبَقَ معازيها، وتترسَّمُ شُمَّ معاليها؛ إنّه حديثٌ عن وفاة حبيبنا الذي لم تكتحل أعيننا بَعْدُ برؤيته، حديثٌ عن وفاة حبيبنا الذي نسأل الله عزّ وجلّ أن يرزقنا جواره في جنّته، حديثٌ عن وفاة حبيبنا الذي بلّغ دين الله وأرشد إليه. وناجى ربّه ودعا إليه. صلوات الله وسلامه عليه. لقد كانت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم رزيَّة في الإسلام ما أخطرها، ومصيبة على أمَّة الإسلام ما أعظمها،

اِصبِر لِكُلِّ مُصيبَةٍ وَتَجَلَّدِ * وَاِعلَم بِأَنَّ المَرءَ غَيرُ مُخَلَّدِ

وَإذا أتَتْكَ مُصيبَةٌ تَشْجَى بِها * فَاِذكُر مُصابَكَ بِالنَبِيِّ مُحَمَّدِ

نعم. إذا كانت الجمادات تتصدَّع من أَلَمِ مفارقةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف بقلوب المؤمنين؟! لَمَّا فقَدَه الجذعُ الذي كان يخطب إليه النبي صلى الله عليه وسلم قبل اتّخاذ المنبر حنَّ إليه، وصاح كما يصيح الصغير. حتى تصدع وانشقّ، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم مِنْ على المنبر فاعتنقه، فجعل يُهَدِّؤه كما يُهَدَّءُ الصبي، وقال: ((لولم أعتنقه لحنّ إلى يوم القيامة)). كان الحسن البصري إذا حَدَّث بهذا بكى، وقال: هذه خشبة تحنّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنتم أحقّ أن تشتاقوا إليه. الصّلاة والسّلام عليك يا سيّدي يا رسول الله.

إذَا مَا الجِذعُ حَنَّ إليكَ يَومًا * وكادَ لِفرطِ حَسرتِهِ يَذُوبُ

فَماذَا يفعلُ الـمِسكينُ مِنَّا * وفي أحشائِهِ هذا اللهِيبُ

فهلَّ كُنتُ ذَاكَ الجِذعِ يَومًا * وأنت لِياَ الـمُدَاويَ والطَبيبُ

فَكَفُكَ تَـمسحُ العَبارَاتِ مِنّي * ويَشفِي جُرحِيَ النَّفَسُ الرَّطِيبُ

رسولَ الله لي أملٌ وإني * لأدري كم زَللتُ وما أصيبُ

وأدري أنَّ زَلاَّتِي كِبَارٌ * وأنَّ الجِذعَ ليسَ له ذُنوبُ

سَتجمعُنِى بِكم نَفحاتُ رَبِي * وأنَّ الـحَوضَ مَوعدُنَا القَرِيبُ

فيا ربّاهُ لي أملٌ لأنّي * إلى المختار منتسِبٌ حبيبُ

أيّها المسلمون. بعدَ أن أكمل الله الدين. وأتمَّ على البشرية النِّعمة، وبلَّغ المصطفى صلى الله عليه وسلم الأمانة وأدَّى الرسالة، وهدى البشريّة من الضلالة. وعلَّمها من الجهالة، وانتحى بها إلى قِمم المجد والعزِّ والجلالة؛ أنزل الحقُّ عليه سورةَ النصر؛ ناعيًّا إيّاه في أوّل مقدّماتِ الوفاة، فكلُّ أَمْر اكتمل واستتمّ. فالتسبيحُ والإستغفار عقِبَه خيرُ مُختتَم، وفيه أيضًا أنَّ الإستغفارَ ساعةَ الإنتصارِ. دَليلُ الشكرِ والذّلِّ والإنكسَار، قال تعالى: ((إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)). ففي آخر العام التاسع للهجرة بدأ النبيّ صلى الله عليه وسلم يشعر بدنوّ أجله. وقرب رحيله. وفراقِه لمن حوله، وكان أوّل إرهاصات هذا الأمر العظيم أنّه عليه الصلاة والسلام ودّع سيّدنا معاذًا بن جبل رضي الله عنه لمّا بعثه إلى اليمن. ومعاذٌ على راحلته وهو صلى الله عليه وسلم يمشي يقود الناقة، وأوصاه بما يفعله في الدّعوة، ثم قال له: ((يا معاذ لعلّك لا تلقاني بعد عامي هذا، يا معاذ لعلّك تمرّ على قبري ومسجدي))، ثم ودّعه عليه الصلاة والسلام. وفي حجَّة الوداع من السنة العاشرَة للهجرة خَطَبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم الناسَ وودَّعهم، قائلاً فيما خرَّجه مسلمٌ في صحيحه: ((خذُوا عنّي مناسككم؛ لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا)). وفي لفظ: ((فإنّي لا أَدري لعلّي لا أحجُّ بعد حجّتي هذه))، وكان يقول بعد كل مقطع من خطبته: ((ألا هل بلغت؟)). فيقول أصحابه: نعم، فيقول: ((اللهم فاشهد))، حتى إنّه كان واضحًا معهم وهو إمام المخلِصين: ((أيّها النّاس، إنّكم ستُسْألون عنّي، فماذا أنتم قائلون؟)). فقالوا: نشهد أنّك بلّغت الرسالة. وأدّيت الأمانة. ووفّيت وأدّيت الذي عليك كلَّه، ثم رفع صلى الله عليه وسلم سبّابتَه إلى السماء ثم نكتها إلى الأرض ثم قال: ((اللهم فاشهد)). وطفِق يودّع الناس؛ لذا سُمّيت حجّة الوداع. ولما نزل عليه قوله تعالى في سورة المائدة: ((الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا)). بكَى سيّدن عمر رضي الله عنه وقال: ليس بعد الكمالِ إلا النّقص؛ مستشعرًا قُربَ أجل النبي صلى الله عليه وسلم بانتهاء مهمّته. وفي حديثِ أمّ المؤمنين السيّدة عائشةَ رضي الله عنها المخرَّج في الصحيحَين قالت: أقبلَت فاطمة رضي الله عنها تمشِي كأنَّ مشيتَها مشيُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: ((مرحبًا بابنَتي)) الحديث، إلى أن قالت فاطمة رضي الله عنها: أَسرَّ لي صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ جبريلَ كان يعارضني القرآن كلَّ سنة مَرّةً، وإنّه عارَضني العامَ مرّتَين، ولا أُراه إلاّ حَضَر

أجلي، وإنّك أوّلُ أهل بيتي لحاقًا بي)) فبكيتُ، فقال: ((أمَا ترضين أن تكوني سيّدةَ نساء أهل الجنّة أو نساء المؤمنين؟!)) فضحكتُ لذلك. ولمَّا رجع صلى الله عليه وسلم من حجَّته جمع الناس بمكان يقال له غدير خم، أخرج الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده والبيهقي وابن حبّان وابن خزيمة في صحيحيهما وابن كثير في تفسيره عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: ((قام رسول الله صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم يوماً فينا خطيباً بماءٍ يُدعى خُمّاً بين مَكَّة والمَدينَةِ فحَمِدَ اللهَ وأثْنى عَليهِ ووَعَظَ وذَكَّرَ ثمّ قالَ: أمّا بَعدُ! ألا أيّها النّاسُ فإنَّما أنا بَشَرٌ يُوشَكُ أنْ يأتيَ رَسولُ رَبّي فأُجيبُ، وأنا تارِكٌ فِيكُم الثَّقَلَيْن؛ أوَّلُهما كِتابُ اللهِ فيهِ الهُدى وَالنُّورُ، فَخُذوا بِكِتابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكوا بهِ. فَحَثَّ على كِتابِ اللهِ ورغَّبَ فيهِ ثُمّ قالَ: وأهْلُ بَيتِي؛ أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أهلِ بَيتي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أهل بَيتي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أهل بَيتي)). وجاء في رواية الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عَن النّبيّ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم أنّه قال: ((إنّي أُوشَكُ أنْ أُدْعى فأُجيبُ، وإنيّ تارِكٌ فِيكُم الثَّقَلَيْنِ: كِتابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وعِتْرَتي. كِتابُ اللهِ حَبْلٌ مَمدودٌ مِن السَّماءِ إلى الأرض. وَعِترَتي أهلُ بَيتي؛ وَإنّ اللّطيفَ الخَبيرَ أخْبَرني أنَّهُما لَن يَفْتَرِقا حَتىّ يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ؛ فانْظُروني بِم تَخْلُفوني فِيهِما)). أيّها المسلمون. في مثل هذا الشهر أعني في آخِر أربعاء من شهر صفر سنة إحدى عشرة للهجرة إبتداْه صلى الله عليه وسلم المرض الذي توفي فيه. وكانت مدَّة مرضه ثلاثة عشر يومًا. أو قريبا من ذلك. وكان أوّل ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من مرضه وجع رأسه، ثم حرارة متّقدة كانوا يجدون شدّتها فوق العصابة التي عصّب بها رأسه الشريف، وفي مرضه اشتدّت عليه الحمّى، ففي الصحيحين عن سيّدنا عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يُوعَك فمسسته فقلت يا رسول الله: إنّك توعك وعكاً شديداً. قال: أجل. إنّي أوعك كما يوعك الرجلان منكم. قلت: إنّ لك أجرَيْن. قال: نعم والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله عنه خطاياه كما تحطّ الشجرة ورقها وفي الصحيحين أيضا عن أمّ المؤمنين السيّدة عائشةَ رضي الله عنها قالت: ((ما رأيت الوجع على أحد أشدّ منه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)). وفي المتّفق عليه عنها رضي الله عنها قالت: ((مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين حاقنتي وذاقنتي فلا أَكره شدّة الموت لأحد بعده صلى الله عليه وآله وسلم)). وفي البخاري عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((أشدّ الناس بلاء

الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يُبتلَى الرجل على حَسَب دينه. فإنْ كان في دينه صلابة شُدِّد عليه في البلاء)). أيّها المسلمون. لمَّا كان آخر شهر صفر أمره الله تعالى بأن يستغفر لأهل البقيع، فأتاهم في جوف الليل فدعا لهم، فكأنَّه ودَّع الأحياء والأموات جميعًا من أصحابه. روى الإمام أحمد في مسنده. عن أبي مويهبة رضي الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال له في جوف الليل: يا أبا مويهبة، إنّي قد أُمِرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي، قال: فانطلقت معه. فلمّا وقف بين أظهرهم، قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، لو تعلمون ما نجّاكم الله منه أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أوّلها والأخيرة شرّ من الأولى، قال: ثم أقبل عليّ، وقال: يا أبا مويهية هل علمت أنّي قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنّة، وخُيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربي، قلت: قلت: بأبي أنت وأُمّي خذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنّة، فقال: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنّة))، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف بعد ذلك إلى قتلى أُحدُ فصلّى عليهم، فرجع معصوب الرأس، فكان ذلك بدء الوجع الذي توفي فيه صلى الله عليه وسلم. أيّها المسلمون. وأوّل معالم مرضه صلى الله عليه وسلم كان صداعا في رأسه، روى الإمام أحمد عن أمّ المؤمنين السيّدة عائشةَ رضي الله عنها قالت: ((رجع إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم من جنازة بالبقيع. وأنا أجد صداعا في رأسي، وأنا أقول: وارأساه، قال: بل أنا يا عائشة وارأساه، ثم قال: وما ضرّك لو متّ قبلي فغسّلتك وكفّنتك ثم صلّيت عليك ودفنتك، قلت: واثكلاه. واللهِ إنّك لتحبّ موتي، ولكأنّي بك واللهِ لو فعلتَ ذلك لقد رجعتَ إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك، قالت: فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بدئ بوجعه الذي مات فيه. وروى البخاري: ((أنّه صلى الله عليه وسلم بقي أسبوعًا والألم يتمادى به وهو يدور على أزواجه ويقول: أين أنا غدا؟ أين أنا غدًا؟ يريد يوم عائشة، فلمَّا كان اليوم الثامن من مرضه، وهو يوم الأربعاء السابع من شهر ربيع الأوَّل صلَّى بهم صلاة المغرب، وقرأ فيها بالمرسلات عُرفا، وهي آخر صلاة جهريَّة صلاّها لهم، فاشتدَّ به الوجع، وهو في بيت ميمونة، فاستأذن نساءه أن يمرَّض في بيت عائشة، فأذنَّ له، فخرج بين عمِّه العباس وابن عمّه علي بن أبي طالب تخطُّ رجلاه في الأرض، حتَّى دخل بيت زوجته عائشة، فلمَّا حضرت صلاة العشاء وجاءه بلال يؤذّنه بالصلاة وكان صلى الله عليه وسلم

قد ثقل واشتدَّ به الوجع فقال: أصلَّى الناس؟ قالت عائشة: فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: ضعوا لي ماء في المخضب، قالت: ففعلنا فاغتسل أيْ: يتبرَّد بذلك من الحمَّى، ثمَّ ذهب لينهض فأغمي عليه، ثمَّ أفاق فقال: أصلَّى الناس؟ فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: ضعوا لي ماء في المخضب، قالت: فاغتسل، ثمَّ ذهب لينهض فأغمي عليه، ثمَّ أفاق فقال: أصلَّى الناس؟ فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: ضعوا لي ماء في المخضب، قالت: فاغتسل، ثمَّ ذهب لينهض فأغمي عليه، ثمَّ أفاق فقال: أصلَّى الناس؟ فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قالت عائشة: والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء، فأرسل رسول الله إلى أبي بكر أن يصلِّي بالناس، فصلَّى بهم أبو بكر تلك الأيام، فلمَّا أصبح رسول الله يوم الخميس كان الناس يسألون عن حاله، فخرج من عنده عليّ فقال له الناس: كيف أصبح رسول الله؟ قال: أصبح بحمد الله بارئًا، وكان قد خفَّ به بعض ألمه. أيّها المسلمون. وفي هذا اليوم يوم الخميس الثامن من شهر ربيع الأوَّل مرَّ أبو بكر والعباس بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقالا: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم منَّا يعني أنَّهم خشوا أن يموت، فيفقدوا مجلسه، فبكوا حزنًا على فوات ذلك. فدخل العباس فأخبر النبيَّ صلى الله عليه وسلم بذلك. فقالت عائشة: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((أهريقوا عليَّ من سبع قِرَب لم تحلَّ أوكيتهنَّ، لعلِّي أعهد إلى الناس))، قالت عائشة: فأجلسناه في مخضب نُصِب عليه من تلك القِرب حتَّى أشار عليهنَّ أن قد فعلتنَّ، فوجد من نفسه خفَّةً، ثمَّ خرج إلى الناس يُهادَى بين العباس وعلي، والناس يُصلُّون الظُّهْرَ خلف أبي بكر، فأراد أبو بكر أن يتأخَّر، فأشار إليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن مكانك، ثمَّ أُتي به حتَّى جلس إلى جنبه فصلِّى بهم الظهر، وكانت هذه آخرَ صلاة صلاَّها لهم، وهو جالس وأبو بكر قائمٌ بجنبه يقتدي به، والناس يقتدون بأبي بكر. ثمَّ جلس على المنبر، وهو معصوب الرأس بعصابة سوداء من شدَّة الوجع والألم، فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال في خطبته: ((إنّ الله خيَّر عبدًا بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله))، ففهمها أبو بكر من بين الناس، فبكى وبكى وجعل يقول: بل نفديك بآبائنا وأمَّهاتنا وبأموالنا وأبنائنا. قال أبو سعيد الخدري: فعجبنا لبكائه، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو العبد الذي خيَّره الله بين لقائه وبين البقاء في الدنيا، وكان أبو بكر أعلمنا به. فسكَّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: ((يا أبا بكر، لا

تبك))، ثمَّ قال للناس منوِّهًا بصاحبه أبي بكر ومشيرًا لهم بأنَّه الخليفة من بعده، فقال: ((إنَّ أمنَّ الناس عليَّ أيْ: أكثرهم منَّةً ونعمةً عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متَّخذًا خليلا غير ربِّي لاتَّخذت أبا بكر خليلا، ولكن خلَّة الإسلام ومودَّته، لا يَبْقَيَنَّ في المسجد باب إلاَّ سُدَّ إلاَّ باب أبي بكر))، ووصَّاهم بالأنصار، ونهاهم عن اتِّخاذ القبور مساجد، ثمَّ نزل ودخل بيته صلى الله عليه وسلم. فكانت هذه آخرَ خطبة خطبها لهم وآخر صلاة صلاَّها لهم، وتزايد به الألم واشتدَّ به الوجع، حتَّى قالت عائشة: ما رأيت الوجع على أحد أشدَّ منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يقول: ((إنِّي لأُوعك كما يوعك الرجلان منكم)). أيّها المسلمون. فلمَّا كان يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأوَّل وهو آخر يوم من أيّامه صلى الله عليه وسلم، بينما المسلمون في صلاة الفجر وأبو بكر يصلِّي لهم قال أنس بن مالك: لم يفاجئهم إلاَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كشف عن ستر الحجرة فنظر إلينا وهو قائم كأنَّ وجهه ورقة مصحف، ثمَّ تبسَّم يضحك، قال أنس: فبهتنا ونحن في صلاتنا، وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصفَّ، وظنَّ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يخرج إلى الصلاة، فأشار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده أن أتمُّوا صلاتكم، ثمَّ دخل الحجرة وأرخى الستر. فلمَّا كان الضحى من ذلك اليوم ابتدأته سكرات الموت، وكان قد استدعى ابنته فاطمة فأتته، فلمَّا رأته في تلك الحال قالت: واكرب أباه! فقال: ((ليس على أبيك كَرْب بعد اليوم))، وكان قد سارَّها بشيء فبكت، ثمَّ دعاها فسارَّها بشيء فضحكت، ولمَّا سئلت بعد وفاته عن ذلك قالت: سارَّني النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَّه يموت في وجعه الذي توفِّي فيه فبكيت، ثمَّ سارَّني أنِّي أوَّل أهله يتبعه فضحكت، وكانت عامَّة وصيَّته حين حضرته الوفاة: ((الصلاة وما ملكت أيمانكم)). وكان عنده قدحٌ من ماء فكان يدخل فيه يديه ثمَّ يمسح وجهه بالماء ويقول:((لا إله إلاَّ الله، إنَّ للموت سكرات))، وكان يقول: ((إذا كان حالي في الموت هكذا. فكيف حال أمّتي. اللهم هوّن على أمّتي سكرات الموت)). ولم يمت صلى الله عليه وسلم حتَّى خُيِّر مرَّة أخرى بين الدنيا والآخرة، فجعل يقول وهو شاخصٌ نحو السماء: ((اللهمَّ في الرفيق الأعلى))، حتَّى قُبِض صلى الله عليه وسلم. قالت عائشة: قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأسه بين سحري ونحري، قالت: فلمَّا خرجت نفسُه لم أجد ريحًا قطّ أطيب منها. أيّها المسلمون. وقد توفِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم شهيدًا، ذلك أنَّه أكل

طعامًا في غزوة خيبر وُضِع له فيه سُمٌّ، فكان يقول: ((ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان انقطاع أبهري من ذلك السُمّ)). ولمَّا توفِّي رسول صلى الله عليه وسلم اضطرب المسلمون، فمنهم مَن خَرس عن الكلام لسانُه. وذهب إفصاحه وبيانه. ومنهم كعمر بن الخطاب مَن اختلط مِن شدّة الوجد مراده. وخامر عقله الدهش وتحيّر فؤاده. ومنهم مَن كان لا يستطيع النهوض على قدمه. لِمَا لحقه مِن شدّة الحزن على عدمه. وكان أبو بكر حين توفِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسُّنح أيْ العالية، فجاء عمر والمغيرة فاستأذَنَا فأذنت لهما عائشة وجذبت إليها الحجاب، فنظر عمر إليه فقال: واغشياه! ما أشدَّ غشي رسول الله صلى الله عليه وسلم! فلمَّا دنا من الباب قال المغيرة: يا عمر، مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: كذبت، لا يموت رسول الله حتَّى يفني الله المنافقين، وكان المنافقون قد فرحوا بموت رسول الله وأظهروا الإستبشارَ ورفعوا رؤوسهم، فخرج عمر إلى الناس ليكسّر ظهور المنافقين، فجعل يقول: واللهِ، ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يموت حتَّى يقتل الله المنافقين، وجعل يتوعَّدهم بالقتل والقطع ويحلف لهم. ثمَّ أقبل أبو بكر على فرس له من مسكنه بالسُّنح حتَّى نزل فدخل المسجد، فمرَّ بعمر وهو يتوعَّد ويحلف للناس أنَّ رسول الله لم يمت، فلم يكلِّمه أبو بكر، ودخل على عائشة فكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمَّ أكبَّ عليه يقبّله ويبكي ويقول: وانبيَّاه، واصفيَّاه، واخليلاه، ثمَّ قال: بأبي أنت وأمِّي، طِبْت حيًّا وميّتا، والذي نفسي بيده لا يجمع الله عليك موتتين، فأمَّا الموتة التي كُتِبت عليك فقد متَّها. ثمَّ خرج وعمر يكلِّم الناس ويحلف فقال له أبو بكر: أيُّها الحالف على رسلك، اجلس يا عمر، فأقبل الناس إلى أبي بكر وتركوا عمر، ثم خطب الناسَ بلسان فصيح. وأوضح لهم الحق بكلام صريح. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله. وأنّ محمدا عبده ورسوله. وخاتم أنبيائه. وأشهد أنّ الكتاب كما أُنزل. وأنّ الدين كما شرّع. وأنّ الحديث كما حدّث. وأنّ القول كما قال. وأنّ الله هو الحق المبين. ثم قال: أيّها الناس. مَن كان منكم يعبد محمَّدا فإنَّ محمَّدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، وقرأ: ((إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ))، ((وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ))، فنشج الناس يبكون وكأنَّهم لم يعلموا أنَّ الله أنزل هذه الآية حتَّى تلاها أبو بكر، فتلقَّاها منه الناس كلُّهم. قال عمر: فوالله، ما هو إلاَّ أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت أنَّه الحقُّ، فعقِرتُ حتَّى

ما تُقِلُّني رجلاي، وحتَّى هويت إلى الأرض وعرفت أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات. وقد جعل الله في خطبة كلٍّ من عمر وأبي بكر خيرًا ومصلحةً للمسلمين، فخوّف عمر الناس وإنّ فيهم لنفاقا. فردّهم الله بذلك. وثبَّت بخطبة أبي بكر قلوبهم وشدَّ بها ظهورهم. وأقبلت فاطمة تقول: يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه جنَّة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه، يا أبتاه من ربِّه ما أدناه. وعاشت بعده ستَّة أشهر ثمَّ لحقته، فما ضحكت في تلك المدَّة، وحُقَّ لها ذلك. وروي أنَّ بلالاً كان يؤذِّن بعد وفاة النبيِّ صلى الله عليه وسلم قبل دفنه، فإذا قال: أشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله ارتجَّ المسجد بالبكاء والنحيب، فلمَّا دُفِن ترك بلال الأذان. ولمّا توفّي صلى الله عليه وسلم وسمع حمارُه يعفور بوفاته ألقى نفسه في بئر ومات. وتركت ناقته القصواء الأكل والشرب حتى ماتت. حزنا عليه صلى الله عليه وسلم. قال أنس: لمَّا كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كلُّ شيء، فلمَّا كان اليوم الذي مات فيه أظلم كلُّ شيء، وما نفضنا أيدينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنَّا لفي دفنه حتَّى أنكرنا قلوبنا. ولمَّا فرغوا من دفنه قالت فاطمة: يا أنس، كيف طابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! وفي يوم الثلاثاء غسّلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن يجردّوه من ثيابه، وغسّله العباس وعليّ والفضل وقُثَم ابنا العباس وشُقْران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسامة بن زيد، ثم كفّنوه وهو سيّد ولد آدم وخير خلق الله، فحفروا تحت فراشه وجعلوه لحدًا، حفره أبو طلحة، ودخل الناس الحجرة أرسالاً، عشرة عشرة، يصلّون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يؤمّهم أحد، وصلّى عليه أوّلاً أهل عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم النساء، ثم الصبيان، ثم وضعوه في قبره وحثّوا التراب على ذلك القبر الشريف الطاهر.

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَت بِالْقَاعِ أَعْظُمُه * فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ القَاعُ وَالْأَكَمُ

نَفْسي الفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُه * فِيهِ العَفَافُ وَفِيهِ الجُودُ وَالكَرَمُ

وذكر الحافظ السيوطي في كتابه: تنوير الحَلَك في إمكان رؤية النبيّ والمَلَك. قال: فحصل من جميع هذه النقول والأحاديث أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم حيّ بجسده وروحه. وأنّه يتصرّف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض وفي الملكوت. وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته. لم يتبدّل منه شيء. وأنّه مُغَيَّب عن الأبصار كما غُيِّبت الملائكة. مع كونهم أحياء بأجسادهم. فإذا أراد الله رفْع الحجاب عمّن أراد

إكرامه برؤيته رآه على هيئته التي كان عليها. لا مانع من ذلك. ولا داعي إلى التخصيص برؤية المثال. سئل بعضهم كيف رآه الراؤون في أقطار متباعدة. فأنشد :

كالشمس في كبد السماء وضوؤها * يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

قال الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله في قصيدته طَيْبة الغرّاء في مدْح سيّد الأنبياء :

هوَ حَيٌّ في قبرهِ ولهذا * حُرِمَت مِن تراثهِ الزهراءُ

وَرّثَ العلمَ والشريعة لا الما * لَ وَوُرّاثه هم العلماءُ

خصّه اللّه بالحياةِ على أكْــ*ـــملِ حالٍ يسيرُ حيث يشاءُ

كَم رآهُ بيقظةٍ ومنامٍ * مِن محبّيه سادةٌ أصفياءُ

ليسَ تَبدو للعينِ شمسٌ بماءٍ * أَو هواءٍ إلا وثَمَّ صفاءُ

نعم. لم يغب عن هذا العالَم إلا شحصه الكريم. وبقي نوره البهيّ الوسيم. وقد قال صلى الله عليه وسلم: حياتي خير لكم. ومماتي خير لكم. أمّا حياتي فأبيّن لكم السنن وأشرّع لكم الشرائع. وتُحْدِثون ويّحْدَث لكم. وأمّا موتي فإنّ أعمالكم تُعرض عليّ فما رأيتُ منها حَسَنًا حمدت الله وما رأيت منها شرّا استغفرت لكم. سيّدي يا رسول الله. إنّا نتوسّل بك إلى الله الذي اصطفاك بالرّسالة والوسيلة، واختصّك بالدّرجة الرّفيعة والفضيلة، وأتمنك على إقامة حقّه، وابْتَعثك بالنّور والهدى إلى جميع خلقه، أن يمنّ علينا برؤية ضريحك المنوّر وزيارتك. وأن يعيننا على خدمتك وطاعتك. وأن يجعلنا من أهل حزبك وولايتك. اللهم وارفعنا معه في الرفيق الأعلى. واسقنا من كوثره الأصفى. واعطنا من رضاك ورضاه فوق ما سألنا. وقرّبنا إليك زلفى. اللهم كما جعلت الموت بابا لابد من دخوله. ومنهلا لا غنى لنا عن حلوله. وسوّيت فيه بين القويّ والضعيف. والمشروف والشريف. فيسّر اللهم علينا عسيره. واجعل بنا إلى السعادة الدائمة بصيره. وتوفّنا على ما أنعمت به علينا من الإيمان. ولا تشمّت اللهم بنا الشيطان. يا ذا الفضل والإحسان. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

مختصر السيرة

01- لحظات مباركة مع الحبيب المصطفى وسيرته في ولادته وطفولته وشبيبته صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه صلاة نكونوا بها في معيّته

الحمد لله الذي كشف عنّا الغمّة. وجلا غياهب الظلمة. وأكمل ديننا وأتمّ علينا النعمة. وأكرمنا بخير نبيّ فكنّا به خير أُمّة. ((الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ)) ((مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)). صلى الله عليه وسلم. وعلى آله وأصحابه الأئمّة. وأتباعه وأحزابه أُولي المناقب الجمّة. نحمده تعالى ونشكره أن جبل قلوبنا على محبّته وخالص مودّته. وجعل أرواح المحبّين تسترْوِح بذكر أخبار سيرته. وقلوب العاشقين تطيب بالثناء عليه. وتنشرح بكثرة الصلاة عليه وسماع مدحته.

بِمَدْحِ المصطفى تَحيا القلوبُ * وتُغْتَفَرُ الخطايا والذُّنُوبُ

يُفَرِّجُ ذِكْرُهُ الكُرُباتِ عنّا * إذا نَزَلَتْ بساحَتِنا الكُروبُ

وأَذكرهُ ولَيْلُ الخَطبِ داجٍ * عَلَيَّ فَتَنْجِلِي عنّي الخُطوبُ

وأرجو أن أعيشَ بهِ سعيداً * وَألقاهُ وَليس عَلَيَّ حُوبُ

ولي طرفٌ لمرآهُ مشوقٌ * وَلِي قلبٌ لِذِكْراهُ طَروبُ

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. أبرز للوجود نبيّه وعبده. وسجّل في سفْر الكون شرفه ومجده. وحباه قبل خلقه بالإكرام. وانتخبه من خيرة خلقه الجلّة الكرام. وأنشأه برّا كريما. رؤوفا رحيما. وبه رسله ختم. وعليه نعمته أتم. فهو الحائز لكل المفاخر الفاخرة. وهو على الإطلاق سيّد أهل الدنيا والآخرة. توالت عليه صلوات الله وسلامه. وتحيّاته وبركاته وإكرامه. وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. من تولاّه مولاه بالحفظ والحماية والرعاية السرمدية. وأدّبه فأحسن تأديبه. ليكون قدوة للأنام. فشبّ صلى الله عليه وسلم على الصِّدق والأمانة وكُره العصبية الجاهلية. حتى هداه الله تعالى إلى شريعة الإسلام.

يا أُمَّةَ المُصْطَفَى البُشْرَى تَحِقُّ لَنَا * لأَنَّ ذَا العَرْشِ بالمُخْتَارِ فَضَّلَنَا

وَبِالصَّلاَةِ عَلَيْهِ قَدْ تَخَوَّلَنَا * إِنْ شِئْتُمُ تظفروا بالفضل والمِنَنِ

صَلُّوا عَلَى مَن أتى بالفرض والسُّنَنِ

اللهم وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد المحمود. كريم الآباء والجدود. وعلى آله أقمار السعود. وصحابته المباركين الشهود، وعلى كل من تبعهم بإحسان إلى يوم العرض والورود. صلاة تُوصلنا بها لحضرته، وتسعدنا بها برؤيته، وتجعلنا بها في الدنيا والآخرة من أهل حظوته، ومتّعنا جميعاً برؤية أنوار طلعته. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ من أجلّ الأعمال وأشرفها. وأربح المتاجر وأنجحها. نشْرَ سيرة سيّد الأنام. عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام. إلى الخاصّ والعام. إذ لم تعمر مجالس الذكر بعد كتاب الله. بأحسن من أخبار رسول الله. صلى الله عليه وسلم. لأنّ ذلك يحرّك القلوب ويدعوها إلى محبّته. ويندب الأجساد إلى اقتفاء آثاره واتّباع سنّته. فلا فوزَ لنا إلاّ في التملُّقِ على أعتابِهِ، ولا يصلُ إلينا خيرٌ إلاّ على بابِه، إذ هُو صلى الله عليه وسلم الواسطةُ الأعظَمُ، والشَّفيعُ الأكرَمُ، مُمِدُّ الأوّلين والآخرينَ، فما تعلَّقَ به أحدٌ إلا ونالَ فوقَ ما طلبَ، ولا التجأَ إليهِ محتاج إلا وأحرزَ أرفعَ الرُّتبِ، وفي ذلك آياتٌ للموقنينَ.

من يَعتصِم بالنَّبيِّ حاز كلَّ مُنَى * وصارَ بينَ الورى في أشرفِ الرُّتَبِ

يا حاضِرين لسمعِ سيرته شغَفاً * صلّوا عليه تَنالوا غَايَةَ الأرَبِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبيّ الكريم، ذي القلب الرحيم. والخُلُق العظيم. الذي قال فيه رب العالمين. في كتابه المبين: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)). أيّها المسلمون. يقول الله تعالى في سورة إبراهيم: ((وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ))، ويقول سبحانه في سورة الأعلى:((فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى))، ويقول ذلّ ذِكره في سورة الذاريات: ((وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)). ومعنى الذكرى ومغزاها هو: أن نتذكّر في الذهن حدثًا وقع في الماضي، ثم نذكره بألسنتنا في الحال، ثم نحاول الانتفاع به والاستفادة منه بأعمالنا في المستقبل؛ وقد أمرنا الله تعالى بتذكّر نعمه. فقال سبحانه في سورة المائدة: ((يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ)). وأجلُّ هذه النّعم وأعظمُها. نبيّنا المصطفى. سيّدنا ومولانا محمّد صلى الله عليه وسلم. قال تعالى في سورة آل عمران: ((لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)). فتعالوا بنا يا أحباب رسول الله. صلى الله عليه وسلّم.

نستعرض سيرته صلى الله عليه وسلَّم، نقف عند أحداثها لنستفيد ونتعلّم، نقف عند ملخَّصٍ لها ونحن أحوج ما نكون إلى تفاصيلها، نعيش لحظات مباركة مع جَرْدٍ عام لحياة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلَّم قبل البعثة، في ولادته وطفولته وشبابه. أيّها الأحباب. لقد وُلد رسول الله صلى الله عليه وسلَّم من أبٍ اسمه سيّدنا عبد الله بن عبد المطلب، رضي الله عنه. وأُمٍّ اسمها سيّدتنا آمنة بنت وهب، رضي الله عنها. فتوفي أبوه وهو في بطن أمّه، فوُلد صلى الله عليه وسلَّم يتيم الأب، ووقعت في السنة التي ولد فيها صلى الله عليه وسلَّم أحداث جسيمة، كأنّ الدنيا أعلنت الطوارئ لاستقبال الحبيب المصطفي صلى الله عليه وسلَّم. لقد ثبت منها في القرآن الكريم حادثة الفيل وأصحابه، ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)). ورأت أمّه رضي الله عنها حين حملت به صلى الله عليه وسلَّم أنّ نورا قد خرج منها أضاءت له الدنيا وتلألأت من أجله الأرجاء، روى الإمام أحمد والحاكم والترمذيّ وابنِ حِبّان والحاكم في المستدرَك بإسناد جيّد قويّ عن الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنِّي عِنْدَ اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ عن أَوَّلِ أَمْرِي. أنا دَعْوَةُ أبي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ. وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ الْأنبياء يَرَيْنَ. وَإِنَّ أُمَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَتْ حِينَ وَضَعَتْهُ نُورًا أَضَاءَتْ له قُصُورَ الشَّامِ حتى رأتها)). فكان هذا النور إشارة إلى أنّ لهذا الجنين عند الله شأنا عظيما، إشارة إلى أنّ دعوته صلى الله عليه وسلَّم ستمتدّ امتداد خيوط النُّور لإزاحة الظلمة على وجه الأرض، قال تعالى في سورة المائدة: ((قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)). فها هو نور الإسلام اليوم يغزو قارّات الدنيا بأكملها، فيفتح القلوب، ويزيل الأحقاد، ويضيء مسيرة التاريخ، كما رأت السيّدة آمنة بنت وهب رضي الله عنها والرسول صلى الله عليه وسلَّم جنين في بطنها. أيّها الأحباب. لقد كان من عادة العرب أن يرضعوا أولادهم في البادية، فجاءت من أجل ذلك إلى مكة امرأة فقيرة، نحيفة الجسم، حتى إنّ لبنها لا يكفي ولدها، واسمها السيّدة حليمة السعدية رضي الله عنها، فتسلّمت النبي صلى الله عليه وسلَّم رضيعا بعد أن رفضته كل المرضعات لأنه يتيم، فما يكاد هذا الرضيع المبارك صلى الله عليه وسلَّم يستقر في أحضانها حتى سال الحليب من ثديها، وامتلأت بهائمها لبنا ولحما بعد عجفها، وأخصبت أراضيها بعد جذبها وجفافها، وبقي لديها الرضيع

المبارك صلى الله عليه وسلَّم أربع سنوات، وعلامات الخير والبركات عليها تتوالى. وفي هذه الفترة وقعت له صلى الله عليه وسلَّم حادثة شق الصدر، وهي عبارة عن عملية جراحية دون سيلان دم، ولا إحساس بألم، تولّى القيام بها جبريل عليه السلام، فاستخرج من قلبه حظ الشيطان، ثم غسله بماء زمزم، وفي هذه الحادثة أراد الله تعالى أن يعطينا بها دليلا بشكل ملموس على أن النبي صلى الله عليه وسلَّم معصوم من الأخطاء محفوظ من الذنوب. وبعد هذه الحادثة ردّته المرضعة إلى أمّه، وقلبها يتفطّر أسى على فراق الطفل الحبيب. ثم توفّيت أمه صلى الله عليه وسلَّم وعمره ست سنوات، فما لبث جدّه عبد المطلب أن لحق بها وعمره صلى الله عليه وسلَّم ثمان سنوات، فبقي صلى الله عليه وسلَّم يتيم الأب والأم والجد، حتى لا يكون لأحد دَور في تربيته، وحتى لا يدّعي أعداء الإسلام من بعده، أنّ الذي ربّاه على دعوة النبوّة هو أبوه أو جدّه، فتولّى الله أدبه فأحسن تأديبه، ثم تكفّل به عمه أبو طالب. فكان يبجّله ويؤثره حتى على أولاده، فلازمه صلى الله عليه وسلَّم في مقامه وأسفاره، فسافر معه إلى الشام وعمره صلى الله عليه وسلَّم اثنتي عشرة سنة، وفي الطريق كشف لهم راهب اسمه بحيرا عن علامات النبوّة التي قرأها في التوراة والإنجيل، وشاهدها واضحة في هذا الطفل المبارك صلى الله عليه وسلَّم، ومنها غمامة تظلّه أينما حلّ وارتحل، الشيء الذي يدل على أن اليهود والنصارى ((يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)). ((فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)). أيّها الأحباب. ثم شبّ الرسول صلى الله عليه وسلم مبكّرا. متحلّيا بالصدق والأمانة. وقد ظهرت عليه من الله تعالى الرعاية والعناية. أخرج ابن سعد وابن عساكر وابن إسحاق والبيهقي عن داود بن الحصين قال: قالوا: شبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلؤه الله ويحفظه. ويحوطه من أقذار الجاهلية ومعايبها. لِمَا يريد به من كرامته ورسالته. حتى بلغ أنْ كان رجلا أفضلَ قومه مروءة. وأحسَنَهم خُلُقا. وأكرَمَهم حسبا. وأحسَنَهم جوارا. وأعظَمَهم حلما. وأصدَقَهم حديثا. وأعظَمَهم أمانة. وأبعَدَهم من الفحش والأخلاق التي تدنّس الرجال. تنزّها وتكرّما. ما رُئِيَ ملاحِيا ولا ممارِيا أحدا. حتى ما إسمه في قومه إلا الصادق الأمين. لِمَا جمع الله فيه من الأمور الصالحة. وتميّز صلى الله عليه وسلَّم في شبابه بأمور ثلاثة: الأوّل: الكدّ والعمل، الثاني: العفاف والطهارة الحسية والمعنوية، الثالث: المشاركة الفعّالة في المسائل المهمّة؛ تلكم واللهِ أهداف الشباب الطموح، وعناصر الشباب المثالي الناجح. أمّا الأمر الأوّل الكدّ والعمل، فإنّ النبي

صلى الله عليه وسلَّم حين كان في كفالة عمّه أبي طالب بعد وفاة أمّه وجدّه، لم يرض أن يكون حِملا ثقيلا على عمّه، فكان يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، أي على دراهم قليلة، كما روى البخاري، ورعي الغنم على كل حال كدّ وعمل شريف. ولم يَعرف صلى الله عليه وسلَّم في شبابه الفراغ، ولم تنل منه البطالة أيّ منال، فهو يَعرف كيف يحوِّل فراغه إلى كدّ وعمل، وإلى جدّ وأمل. أيّها الأحباب. أمّا الأمر الثاني في شباب الرسول صلى الله عليه وسلَّم فهو العفاف والطهارة، فقد أدّبه ربه فأحسن تأديبه، بعيدا عن مدنِّسات الأخلاق، وملوِّثات الفضائل، ومدمِّرات المكارم، فكانت عصمة الله تحُول بينه وبين أن يسمر مع السامرين، وأن يسهر في ليالي اللهو والفسق مع الساهرين، أخرج الطبري في تاريخه عن سيّدنا علي كرّم الله وجهه ورضي عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول: ((مَا هَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْمَلُونَ بِهِ غَيْرَ مَرَّتَيْنِ، كُلُّ ذَلِكَ يَحُولُ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَا أُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ. ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بِسُوءٍ حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِرِسَالَتِهِ، فَإِنِّي قَدْ قُلْتُ لَيْلَةً لِغُلامٍ مِنْ قُرَيْشٍ، كَانَ يَرْعَى مَعِي بِأَعْلَى مَكَّةَ: لَوْ أَبْصَرْتَ لِي غَنَمِي حَتَّى أَدْخُلَ مَكَّةَ، فَأَسْمُرَ بِهَا كَمَا يَسْمُرُ الشَّبَابُ، فَقَالَ: أَفْعَلُ، فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ذَلِكَ. حَتَّى إِذَا جِئْتُ أَوَّلَ دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ، سَمِعْتُ عَزْفًا بِالدُّفُوفِ وَالْمَزَامِيرِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: فُلانُ بْنُ فُلانٍ تَزَوَّجَ بِفُلانَةٍ بِنْتِ فُلانٍ، فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، فَضَرَبَ اللَّهُ عَلَى أُذُنِي، فَنِمْتُ، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلا مَسُّ الشَّمْسِ، قَالَ: فَجِئْتُ صَاحِبِي، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ قُلْتُ: مَا صَنَعْتُ شَيْئًا، ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَيْلَةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: أَفْعَلُ، فَخَرَجْتُ، فَسَمِعْتُ حِينَ جِئْتُ مَكَّةَ مِثْلَ مَا سَمِعْتُ حِينَ دَخَلْتُ مَكَّةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ، فَضَرَبَ اللَّهُ عَلَى أُذُنِي، فَوَاللَّهِ مَا أَيْقَظَنِي إِلا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَأَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ، ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بَعْدَهَا بِسُوءٍ حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِرِسَالَتِهِ)). وروى ابن إسحاق وصحّحه الحاكم والذهبي وغيرهما، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم لم يشرب الخمر قط، ولم يسجد لصنم قط، ولم تُعرف عنه الخيانة، ولا الكذب، ولا الغش، حتى التصقت به صفات الصِّدق والأمانة، حتى نال صلى الله عليه وسلَّم في مجتمعه وشبابه درجة الصادق الأمين؛ فقد كان صلى الله عليه وسلَّم في شبابه وهو الصادق الأمين أوّلَ بَنْكٍ لإيداع الأمانات، ولما هاجر صلى الله عليه وسلَّم إلى المدينة المنوّرة ترك سيّدنا عليًّا رضي الله عنه بمكة وكلّفه بتصفية حسابات هذا البنك النبوي، بردّ الودائع التي كانت عنده إلى أصحابها، وردّ الأمانات إلى أهلها؛ كما اشتهر ذلك في كتب

السيرة؛ قال ابن إسحق: أمر النبي صلى الله عليه وسلَّم عليًّا أن يتخلّف بعده بمكة حتى يؤدّي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، وكان صلى الله عليه وسلَّم ليس بمكة أحدٌ عنده شيء يَخْشَى عليه إلا وضعه عنده، لما يُعْلَم من صدقه وأمانته صلى الله عليه وسلَّم. ثم تزوّج صلى الله عليه وسلَّم وعمره خمس وعشرون سنة بالسيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وهي أكبر منه سِنّا، ولم تكن بِكرا لأنّها تزوجت قَبْلَهُ صلى الله عليه وسلم بِرَجُلَيْنِ، فدلّ ذلك على أنه صلى الله عليه وسلَّم لم يكن يهتمّ في عفافه بالالتذاذ الجسدي، لو كان كذلك لاختار غيرها من الأبكار عُرُبًا أترابا، ولكنه صلى الله عليه وسلَّم كل همّه طهارة الروح وصفاء الأخلاق، روى الطبراني عن الزبير بن بكّار قال: كانت خديجة رضي الله عنها قبل رسول الله صلى عليه وسلم.عند عتيق بن عائذ المخزومى، فولدت له جارية إسمها هند، ثم خلف عليها أبو هالة، هند بن زرارة التميمي، فولدت له هندا وهالة، فهما أخوا ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد كانت السيّدة خديجة رضي الله عنها تُعرف في قومها بالطاهرة العفيفة، والله تعالى يقول: ((وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ))، ومن خصائصها الشريفة. ومناقبها المنيفة. رضي الله عنها. أنّ كل أولاده صلى الله عليه وسلم منها. إلاّ سيّدنا إبراهيم فمن مارية القبطية. التي أهداها له مقوقس مصر. روى ابن سعد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان أكبر ولد الرسول صلى الله عليه وسلم القاسم. وبه كان يكنّى. ثم زينب ثم عبد الله. ويقال له: الطيّب والطاهر. ثم أمّ كلثوم. ثم فاطمة الزهراء. ثم رقيّة. وكلهم ماتوا في حياته صلى الله عليه وسلم إلا فاطمة ماتت بعده بستّة أشهر؛ وبهذا ذاق صلى الله عليه وسلم مرارة موت الأبناء كما ذاق من قبل مرارة موت الآباء. فما أحوج شبابنا للاقتداء بعفاف المصطفى صلى الله عليه وسلم ونحن في عصر أصبحت فيه الرذيلة فضيلة، والفساد حضارة، ووسائل الإعلام تنقل إليه عُجَر الفسق العالمي وبُجَره، أيّها الأحباب. أمّا الأمر الثالث في شباب الرسول صلى الله عليه وسلم فهو المشاركة الفعّالة في القضايا المصيرية، التي تهمّ أهل مكة بصفة خاصّة، والعرب بصفة عامّة، فلمّا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة سنة. حضر حرب الفِجار. وشارك في الدفاع عن مكّة، عندما أرادت هوازن ومن معها الهجوم على الحرم واستباحة مقدّساته لقتال قريش، روى ابن سعد في طبقاته: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((كنتُ أنبِّل على أعمامي)). أي أردّ عليهم نبْل عدوّهم إذا رمَوْه. بمعنى أنّ مشاركته صلى الله عليه وسلم اقتصرت

عندئذٍ على جمْع السهام ومناولتها لأعمامه. وسمّيت حرب الفِجار. وذلك. لأنّ قتالهم كان في الشهر الحرام. ففجروا فيه جميعا. وكان للنبيّ صلى الله عليه وسلم حضورٌ ومشاركات في الندوات والإجتماعات التي يعقدها قومه لبحث القضايا المهمّة، ومن ذلك حضوره (حِلف الفضول)، وهو أشرف حِلف في العرب. ولرسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ عشرون سنة. كما في سُبل الهدى والرشاد. وهو عقدٌ تمّ بين مجموعةٍ من قبائل مكّة كان منها بنو هاشم وبنو زهرة وبنو أسد وبنو تَيْم، تعاقدوا واتّفقوا على حماية المظلوم ونصرته، ومواجهة الظالم مهما كانت مكانته وسلطته، وذلك في دار عبد الله بن جدعان التيمي، وقد مدح النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا الحِلف بعد أن شرّفه الله تعالى بالرسالة. روى ابن إسحاق عن طلحة بن عبيد الله وابن سعد والبيهقي عن جبير بن مطعم رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جدعان حِلفا ما أحبّ أنّ لي به حُمر النّعم. ولو دُعي به في الإسلام لأجبتُ)). أيْ لو قال قائل من المظلومين: يا آل حِلف الفضول. لأجبتُ، لأنّ الإسلام إنّما جاء بإقامة الحقّ. ونصرة المظلوم. ثم شارك رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في بناء الكعبة، عندما انهدمت بسبب الأمطار، وعمره خمس وثلاثون سنة، وكان ينقل الحجارة بنفسه صلى الله عليه وسلَّم، وكشفت لنا مشاركته صلى الله عليه وسلَّم في تجديد الكعبة عن مكانته الأدبية في الوسط القرشي، لأنّه لما تمّ البناء تحرّكت العصبية الجاهلية بين قريش، فاختصموا فيمن يضع الحجر الأسود مكانه، وكل قبيلة تريد أن تستأثر بذلك لنفسها، حتى كادوا يتحاكمون للسيوف، ولكنّهم اتّفقوا في آخِر الأمر على أوّل رجل يدخل عليهم من باب بني شيبة، وهو المسمّى الآن بباب السلام، فكان الداخل هو الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلَّم. فهتفوا كلهم على لسان واحد: أتاكم الأمين، رضينا به!! فتولّى الرسول صلى الله عليه وسلَّم وَضْع الحجر بيده الشريفة، بكيفية تُرضي الجميع، إذ وَضَع الحجر الأسعد في ثوبه، فدعا من كل قبيلة فردًا، فحمل الجميع الحجر إلى مكانه، فكان صلى الله عليه وسلَّم رحمة حفظ الله به دماء قريش، ومنع به حربًا لو بدأت لَمَا كانت لها نهاية، حتى يذوق ويلاتها كل بيت، وتعاني من مأساتها كل أسرة. فما أحوج الأمّة اليوم لأن يقتدي شبابها بشباب المصطفى صلى الله عليه وسلم. يجب أن تفتح الأمّة لشبابها المشاركة في صُنع القرار، المشاركة في قيادة المصالح والمهمّات واتّخاذ القرار، سواء على مستوى الأسرة الكبيرة في الأمّة، أو على مستوى الأسرة الصغيرة في

البيت والعائلة. أيّها المسلمون. هذه لحظات مباركات. مع الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم. قدّمنا فيها ملخَّصا عن سيرته. في ولادته وطفولته وشبابه. صلّى الله عليه وسلّم. وشرّف وكرّم. ومجّد وعظّم. ووالى عليه ذلك وأنعم. نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممّن اعتبر وادّكر بهذه السيرة. فتاب إلى ربّه واستغفره من كلّ صغيرة وكبيرة. كما نسأله سبحانه بمنّه وكرمه أن يفتح على المسلمين فتحا من عنده، وأن يردّهم إلى دينهم ردّا جميلا، وأن يجمع كلمتهم على الحقّ والهدى، اللهم أصلح شبابنا. وهيّئ لهم دعاة الهدى والفلاح. وجنّبهم دعاة السوء والضلال. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

02- لحظات مباركة مع سيرة الحبيب المصطفى صاحب التاج من بعثته إلى الإسراء والمعراج صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه صلاة نسير ببركتها على أقْوم منهاج

الحمد لله الذي منّ علينا بجزيل الإنعام. وأتحفنا بما لا نطيق شكره من أياديه الجسام. وتفضّل علينا بالتوفيق من أجل نَعمائه. فآمنّا به وبكُتُبه وملائكته وجميع أنبيائه. وخصّنا بخيرته من خلقه ونخبته من أصفيائه. ومَن يكون آدم فمَن دونه من الأنبياء في يوم القيامة تحت لوائه. أرسله إلى كافّة الثقليْن بشيرا ونذيرا. وداعيا إلى بإذنه وسراجا منيرا. وجعله للمقرَّبين إمامًا. وللأنبياء والمرسلين ختامًا. ولَمَّ به صلاح العباد في الدارين قَوامًا ونِظامًا. وخصّه بالشفاعة الكبرى في الموقف الهائل. حين تبرأ منها أكابر الرسل الأماثل. صلّى الله وسلَّم عليه وعليهم. وعلى آله وأزواجه وأصحابه الأخيار. ما همعت ديم معارفه على قلوب الأبرار. وما دام النظر في سِيَره وشمائله قرّة للأبصار. وعدد ما وصل إلى العباد من المواهب في هذه الدار. وما يصل إليهم في تلك الدار. وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، الكريم الوهَّاب، الجَواد البَرّ التوَّاب، يُعْطِي مَنْ يشاءُ مِنْ فضْلِهِ وإحسانِهِ، ويُفيضُ علَى مَنْ أَحَبَّ مِنْ خَيْراتِهِ وَامْتِنانِهِ، لَطَفَ بعبدِهِ ورسولِهِ سيّدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم فأنْعَمَ عليهِ بنِعْمَةِ الإسراءِ وَالـمِعْراجِ، وهَدَاهُ لأقْوَمِ السُّبُلِ وأدَلِّ

الحِجاجِ، وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. اختاره الله تعالى لرسالته. وأمره بتبليغ شريعته، ووعد من أطاعه واتَّبعه بدخول جنَّته، وتَوعَّد من عصاه وخالف هديه بالخلود في دار شِقوته. وأمرنا أن نتأسّى به في هديه وسيرته. فقال لنا في سورة الأحزاب. قولا واضحا منيرا: ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)).

يا أمّةَ المصطفى الموصوفِ في الكتبِ * وشائقين بمدح الطّيّبِ الحسبِ

إن شئتمُ أن تنالوا النجح في الطلبِ * وتسلموا من شرور العجم والعربِ

صلّوا على خيرِ مرسولٍ وخيرِ نبِي

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. المخصوصِ بالسبع المثاني والقرآن المنزَّل. وعلى آله ذوي المجد الباذخ والشرف المؤصَّل. وصحابته خيرِ مَنِ انقطع إلى الله تعالى وتبتَّل. صلاةً نكون بها مِمَّن رسّخ قدَمَه في محبّته وتوغَّل. وابتهج وجهُه بنور الصلاة والسلام عليه وتهلّل. وتخلّق بأخلاقه الكريمة وبروحانيّته اتّصل. وواظب على سنّته المحمّدية ولم يتبدّل. وتضرّع به إلى الله تعالى في قضاء حوائجه وبه توسّل. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ الحديث عن سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم حديثٌ تحبُّه النفوس المؤمنة، وتأنس به قلوبٌ بالإيمان مطمئنَّة، فحبّه في شغاف الأفئدة مغروس، وتوقيره مُشرَبة به النفوس، فيه العبرة، والموعظة الحسنة. فقدوتنا الذي ارتضاه لنا خالقنا خير قدوة وأسوة. هو سيّدنا رسول الله. صلى الله عليه وسلم. البشير النذير. والسراج المنير. الذي خاطبه ربّه في سورة الأحزاب بقوله: ((يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا)). بُعث على فترة من الرسل، وضلال من البشر، وانحراف في الفطر، فاستطاع صلى الله عليه وسلم. بعون الله تعالى أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى. ومن الشقاء إلى السعادة، أيّها المسلمون. ومن الإرهاصات والبشائر التي كانت تمهيدا ومقدّمة لبعثته ونبوّته صلى الله عليه وسلم، الرؤيا الصادقة، والوحي بالرؤيا المنامية بدأ في شهر ربيع الأوّل بستّة أشهر قبل شهر رمضان. وفيها توطئةٌ لنزول الوحي عليه يقظةً، وقد حبّب الله تعالى إليه في أثناء هذه المرحلة الخلوة لنفسه. والعزلة عن الناس. والعارفون قالوا: الإستئناس

بالناس من علامات الإفلاس، ففي الصحيحين عَنْ السيّدة عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: ((أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْوَحْيِ. الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ. فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ. وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ. وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ. قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ. ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا)). أيّها المسلمون. ولمّا كمُل له صلى الله عليه وسلم أربعون سنة، على أوفق الأقوال المروية. والتي بها تمام القِوى الحسية والمعنوية. بعثه الله تعالى بشيرا لأهل الخير. ونذيرا لأهل الضلال. كما في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: ((أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنةً، فمكُث بمكة ثلاث عشرة سنةً، ثم أُمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة، فمكُث بها عشر سنين، ثم تُوفي صلى الله عليه وسلم)). وفي إحدى ليالي شهر رمضان المبارك، وبالضبط في ليلة القدر، نزل جبريل للمرة الأولى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في غار حِراء في ذلكم اللقاء المبارك، قال تعالى في سورة القدر: ((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)). وقال عزّ مِن قائل في سورة البقرة: ((شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)). وتمّ هذا اللقاء. وهذا الاتّصال بين الأمينَيْن؛ أمين وحي السماء جبريل عليه السلام، وأمين وحي الأرض سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، تمّ في اليقظة. وضَمَّ الأمين السماوي. الأمين الأرضي ضمّه إليه ضمّةً شديدة. ليتمّ الاتّصال، ويسري النور، أي أنّك لستَ في منام، أنتَ في يقظة. ضمّه حتى التصق الجسد الأرضي بالجسد النوراني السماوي، فأخذ جبريل بمجامع ثوبه صلى الله عليه وسلم أخذا شديدا حتى بلغ منه الجَهد. فقال له: اقرأ. فقال صلى الله عليه وسلم: ((ما أنا بقارئ)). وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ما أنا بقارئ)). لأنّه في الحقيقة أُمّي لا يقرأ ولا يكتب، وذلك حتى لا يُشكّك أعداء الإسلام مِن بعده في مصدر القرآن، فيقولون: لعلّه قرأه أو نقله من كُتُب الأُمم الماضية، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة العنكبوت: ((وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)). ويقول سبحانه في سورة الأعراف: ((الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ)). فإذا كانت الأُمّيّة في حقّنا نحن عيبًا ونقصًا، فإنّها في حق النبي صلى الله عليه وسلم معجزة خارقة. لأنه صلى الله عليه وسلم أُمّي جاء بحقائق

علمية أبهرت العلم الحديث في شتّى المجالات، ورحم الله الإمام البوصيري حين قال:

كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الأُمِّيِّ مُعْجِزَةً * فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ فِي اليُتُمِ

النّبيُّ الأُمِّيُّ أعلم مَن * أَسند عنه الرُّواة والحكماءُ

ثم فعل جبريل به ذلك ثلاث مرات، ثم قدّم له أوّل آية في طبقٍ من الإيمان: ((اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)). أيّها المسلمون. إنّ أوّل آية تنزل من القرآن الكريم تنبّه الأمّة إلى القراءة والكتابة، وتذكر العلم والقلم، والإنسان اليوم ما وصل إلى القمّة في الحضارة إلا بالعلم والقلم. والقراءة والكتابة، فهذا إشارة واضحة إلى أنّ الأمّيّة عيْب يجب محاربته، وأنّ العلوم حضارة وتقدّم يجب السعي وراء الحصول عليها. والأميّة اليوم لا تعني مَن لا يعرف القراءة والكتابة فقط؛ بل الأخطر من ذلك أميّة الدين والعقيدة، وأميّة الضمير والإيمان، فقد يحمل الإنسان أعلى الشهادات، وهو لم يمس المصحف قط، ولم يعرف كيف يتوضأ ويصلّي، وقد يكون بارعًا في عدّة لغات، ولكن ضميره الإيماني قد مات، فيخون ويختلس ويظلم ويعتدي على الأموال والأغراض، ويهتك الأستار والأعراض؛ بل إنّ الأُمّي في هذا العصر أيضا من لا يستطيع أن يتعامل مع الإعلاميات وشبكات الإنترنيت، لأنه بأمّيّته هذه يكون قد وضع نفسه في مؤخّرة الركب الحضاري، ففي الحديث الصحيح عن أنس بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قال النبيّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ((طَلَبُ العِلْمِ فَرِيْضَةٌ عَلَىْ كُلِّ مُسْلِمٍ)). وإنّ من العيب بمكان، أن تكون أوّل آية تنزل من القرآن تأمر بالقراءة وتنوّه بالعلم، وتنبّه إلى آثار الكتابة والقلم، فيكون في الأُمّة أُميّون لا يعرفون القراءة والكتابة. أيّها المسلمون. هذه الفترة من حياته صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم تُسمّى بالفترة المكيّة، ويُسمّى ما نزل من القرآن فيها بالقرآن المكّي، وتمتاز دعوته صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فيها بالتركيز على تثبيت العقيدة والإيمان، ومحاربة الشرك وعبادة الأوثان. والفترة المكيّة تستوعب من دعوته صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم مرحلتيْن: المرحلة الأُولى: الدعوة سرًّا بدون حرب، التي بدأت بقوله تعالى: ((اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ))، واستمرّت ثلاثة سنوات. والمرحلة الثانية: الدعوة جهرا وبدون حرب أيضا، التي بدأت بقوله تعالى في سورة الحجر: ((فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وأَعْرِضْ عنِ المشركِين))، واستمرّت عشر سنوات إلى الهجرة. ثم بدأ رسول الله

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم دعوته سرا بدعوة أحبابه وأصدقائه إلى الإسلام، قال الإمام البرزنجي رحمه الله تعالى في مولده: وأوَّلُ من آمن به صلى الله عليه وسلم من الرِّجال أبو بكرٍ صَاحبُ الغَار والصِّدِّيقيَّة، ومن الصِّبيان عَليٌّ ومن النِّساء خديجة التي ثبَّت الله تَعالى بها قَلبهُ وَوَقَاه. ومن الموالي زيد ابن حارثة ومن الأرقَّاء بِلاَلٌ الذي عَذَّبه في الله أُميَّة، وأَولاَهُ مَولاهُ أبو بكر من العِتْقِ ما أولاه. ثمَّ أَسلَمَ عُثمان وسَعدٌ وسَعيدٌ وطَلحة وابن عَوفٍ وابن العمَّة صَفِيَّة، وغيرهم ممّن أَنْهلَهُ الصدِّيق رَحِيق التَّصديق وَسَقاه. رضي الله عنهم أجمعين. أيّها المسلمون. أتدرون لماذا بدأ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم دعوته سرًّا؟، لكي يعلّمنا أنّ السريّة مهمّة جدًّا عند بداية أيّ أمرٍ مهمّ، فالسريّة تحفظ المشروع في مهده، وتقِيه من عيون الحاسدين، ومن كلام المغتابين والنّمّامين، وقد روى الطبراني عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان. فإنّ كلَّ ذي نعمة محسود)). فالمسلم عندما يكون في بداية أيّ مشروع لابدّ أن يحيطه بالسرية التامّة، لا يكشفه إلا لأحبابه وأصدقائه، الذين ينتظر منهم العوْن والمساعدة، أو الرأي والمشورة. وبعد ثلاث سنوات لمّا بدأ أَمْرُ دينِ الله يسطع، وبدأت القلوب بتعاليمه تقنع، نزل قوله تعالى: ((فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وأَعْرِضْ عنِ المشركِين))؛ فامتثل رسول الله صلى الله عليه وسلم أَمْر ربّه دون تردّد، فصدع بالحق على وجه معانديه، فبدأت مرحلة الدعوة جهرا، فعرض صلى الله عليه وسلم الإسلام في الأسواق والطرقات، وفي النوادي والساحات، فأسلم القليل من أهل مكة، ورفض الكثير، وخصوصا منهم القادة والصناديد، الذين يخافون على مناصبهم، الذين ينظرون إلى الإسلام بأنه دين يهزّ مراكزهم، ويفقدهم السيطرة والسلطة. وتلكم هي عادة الطغاة والظالمين على مرّ الزمان وامتداد المكان، فكم مِن حقوق ضاعت بسبب خوف الطغاة على مراكزهم؟ وكم من ضحايا عانت بسبب خوف المتفرعنين على مناصبهم؟ فبسبب ذلك ضاعت اليوم الوحدة بين المسلمين، وبسب ذلك أذعنت قادة الأمّة لتعسّفات الغرب الطامعين، وبسب ذلك سكتوا على الظلم الصهيوني والصليبي المعلَن على المسلمين. أيّها المسلمون. وبعد أن أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته، اصطدم بطغيان أمثال أبي جهل وأبي لهب، وخصوصا بعد أن أسلم سيّدنا حمزة و سيّدنا عمر، فانفجرت مشاعرهم بالحقد والكراهية، فبدأت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، فصاروا يصبّون جمّ غضبهم على رسول الله صلى الله

عليه وسلم وأتباعه، ويستقبلونه بنظرات ملتهبة حَقودة، وعواطف منفعلة هائجة. في البداية شنّوا عليه حربا كلامية من السخرية والاستهزاء، فلمّا لم يفد ذلك شيئا انتقلوا إلى حرب التعتيم والتضليل، فلمّا لم تنفع انتقلوا إلى التشويه والتزوير، يدلّ عل هذا قوله تعالى في سورة المطففين: ((إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ)). وقوله سبحانه في سورة القلم: ((وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)). وقوله سبحانه في سورة ص: ((وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)). ثم استعملوا حرب التنكيل والتعذيب وسفْك الدماء، خصوصا ضدّ المستضعَفين من المؤمنين الذين لا عُصبة لهم تحميهم، ولا قبيلة تدافع عنهم، فيكون نصيبهم التعذيب والتجويع والموت؛ كبِلال بن رباح، وآل ياسر، فسجّلت هذه المرحلة أوّل شهيد في الإسلام، وهي سميّة أمّ عمار بن ياسر. ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعزل عن هذا الإيذاء، فقد أُوذي وضُرب وناله السب والشتم، وكان أبو جهل من ألدّ أعدائه يمنعه من الصلاة في المسجد الحرام، ولم يكتفوا بذلك؛ بل ضربوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبيلته بني هاشم وأصحابه حصارا اقتصاديا ثلاث سنوات. أيّها المسلمون. فليس تشويه حقائق الإسلام اليوم بجديد، وليس حرب التنكيل من أعداء الإسلام اليوم بجديد، وليس الحصار الاقتصادي اليوم من أعداء الإسلام بجديد، فقد حاصرت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى أكلوا أوراق الشجر والجلود اليابسة؛ يا مَن يأكل اليوم الخبز الفطير! ويا مَن يتغذّى في إسراف وتبذير! ويا مَن يألف السرير والوثير! هل علمتَ أنّ الصحابة وهم خير القرون، كان بعضهم يأكل الجلد اليابس لأنه لا يجد غيره؟ وهل علمتَ أنّ إخوانا لك في الإيمان في فلسطين والعراق وسوريا واليمن وبورما لا يجدون الغذاء ولا الدواء ولا الغطاء؟ فما أشدّ جرأتنا على الله حينما نخالف شرْعه، ونحن نعيش في هذه النعم الجمّة! وما أوْسع رحمته بنا إذ لم يهلكنا بما كسبتْ أيدينا!!! ومن العجيب أنّ الوسائل التي واجه به المشركون الإسلامَ في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هي نفسها الوسائل التي يستعملها أعداء الإسلام اليوم ضدّ المسلمين، كأنّ التاريخ يُعيد نفسه، فكلمّا بدا لهم الإسلام بجماله وجلاله بادروا بالتعتيم عليه، وكلمّا رأوا فيه حقيقة علمية أو اجتماعية أو اقتصادية أو صحية بادروا بتشويهها، أمّا الاعتداء على أتباع الإسلام فقد دلّت عليه حروب طالت المسلمين في أكثر من مكان،

حروب أبادت منهم مئات البشر في لمح البصر، أمّا الحصار الاقتصادي فلا تستغربوا إن قلتُ لكم إنه المضروب على كل مسلم اليوم بكيفية أو بأخرى، ترتفع حدّته أحيانا وتنخفض أحيانا، ولكنه مضروب على كل حال. أيّها المسلمون. ثم بعد هذه المعاناة التي نالت النبي صلى الله عليه وسلم جاء ذلك العام الشديد الذي سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحزن، حيث توفّيت زوجته خديجة التي كانت الحِجر الحنون الذي يواسيه، وتوفّي عمّه أبو طالب الذي كان الدرع الواقية التي تحميه، فكان صلى الله عليه وسلم هدفا سهلا لاعتداءات المشركين، حتى هاجر صلى الله عليه وسلم إلى الطائف عَلّه يجد عند أهلها قلوبا واعية، وآذانا صاغية، ولكنه صلى الله عليه وسلم رجع منها بمأساة على مأساة، حيث طرده أهلها ورموه بالأحجار حتى سالت قدماه الشريفتان بالدماء، فدعا بذلك الدعاء الرقيق الأسيف، الذي يُسمّى في السيرة بدعاء الطائف، والمسلمون اليوم في حاجة لترديد هذا الدعاء: ((اللهُمَّ إليكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وقِلَّةَ حِيلَتِي، وهَوَانِي على النَّاس، يا أرحمَ الرَّاحمين، وأنتَ رَبُّ المسْتَضْعَفِينَ، إلى مَنْ تَكِلُنِي؟ إلى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَيْ يلقاني بالغِلْظَةِ والوجهِ الكريه. أَمْ إلى عَدُوّ مَلَّكْتَهُ أمْرِي؟ إنْ لمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فلا أُبَالي، غيرَ أنَّ عافيتَك هي أوْسَعُ لي، أعوذُ بنورِ وَجْهِكَ الذي أضاءتْ له السمواتُ، وأشْرَقَتْ له الظُّلماتُ، وصَلَحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرةِ. أنْ يَنْزِلَ بي غَضَبُكَ، أو أنْ يَحِلَّ بي سَخَطُكَ، ولك العُتْبَى أَيْ أَسْتَرْضِيكَ. حتى تَرْضَى، ولا حولَ ولا قوةَ إلاَّ بِك)). فاستجاب الله دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بعد معاناة الطائف، فآمن به رجل نصراني اسمه عدّاس في الحال، وأسلم على يديه صلى الله عليه وسلم جِنّ نِصِيبِين، وبعد أن دخل صلى الله عليه وسلم مكة في هذا الخِضَمّ من المعاناة والابتلاءات والمحن، أَكْرَمَهُ اللهُ ذو الجلال. لِتَفْرِيجِ الأَزَمَاتِ الشِّدادِ؛ بِرِحلَةِ القُرْبِ والوِدَادِ، فَكَانَتْ رِحلَةُ الإسرَاءِ والمِعْرَاجِ شَرَفاً ونِعْمَةً. لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، المبعوث للعالمين رحمة. فَالمِنْحَةُ تَكْمُنُ فِي المِحنَةِ، والعُسْرُ بَعْدَهُ يُسْرٌ، والضِّيقُ بَعْدَهُ سَعَةٌ، والكَرْبُ بَعْدَهُ فَرَجٌ، يَقُولُ اللهُ تَعَالى في سورة الطلاق: ((سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً)). وقال تعالى في سورة الشرح: ((فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)). وأخرج الحاكم في مستدركه عن الحَسنِ بن علي رَضِيَ اللهُ عَنهُما قالَ: خَرَجَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً مَسرُوراً فَرِحاً وَهوَ يَضحَكُ وَهوَ يَقولُ: ((لَن يَغلِبَ عُسرٌ يُسرَينِ)). وروى الإمام أحمد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُما أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ((وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ

خَيْراً كَثِيراً. وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ. وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ. وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً)). وكيف لا وهو سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم قطع به السماوات الطباق حتى كان قاب قوسين أو أدنى، دون أن يمنعه قصر الزمان ولا طول المكان، ففرض الله عليه الصلوات الخمس، ومع كل هذا. فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستسلم لهذا الواقع الأليم، بل صبر وصابر، وواصل جهاده في الدعوة إلى الله تعالى، فكان عاقبة صبره نصْرٌ من الله، وفتح عظيم تتفيّأ الأمّة ظلاله، وتنعم بنوره إلى يومنا هذا، وإلى يوم الدين.

يَا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَخَيْرَ مَنْ * تُجْلَى بِهِ عَنَّا الْمَصَائِبُ وَالْكُرَبْ

إِرْحَمْ بِفَضْلِكَ أُمَّةً مَا إِنْ لَهَا * لِسِوَى حِمَاكَ لَدَى الْمَكَارِهِ مِنْ هَرَبْ

فَاشْفَعْ لَهَا عِنْدَ الْجَلِيلِ تَكَرُّماً * وَسَلِ الإِلَهَ تَفَضُّلاً تُعْطَ الأَرَبْ

إِنَّا تَوَسَّلْنَا إِلَيْكَ بِمَا بِهِ * قَدْ خَصَّكَ الْوَهَّابُ مِنْ أَسْنَى الرُّتَبْ

وَبِبِنْتِكَ الْعَذْرَى الْبَتُولِ وَبَعْلِهَا * وَبَنِيهِمَا أَهْلِ الْمَرَاتِبِ وَالْقُرَبْ

وَبِصَحْبِكَ الْغُرِّ الْكِرَامِ جَمِيعِهِمْ * أَهْلِ التُّقَى وَالْفَضْلِ حَقّاً وَالأَدَبْ

لا تُسْلِمَنَّا فِي الْحَيَاةِ لِفِتْنَةٍ * وَبَلِيَّةٍ وَكَذَاكَ عِنْدَ الْمُنْقَلَبْ

صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ مَا بَلَغَ الْمُنَى * مِنْ رَبِّهِ عَبْدٌ لِجَانِبِكَ انْتَسَبْ

وَالآلِ طُرّاً وَالصِّحَابِ بِأَسْرِهِمْ * وَمَنِ اقْتَدَى بِهُدَاهُمُ الأَسْنَى الأَحَبْ

وَسَلاَمُهُ يَبْقَى عَلَى مَرِّ الْمَدَى * وَأَمَانُهُ مَا انْهَلَّ مُزْنٌ وَانْسَكَبْ

بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخِر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

03- لحظات مباركة مع سيرة الحبيب المصطفى سيّد أهل الدنيا والآخرة من بداية هجرته إلى استقراره بالمدينة المنوّرة صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه السادة البررة صلاة تحفظنا بها من الفتن الباطنة والظاهرة

الحمد لله الذي عمّر سرائر مَنِ اصطفاهم بأسرار المحبّة المحمّدية. وجبل أخلاقهم على خدمة سيادته الأحمدية. فطاروا بجناح الشوق ليشاهدوا جمال طلعته البهيّة. ويتنعّموا في محاسن شمائله النبويّة. ويشربوا من كأس مودّته المصطفوية. نحمده تعالى ونشكره أن امتنّ علينا بمحبّة حبيبه الأطهرْ. سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم سيّد البشر. وجعل معرفةَ حُسْن سيرته مِنْ أجلّ ما يُتَشَرَّف بعِلْمه في الدارَيْن ويُفْتَخَرْ.

يا عينُ إن بَعُدَ الحبيبُ ودارُه * ونأت مرابِعُهُ وشَطَّ مَزارُهُ
فتمتّعي منه بذكر حديثِهِ * إن لم تَرَيْهِ فهذه آثارُهُ

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. نظر بعين اصطفائه إلى البلدان. فخَصّ المدينة المنوّرة بأن جعلها دار الإيمان. وفضّلها بهجرة وسكنى نبيّه صلّى الله عليه وسلّم على كل مكان. وشرّف أهلها بنُصرة دينه. فحازوا لقب الأنصار على مرّ الزمان. ووعدهم بالسعادة التي ختم بها لأوليائه. مع المُنْعَم عليهم من النبيئين والصدّيقين في فراديس الجِنان. فقال عزّ وجلّ في سورة التوبة: ((وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)). وأشهد أنّ سيّدنا محمّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى، وَنَبِيُّهُ المُجْتَبَى، وَرَسُولُهُ المرْتَضَى، بَعَثَهُ بِالنُّورِ المُضِيِّ، وَالأَمْرِ الْمَرْضِيِّ، عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَدُرُوسٍ مِنَ السُّبُلِ، فَدَمَغَ بِهِ الطُّغْيَانَ، وَأَظْهَرَ بِهِ الإِيمَانَ، وَرَفَعَ دِينَهُ عَلَى سَائِرِ الأَدْيَانِ؛

فعليه صلُّوا كلُّكمْ وتمتّعوا * يا حاضرين بمدحه وتتبّعُوا

آثارَه وتوسّلوا وتشفّعوا * فملاذُنا المولى المعظَّمُ أحمدُ

صلّوا على خير البريّة تَسعَدُوا

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَى سيِّدِنَا محمّدٍ الهادي إلى طريق الخير والرشاد. وعلى آله الأئمّة الزّهّاد. وصحابته السادة الأمجاد. صلاة تَستر بها عوراتِنا بين العباد.

وتُصلِح بها منّا الأزواج والأولاد. وتكفّ بها عنّا يَدَ أهلِ الظلم والفساد. وتُجيرنا بها من شرّ البُغاة والحسّاد. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. ما أحوَجَنَا إلى تدبُّرِ معاني وأسرار السيرة النبوية العطرة، ودراسةِ دَلالاتِها والإستفادةِ مِنْ نفحاتِها وأنوارها. وحسبنا أنّنا من المحبّين لسيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وللمحبّ اعتبار. وله في الوصل أسرار. وإنّنا في أمسّ الحاجة إلى معرفة كلِّ ما يتعلّق بسيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. إيناسًا واستئناسًا وتأسّيًا. نذكره صلى الله عليه وسلم في مولده وشبابه. وجهاده وجِلاده. وهجرته ووفاته، وما ذِكْرُنا لهذه الفصول العطرة من سيرته صلى الله عليه وسلم إلا محاولة منّا للإقتراب من نورانيّته وسراجيّته، وذلك من أجل تعميق محبّته، وترسيخ مودّته؛ صلى الله عليه وسلم. وتلكم هي طريق الفلاح والنجاح. إذ لنا فيه صلى الله عليه وسلم القدوةَ الحسنةَ، قالَ تعالى في سورة الأحزاب: ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)). هذا النبي الكريم الحبيب الذي هاجر وجاهد وكابد. وضحّى من أجل ((لا إله إلا الله)). ومن أجل أن يصلنا هذا الدِّين عَذْبًا وسَلْسَلاً. أيّها المسلمون. إنّ سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة مرّت بمرحلتيْن: المرحلة الأُولى: الدعوة سرًّا بدون حرب، التي بدأت بقوله تعالى: ((اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ))، واستمرّت ثلاثة سنوات. والمرحلة الثانية: الدعوة جهرا وبدون حرب أيضا، التي بدأت بقوله تعالى في سورة الحجر: ((فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وأَعْرِضْ عنِ المشركِين))، واستمرّت عشر سنوات إلى الهجرة. وهي عبارة عن دعوة وعمل، ثم ابتلاء وامتحان،، ثم جائزة وتكريم، ثم فوز ونجاح. أمّا الدعوة والعمل فهو عرْض الإسلام على الناس قولا وعملا، فقد التزم به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته العملية، كما دعا إليه بلسانه، والمسلم حين يريد نشْر دينِه لابدّ أن يلتزم به أوّلاً، ثم يدعو إليه ثانيا. فالدعوة إلى الإسلام دون الالتزام به نفاق مرفوض، يقول الله تعالى في سورة الصف: ((كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)). ويقول سبحانه في سورة البقرة: ((أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)). أمّا الابتلاء والامتحان فهو ما تعرّض له رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل دعوته؛ من تكذيب وتشويه وتنكيل وتعذيب وحصار، فواجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك بالصبر والتّحدّي؛ فلم يتوان ولم يتنازل؛ بل واجه عنف المشركين بعنفوان الإسلام، واجه شركهم العنيف بدينه الحنيف، والمسلم اليوم لن

ينشر دينه إلا بالصبر على المعاناة، متحدّيا أعداء دينه بالالتزام الكامل. أمّا الجائزة الكبرى فهي الإسراء والمعراج، وهي لقاء رب العزة سبحانه وتعالى، حيث كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، والمسلم إذا كان صادقا في عمله لن يضيع الله أجره في الدنيا والآخرة، ولكن لابدّ من امتحان وابتلاء وصبر والتزام. فكان الإسراء بذلك بمنزلة العبور من المحنة إلى المنحة، وبمنزلة نقطة البداية في انتشار دين الإسلام. أيّها المسلمون. أمّا الفوز والنجاح فهو استمرار الإسلام، فبعد الإسراء مباشرة بدأ إسلام ساداتنا الأنصار رضي الله عنهم في المدينة المنوّرة، فقد سبقت لهم من الله تعالى العناية في الأزل. بأن يكونوا أنصارا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم في نشر هذا الدين. حيث تحمّلوا مسئوليّته والدعوة إليه منذ لقاء العقبة الأولى. حين عرض رسول الله صلي الله عليه وسلم نفسه لأهل المدينة. وكانوا ستة نفر. وما مضى عام حتى أنه لا يوجد بيت بالمدينة المنوّرة إلا ودخله الإسلام. قال الله تعالى في سورة الأنعام: ((أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ)). أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ((فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَاءِ)) يعني أهل مكة. يقول: إن يكفروا بالقرآن ((فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ)). يعني أهل المدينة من الأنصار. لأنّ الله عزّ وجلّ أدخل في قلوب الأنصار الإيمان. وخصّهم بالكرامة. وسمّاهم أنصارَ الله وأنصارَ رسوله صلي الله عليه وسلم. وأثبت لهم الإيمان الحق. وأعطاهم المغفرة والرزق الكريم والولاية. قال الله تعالى في سورة الأنفال: ((وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيم)). وقال أيضا: ((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ)). فذكر سبحانه المهاجرين بالجهاد بالمال والنفس. وذكر معهم الأنصار بالإيواء والنصر. ووصف الفريقَيْن معاً بولاية بعضهم لبعض. وأثبت لهم معاً حقيقة الإيمان. ((أُولَائِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً)). أيْ الصادقون في إيمانهم. فاستوى الأنصار مع المهاجرين في عامل النصرة وفي صِدق الإيمان. وأخرج ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَدْخَلَ قُلُوبَكُمُ الإِيمَانَ، وَخَصَّكُمْ بِالْكَرَامَةِ، وَسَمَّاكُمْ أَنْصَارَ اللَّهِ وَأَنْصَارَ رَسُولِهِ)). صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أيّها

المسلمون. لمّا انتشر الإسلام في المدينة المنوّرة هاجر إليها رسول الله صلي الله عليه وسلم عندما كان عمره ثلاثا وخمسين سنة، متحمِّلا وعْثاء السفر، ومعاناة مغادرة الوطن، بعد أن قضى ثلاث عشرة سنة في الدعوة إلى الله، لَقَدْ تَآمَرَ الْمُشْرِكُونَ وَدَبَّرُوا، وَخَطَّطُوا وَمَكَرُوا، وَلَكِنْ أَيْنَ مَكْرُ مَنْ مَكَرَ، وَأَيْنَ تَدْبِيرُ مَنْ دَبَّرَ، أَمَامَ قُوَّةِ اللهِ الوَاحِدِ الأَحَدِ؟ يَقُولُ تَعَالَى في سورة الأنفال: ((وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)). فخرج صلى الله عليه وسلم من بين صفوف الماكرين المتربّصين. تحرسُهُ عين الله، وتكلؤه عناية الله، مُعلناً للدنيا أنّ مَنْ ينصره الله لا يُخْذَلُ، ومن يؤيّدُهُ الله لا يُهْزَم، يقولُ اللهُ تعالَى في سورة التوبة: ((إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)). وقد أشار الإمام البوصيري رحمه الله في البردة إلى هذه النصرة بقوله:

وَمَا حَوَى الْغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمٍ * وَكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْهُ عَمِ

فَالصِّدْقُ فِي الْغَارِ وَالصِّدِّيقُ لَمْ يَرِمَا * وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرِمِ

ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلىٰ * خَيْرِ الْبَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ وَلَمْ تَحُمِ

وِقَايَةُ اللهِ أَغْنَتْ عَنْ مُّضَاعَفَةٍ * مِنَ الدُّرُوْعِ وَعَنْ عَالٍ مِّنَ الأُطُمِ

لقد كانَت المدينةُ المنوَّرَةُ موضعَ عنايةِ الله تعالى. حيثُ اختَصَّها اللهُ بالهجرة إليها دونَ غيرِها. ليُخَلَّدَ ذِكرُها. ويَسعدَ أهلُها. حتى ينالوا الفضلَ كلَّه. إلى أن يقومَ الناسُ لِرَبِّ العالمين. وحَسْبُهُم قول اللهِ تعالى في وَصْفِهِمْ في سورة الحشر: ((وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)). وروى البخاري عن البراء رضي الله عنه أنه قال: ((ما رأيتُ أهلَ المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم)). وقال الطبراني: وتفرّق الغِلمان والخدم في الطريق ينادُون: جاء محمّد. جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد حَقّ لهم واللهِ أن يزدحموا على شهود تلك الطلعة المباركة. ويتسابقوا إلى رؤية ذلك الوجه الذي هو معدن كلّ خير وبركة.

لَيْته خَصّني برؤية وجهٍ * زال عن كلّ مَن رآهُ الشّقاءُ

أيّها المسلمون. بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنوّرة كوّن أوّل دولة في الإسلام، والأُسُس التي بنى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الدولة هي أربعة: الأَساس الأوّل: بناء المسجد لتثبيت الدين، فأوّل شيء فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة هو بناء المسجد، وفي هذا إشارة إلى أنّ دين الدولة الرسمي والعملي هو الإسلام، ولكن ليس في ديباجة الدستور فقط كما يحدث اليوم في كثير من دُوَل الإسلام؛ بل في المعاملات بالأساس. في إظهاره على أرض الواقع. الأساس الثاني: الأُخوّة بين المسلمين، فقد آخى النبيّ صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، في دارِ سيّدنا أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه. وكانوُا تِسعينَ رجلاً. نِصفُهم مِن المهاجرينَ ونصفُهم مِن الأنصارِ. فضربُوا أروعَ الأمثلةِ في ذلك مِنَ العفَّةِ والإيثارِ؛ إذْ عرضَ الأنصارُ على المهاجرينَ مُقاسَمَتَهم في أموالِهِمْ ودورِهِمْ وثمارِهِمْ بلْ ونسائِهِمْ. يُطَلِّقُ أحدُهم إحدى زوجتَيْهِ ليتزوّجَها الآخرُ. ولكنَّ المهاجرينَ أبَوْا ذلكَ كُلَّه. وآثرُوا أن يَعمَلُوا ويجتهِدُوا. هذه الأخوة التي تجسّد الوحدة بكل عناصرها؛ وحدة المُنطلَق، ووحدة العمل، ووحدة الهدف؛ فالمسجد بدون الأُخوّة مجرَّد حِيطان وجُدران. الأساس الثالث: عَقْد الاتّفاقيّات مع غير المسلمين في المدينة، فرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر وجد في المدينة ثلاث مستوطنات يهودية؛ هم بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وأقول مستوطنات. لأنّ المدينة ليست وطنهم أصلا؛ بل ولا حتى الجزيرة العربية؛ بل لا وطن لهم أصلا. يعيشون دائما في مستوطنات ظالمة، حتى ينتقم الله منهم، فهم نبتة دخيلة في المجتمعات قديما وحديثا، وإنّما جاءوا إلى الجزيرة العربية لأنّهم قرؤوا في التوراة أنّ آخِر الأنبياء سيُبعث فيها، وسيهاجِر إلى بلدة ذات نخل وماء، ولهذا نجدهم قد استوطنوا بلدتَيْ خيبر والمدينة؛ ولكن لما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفوه كفروا به، ولذلك يروي لنا القرآن الكريم أنّ اليهود تركوا بلاد الشام وجاءوا إلى المدينة المنوّرة مترقِّبين ظهور النبي الذي قَرُب زمانُه. وعندهم صفاتُه. وكانوا يرجون أن يكون منهم. وقد ذكر الله ذلك في سورة البقرة. فقال سبحانه: ((وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ)). فقد كانوا عندما تَحْدُثُ بينهم حرْب وبين أيِّ قبيلة يقولون كما قالت السيرة العطرة: (اللهم بحقّ النبي الذي ستبعثه في آخر الزمان انصرنا

عليهم) فينصرهم الله تعالى، وهذا معنى الآية ((وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ)). أيْ يطلبون به صلى الله عليه وسلم النّصر فينصرهم الله. ولكن هل كانوا يعرفونه؟ نعم. القرآن يقول في سورة البقرة: ((الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)). وهل هناك أحد لا يعرف أولاده؟!! والاتّفاقيّات التي وقّعها رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم هي عبارة عن معاهدة الدفاع المشترَك بين المسلمين وبين هؤلاء اليهود. أيّها المسلمون. أمّا الأساس الرابع: فهو تحرير السوق من سيطرة غير المسلمين؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر وجد أهل المدينة لا سوق لهم إلا سوق اليهود، الشيء الذي جعلهم عالة في الاقتصاد على اليهود، يعانون من التبعية المذلّة، فجمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكان بالمدينة فقال: هذا سوقنا، ومن المعلوم أنّ أيّة دولة لا تستقر إلا بتحرير الإقتصاد، ولن يستتبّ الأمر لأيّة حكومة تكون عالة في الإقتصاد على غيرها، إذ كيف تستقر أُمّة تأكل ما لا تزرع، وتلبس ما لا تصنع، وهذه أوّل نقطة عملية أغاضت اليهود في المدينة، فبدؤوا بعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم سرّا وعلانية. أيّها المسلمون. على هذه الأُسُس الأربعة قاد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الدولة الفتيّة على مدى عشر سنوات، فلم يسمح قط لأيّ أحد مهما كان أن ينال مِن أيّ أساس من هذه الأُسس الأربعة؛ فالمسجد هو رمز الوحدة، والأُخوّة هي تطبيق عملي للوحدة، وعقد الاتّفاق مع اليهود هو حماية للوحدة، وتحرير السوق هو مقوّم الوحدة. وبعد ذلك أذن الله تعالى له بالجهاد دفاعا عن النفس.قال تعالى في سورة الحج: ((أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)). أيّها المسلمون. حقيق بالمسلم أن يكون عالمًا بسيرة وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم، مزدادًا من ذلك، فهذا هو الفضل العظيم والخير الكبير، وأن يتدارس هذا الأمر مع كل مَن يجالسهم من أصدقائه وزملائه، ومع أهل بيته وأولاده، فذلك خير عظيم. قال الإمام المنذريّ رحمه الله تعالى: باب التّرهيبُ من أن يجلسَ الإنسانُ مجلسًا لا يُذكرُ اللهُ فيه، ولا يُصلَّى على نبيِّه محمّد صلى الله عليه وسلم. عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم قال: ((مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ)). وَمَعْنَى قَوْلِهِ تِرَةً يَعْنِي حَسْرَةً وَنَدَامَةً. فعياذًا بالله من الإعراض ومن الخِذلان، ونسأله سبحانه أن يُكرمنا بالاستقامة على شرعه، والقرب من هدي نبيّه صلى الله

عليه وسلم، والقرب من مجلسه يوم القيامة، والشرب من حوضه الشريف صلى الله عليه وسلم، إنّ ربي سميع قريب مجيب. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. اهـ

04- لحظات مباركة مع سيرة الحبيب المصطفى شفيع العباد في بداية وتدرّج مراحل الإذن له بالجهاد صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه السّادة الأمجاد صلاة ننال ببركتها غاية المنى والمراد

الحمد لله ذو الجلال والإكرام. رفع شعائر الإسلام. وشيّد منارها بنبيّه عليه الصلاة والسلام، وأبانها لخلقه واضحة المناهج والأعلام، وجعل من أعظمها وآكدها جهادًا في أعدائه الكفرة اللئام. وبَذْلَ الأموال والأنفس في ذلك من أجل ما يُنجي من النار ويُوصل إلى دار السلام. نحمده تعالى ونشكره أن أنعم على قلوبنا بالإرتياح لذكر حبيبه المصطفى. صلى الله عليه وسلم. وأكرمنا بمدارسة سيرته المشرَّفة. فإنّ الإكثار من ذِكْر الحِبّ. شهادة الحُبّ. وأمارة المُحِبّ. فنسأل الله تعالى أن يكتبنا في محبّيه. الواقفين عند حدّ أوامره ونواهيه. ورحم الله الحافظَ ابنَ حجر. حيث قال في هذا الشأن من الشِّعْر:

هنيئًا لأصحاب خيرِ الوَرَى * وطُوبَى لأصحاب أخبارِهِ

أولئك فازوا بِتَذْكِيرِهِ * ونحن سَعِدنا بِتِذْكَارِهِ

وهمْ سبقونا إلى نَصْرِهِ * وها نحن أتباعُ أنصارِهِ

ولَمَّا حُرِمْنا لِقَا عَيْنِهِ * عَكَفْنَا على حِفْظِ آثارِهِ

عسى الله يَجْمَعُنَا كُلَّنا * برحمته مَعْهُ في دارِهِ

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. يُعِزُّ مَنْ أطاعه واتّقاه، وينصره على مَن عاداه، ويقيم به للحقّ دَولة. وللدين قَوْمة، وللإسلام صَوْلة، وللقرآن جَوْلة. فَهُمْ خاصّة عباده، وغَرْسُ بلاده، يَصْرِفُ عنهم البلايا، ويخصّهم بالخيرات والعطايا، فهُمْ القائمون بإظهار دينه، والمتمسّكون بسنّة نبيّه، صلى الله عليه وسلم. وأشهَدُ أَنَّ

سيِّدَنا مُحمّداً عَبدُهُ ورَسولُهُ، وصفيّه مِنْ خَلْقه وخليله. بعثه ليَصدَعَ بحقّه. ويُنذر جميعَ خلْقه. فشمّر صلى الله عليه وسلم في تشييد الإيمان. وجاهد حزب الشيطان. وأخمد جمرات البهتان. وأذلّ عبدة الأوثان. وأعزّ دين الرحمان. حتى فاضت أنوار العدل. وغاضت بحار الجهل.

يَا أُمَّةَ المُصْطَفَى البُشْرَى تَحِقُّ لَنَا * لأَنَّ ذَا العَرْشِ بالمُخْتَارِ فَضَّلَنَا

وَبِالصَّلاَةِ عَلَيْهِ قَدْ تَخَوَّلَنَا * إِنْ شِئْتُمُ أَنْ تَنَالُوا عِزَّ جَانِبِهِ

صَلُّوا عَلَى المُصْطَفَى يَا مُؤْمِنِين بِهِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. الحاشر العاقب. الرفيع المكانة والجانب. وعلى آله الأجلّة الأطايِب. وصحابته الشجعان فرسان الكتائب. صلاة تدفع بها عنّا جميع الشدائد والمصائب. وتستر ببركتها ما ظهر منّا وما بطن من القبائح والمعايب. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ قلوبَ المؤمنين. وأفئدةَ المتّقين. وأرواحَ المحبّين. تحيا عند نَشْرِ أحداث السِّيرة النبوية. وتَستنير بسماع الغزوات المحمّدية. ولقد كان السلف الصالح من هذه الأمّة الإسلامية يُدْرِكون ما لسيرة خير الأنبياء. عليه الصلاة والسلام. وسِيَرِ الصحابة النبلاء. من آثارٍ حسنة في تربية النشء. وتنشئة جيلٍ صالح لِحَمْل رسالة الإسلام. فمِنْ ثَمَّ كانوا يتدارسون السيرة. ويلقِّنونها للغِلْمان. أخرج الخطيب البغدادي في تاريخه وابن عساكر عن سيّدنا علي زين العابدين السجّاد بن الإمام الحسين السبط رضي الله عنهما قال: كنّا نُعَلَّمُ مغازيَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم. كما نُعَلَّمُ السورة من القرآن. وفي شرح المواهب اللدنية للحافظ القسطلاني قال: رُوِيَ عن إسماعيل بن محمد بن سَعْد بن أبي وقّاص رضي الله عنهم قال: كان أبي يعلّمنا المغازِيَ والسرايا. ويقول: يا بُنَي هذه شَرَفُ آبائكم فلا تضيّعوا ذِكْرها. وها هو الإمام الزُّهَري عالم الحجاز والشام. وهو من قدماء مَنْ عُنُوا بِجَمْع السيرة. بل قيل: أنّ سيرته أوّل سيرة أُلِّفَت في الإسلام. كان يقول: في عِلْم السيرة عِلْم الدنيا والآخرة. وإنّها لكلمة صِدْقٍ وحقّ. ولا شكّ أنّ في مغازي النبي صلى الله عليه وسلم من الفوائد والعِبَر. وترقيق القلوب ورَبْطِها بالله تعالى ما لا يوجد إلاّ في القرآن الكريم. لهذا كانت دراسةُ السيرةِ النبوية. ومطالعتُها. والتّدبّرُ في أحداثِها ووقائِعِها. لَمَطْلَبًا هامًّا لكلّ مسلِمٍ ومسلمة. لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم هو القُدْوَة

والأُسْوة. وهو الصورة العملية التطبيقية لهذا الدين. ولقد أمرنا الله عزّ وجلّ بالإقتداء به صلى الله عليه وسلم. والإهتداء بهديه. والتخلّق بأخلاقه. فقال سبحانه في سورة الأحزاب: ((لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)). أيّها المسلمون. يتّضح من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في المرحلة المكيّة أنّها كلها كانت دعوةَ تربية وتزكية، على إخلاص العبادة لله وحده والطاعة الكاملة لأوامره سبحانه وتعالى، وتَرْك كل عادات الجاهلية، بغير قتال ولا جزية، والأمر بالصبر والصمود أمام الأذى والمحنة، والتضحية في سبيل الله تعالى بالنفس والمال والأهل والولد، والإنضباط الكامل تحت قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان يأتيه أصحابه بمكة ما بين مضروب ومشجوج. فيقول لهم: ((اصبروا، فإنّي لم أُومَر بالقتال)). كما قال تعالى في سورة النساء: ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ. فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً. وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ. قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)). قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: (كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، وإن لم تكن ذات النُّصُب، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين، والصبر إلى حين، وكانوا يتحرَّقون ويَوَدُّون لو أُمروا بالقتال ليشتفّوا من أعدائهم، ولم يكن الحال أيْ الأمر بالقتال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة، منها: قلّة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوّهم). فتحقّق في الصحابة السابقين رضي الله عنهم الركنان الأساسيّان في دعوة الرُسل عليهم الصلاة والسلام، وهما التقوى والطاعة، إذ ما من نبيّ إلا دعا قومه إلى تحقيقهما. كما قال تعالى في سورة الشعراء: ((فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ))، فكوَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك القاعدة الصلبة التي أُرسِيَت عليها دولة الإسلام العظيمة في كل أقطار الدنيا بعد ذلك. أيّها المسلمون. فلمّا هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة المكرَّمة إلى المدينة المنوَّرة. واستقرّ به الْمُقام. وأرسى دعائم دولة الإسلام. وأيّده الله تعالى بنصره وبعباده المؤمنين، وألّف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام: الأوس والخزرج، من الأسود، والأحمر، وبذلوا أنفسهم دونه، وقدّموا محبّته على محبّة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أَوْلى بهم من أنفسهم. شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم في متابعة تبليغ دعوته، فقد

أصبح الجوّ مهيّأ أكثر من ذي قبل لنشر الدعوة. ومواجهة الواقفين في سبيلها، روى البيهقيّ وغيرُه عن أُبَي بن كعب رضي الله عنه قال: لمّا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابُه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة وشمّروا لهم عن ساق العَداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب. حتى كان المسلمون لا يَبيتون إلا في السّلاح ولا يُصبحون إلا فيه، فقالوا: ترى نعيش حتى نبيتُ مطمئنّين لا نخاف إلا الله عز وجل، فأنزل الله تبارك وتعالى في سورة النور: ((وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ. وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً. يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً. وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ)). وكانت اليهود والمشركون من أهل المدينة يؤذون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابَه فأمرهم الله تبارك وتعالى بالصّبر والعفو والصّفح، فقال تبارك وتعالى في سورة آل عمران: ((وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)). وقال عز وجل في سورة البقرة: ((وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ)). أيْ أنّ سيِّدَنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدونه مكتوباً عندهم في التَّوراة والإنجيل، ((فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ))، أيْ الإذن بقتالهم وضَرْب الجزية عليهم. وروى أبو داود وابن المنذر والبيهقي عن كعب بن مالك رضي الله عنه، قال: (كان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يؤذون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابَه أشدّ الأذى، فأمرهم الله تعالى بالصبر على ذلك والعفو عنهم). وروى الشيخان وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: (كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابُه يَعفون عن المشركين وأهل الكتاب)، يتأوّل صلى الله عليه وسلم في العفو ما أمره الله تعالى به حتى أَذِن الله تعالى فيهم، فقَتَل مَن قتَل من صناديد قريش. أيّها المسلمون. فلمّا قويت الشوكة واشتدّ الجناح أَذِن لهم حينئذ في القتال ولم يفرضه عليهم، فقال تبارك وتعالى في سورة الحج: ((أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، وَلَوْلا دِفاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً. وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ

لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)). ثم فرض الله عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتَلهم دون مَن لم يقاتِلهم. قال تعالى في سورة البقرة: ((وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا. إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ. وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ. فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ. كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ. فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ. الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ. فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ. وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)). فالآيات تدلّ بظاهرها على وجوب ردّ العدوان الذي يبدأ به الكافرون على المؤمنين. وعلى هذا فقد كان القتال فرضاً على المسلمين في حالة بدء الكفار بقتالهم، ومحظوراً عليهم بالنسبة لمن سالمهم ولم يقاتلهم. ثم فرض الله عليهم قتال المشركين كافّة حتى يكون الدين كله لله. وقال الله عز وجل في سورة التوبة: ((وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً)). وقال تعالى في سورة البقرة: ((كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)). فالأمر بالجهاد مرّ بمراحل: كان محرَّما على المسلمين عندما كانوا في مكة، ثم صار مأذونا فيه أيْ مباحًا لهم في أوّل الأمر بالمدينة المنوّرة، ثم فُرِض عليهم بالنسبة لمن بدأهم بالقتال ويكفّوا عمّن اعتزلهم ولم يقاتلهم، ثم فرضه الله عليهم مطلقاً وهي المرحلة الأخيرة. فأمرهم بقتال جميع المشركين حتى يكون الدين كله لله. فيُسلموا أو يُعطوا الجزية وهم صاغرون. وروى الشيخان وغيرهما: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أُمرتُ أن أقاتِل الناس حتى يَشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله، وأن يستقبلوا قِبلتَنا، ويؤتوا الزّكاة، ويأكلوا ذبيحتَنا، ويصلّوا صلاتَنا، فإذا فعلوا ذلك فقد حَرُمَتْ علينا دماؤهم وأموالُهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وحسابُهم على الله، قيل: وما حقُّها؟ قال: زنا بعد إحصان، أو كُفْر بعد إسلام، أو قَتْل نفسٍ فيُقتَل بها)). أيّها المسلمون. لعلّ يقول قائل: إنّما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسّيف والقتل، والجواب: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعث أوّلا بالبراهين والمعجزات، فأقام يدعو الناس في مكة أكثر من عشر سنين فلم يقبلوا ذلك، وأصرّوا على الكفر والتكذيب، فأُمر بالقتال وهو عِوَض العذاب الذي عَذّب الله تعالى به الأُمم السابقة لمّا كَذّبت رُسُلَهم. فدعوته صلى الله عليه وسلم مرّت في المدينة المنوّرة عَبْر مرحلتَيْن: المرحلة الأُولى: الدعوة جهرا مع قتال المعتدين

والظالمين. واستمرّت من الهجرة إلى غزوة الأحزاب في السنة الخامسة وهي مرحلة الحرب الدفاعية. والمرحلة الثانية: وهي الدعوة جهرا مع قتال كل مَن يقف في سبيل الإسلام، وهي مرحلة الحروب الإستباقية أو الهجومية، بدأت بعد غزوة الأحزاب واستمرت إلى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. اللهم إنّا نسألك علماً نافعاً. وقلباً خاشعاً. ولساناً ذاكراً. اللهم إنّا نعوذ بك من علم لا ينفع. ومن قلب لا يخشع. ومن عين لا تدمع. ومن دعوة لا تُسمع. اللهم إنّا نسألك البر والتقوى. ومن العمل ما ترضى. اللهم أعنّا على ذِكرك وشكرك وحُسن عبادتك. ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منّا. واغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

05- لحظات مباركة مع سيرة الحبيب المصطفى طاهر الأنساب في المرحلة الدفاعية من بداية الجهاد إلى غزوة الأحزاب صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله والأصحاب صلاة نأمن بها يوم القيامة من العذاب

الحمد لله الذي جعل سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم على الكفر أشدّ وأنكَى. وجعل الإقتداء به للإيمان اختبارا ومِحَكًّا. وجعل مَن رغِب عن سنّته من الفسّاق الهلكَى. نحمده تعالى أن أكرمنا بسيرة مَن خَتمت رسالتُه كلَّ الرسائل. وجعل الإقتداء به صلى الله عليه وسلم منبع المكارم والفضائل. ووقاية من المفاسد والرذائل. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. كسّر بالجهاد رقاب الجبابرة. الذين مازالت نفوسهم عن الإيمان نافرة. وأيّد حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم بالمعجزات الباهرة. فأسلمت له بسببها القلوب الكافرة. وأشهد أنّ سيّدنا محمّداً عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. أرسلَه اللهُ بالحجّةِ القاطعةِ، والمعجزةِ السّاطعةِ، والدّعوةِ الجامعةِ، فبلّغَ الرّسالةَ، وأدّى الأمانةَ، ونصحَ الأمّةَ، وكشفَ الغمّةَ، وجاهدَ في سبيلِ اللهِ حتّى أتاه اليقينُ، واختار له خيرةَ خَلْقه من الصّحابة، ذوي الخُلُق الأوفى وحُسْن الإنابة، فأقبلت جوارحُهم على طاعة ربّها مستجابة. فقد جاهدوا في

الله حقّ جهاده، ونشروا دينه في بلاده وعباده، وباعوا أنفسَهم وأموالَهم من أجل الشهادة. حتى نالوا الحسنى وزيادة.

يا سامعِي أخبارِه ومفاخِرِهْ * ومطالِعِي آثارِه ومآثِرِهْ

ومؤمِّلِي وافِي الثوابِ ووافرِهْ * إنْ شئتُمُ فوزاً بذاك عظيمًا

صلّوا عليه وسلِّموا تسليمًا

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على سيِّدِنا محمد. عُنْصُرِ شجرة النبوءة التي عذُبَت في المسامع أحاديثها وأذكارها. وعلى آله الحائزين شرف السيادة وعظيم مِقْدارها. وعلى أصحابِه الذين كسّروا جيوش الكُفْر، وهجروا في محبّة داعيهم إلى الله الأَوطار والأوطان، ولم يرجعوا إليها بَعْدَ فراقها وَوَدَاعِها، وحَفَظُوا على أتباعهم أقوالَه وأفعالَه وأحوالَه حتى أَمِنَتْ بهم السُّنَنُ الشريفة من ضياعها. صلاة وسلاما دائمَيْن متلازمَيْن ما دامت السماءُ في سُمُوِّها، والأرضُ في اتّساعها، ويكونان لنا سببا لدخول الجنّة والتمتّع برياضها وأعذب أنهارها. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. لابدّ بين الفَيْنَة والأخرى من إطلالة على سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، تنير الطريق للسالكين. وتكشف حقائق الأعداء والأصدقاء للناس أجمعين. فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهديه. فَصْلٌ عند التنازع والإختلاف. قال تعالى في سورة النساء: ((فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)). وبسنّته تعبّد المسلمون الذين يرجون الله واليوم الآخر. قال تعالى في سورة الأحزاب: ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)). فحياته صلى الله عليه وسلم كلّها جهاد ونصيحة. وصبر ومصابرة. حتى أظهر الله الدين. ونصر المسلمين. فبعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة مع أصحابه فرارا بدينهم. بسبب إيذاء كفّار قريش لهم. هناك ابتدأت بالمدينة مرحلة الجهاد في سبيل الله. إعلاءً لكلمة الله. وتكاثرت الخصوم، بين يهود حاسدين شامتين. ومنافقين متربّصين مرجِفِين، وفي أطراف المدينة أعراب مشركون يتطلّعون إلى ثمار المدينة وخيراتها بشراهة. ومن وراء هؤلاء وأولئك الخصوم الأوّلون كفار قريش يؤلّبون ويحضّرون ويدعّمون بأموالهم، ويدفعون بأبنائهم لخوض المعارك حتى لا

تقوم للدين قائمة. ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون. أخرج أبو داود وغيره بسند صحّحه ابن حجر قال كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه: كان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤذون النبيَ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه أشدّ الأذى، فأمر اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ذلك والعفو عنهم، وفيهم أنزلت الآية من سورة البقرة: ((وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)). ثم أبرم رسول الله صلى الله عليه وسلم معاهدة مع يهود بني قريظة؛ وبني قينقاع، وبني النضير، على أن لا يحاربوه. ولا يعينوا أحدا على حربه. وتضمّنت بنود هذه المعاهدة ما يكفل حقوقهم ويمنع شرورهم، ويهيّء الفرصة للنبي صلى الله عليه وسلم لكي يَسْلَمْ من أذاهم. ويتفرّغ هو وصحبُه لجهاد غيرهم. ونشر الدين الحق في المدينة وخارجها، حتى إذا انتشر الدين وكثر الداخلون فيه قَلَّ أثرُهم وأمكن القضاءُ عليهم، أو إجلاؤهم. أيْ إخراجهم وطردهم من المدينة. أيّها المسلمون. ومرّت دعوته صلى الله عليه وسلم في المدينة المنوّرة عَبْر مرحلتَيْن: المرحلة الأُولى: الدعوة جهرا مع قتال المعتدين والظالمين. واستمرّت من الهجرة إلى غزوة الأحزاب في السنة الخامسة وهي مرحلة الحرب الدفاعية. والمرحلة الثانية: وهي الدعوة جهرا مع قتال كل مَن يقف في سبيل الإسلام، وهي مرحلة الحروب الإستباقية أو الهجومية، بدأت بعد غزوة الأحزاب واستمرت إلى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. والمرحلة الأُولى للدعوة الإسلامية في المدينة المنوّرة شهدت الأحداث البارزة التالية: ففي السابع عشر من رمضان من السنة الثانية من الهجرة وقعت غزوة بدر، فسجّلت للتاريخ أوّل انتصار للمسلمين في ميدان القتال، تلك الغزوة التي علّمتنا أنّ الإنتصار في الميدان العسكري لا يَتحقّق إلا بَعد الإنتصار في الميدان الإجتماعي. فقد أَسّس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق غزوة بدر المبادئ التالية: مبدأ اتّخاذ الحَيْطة والحذر، ومبدأ الشورى، ومبدأ المساواة، ومبدأ القَبول بالمعارضة والرأي الآخَر، ومبدأ الإذعان للحق وإن كان مُرًّا، ومبدأ المشاركة الميدانية من طرف القادة. وبعد غزوة بدر وما حقّق الله تعالى فيها للمسلمين من الإنتصار الباهر، كَشَّر يهود مستوطنة بني قينقاع عن أنيابهم، وبدت البغضاء من أفواههم، فنقضوا العهد الذي أبرموه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعلنوا الحرب ضِدّه، وكَانَ مِنْ أَمْرِ يهود بَنِي قَيْنُقَاع ما

رواه أهل السِّيَر: أَنّ امْرَأَةً مِنْ المسلمين قَدِمَتْ بشيء تريد أن تبيعه بِسُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَجَلَسَتْ إلَى صَائِغٍ يهودي بالسوق، فَجَعَل اليهودُ يُرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا، فَأَبَتْ السيّدة المسلمة، فَعَمِدَ الصّائِغُ إلَى طَرَفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ إلَى ظَهْرِهَا، فَلَمّا قَامَتْ انْكَشَفَتْ عورتُها، فَضَحِكُوا منهَا، فَصَاحَتْ. فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصّائِغِ فَقَتَلَهُ، وَشَدّتْ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ. فَاسْتَصْرَخَ أَهْلُ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ، فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ فَوَقَعَ الشّرّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي قَيْنُقَاعَ. وقد أثار هذا الخبر المؤلم غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين في المدينة. فذهب النبي صلى الله عليه وسلم إليهم بنفسه الكريمة في سوقهم. فوعظهم، وذكّرهم بالله تعالى وقال: ((يَا مَعْشَرَ يَهُودَ! احْذَرُوا مِنْ اللهِ مِثْلَ مَا نَزَلَ بِقُرَيْشٍ مِنْ النّقْمَةِ، أي بهزيمتهم ببدر. وَأَسْلِمُوا، فَإِنّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ أَنّي نَبِيّ مُرْسَلٌ. تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ، وَعَهْدِ اللهِ إلَيْكُمْ)). فردّوا عليه ردًّا يناسب أخلاقهم الدنيئة، وطبائعهم الذميمة، ونفوسهم الرجسة، وألسنتهم الدنسة، وقَالُوا: يَا مُحَمّدُ! إنّك تَرَى أَنّا قَوْمُك! لا يَغُرّنّكَ أَنّك لَقِيت قَوْمًا لا عِلْمَ لَهُمْ بِالْحَرْبِ فَأَصَبْتَ مِنْهُمْ فُرْصَةً! إنّا وَاَللهِ لَئِنْ حَارَبْنَاك لَتَعْلَمَنّ أَنّا نَحْنُ النّاسَ. وفي لفظ: لتعلمنّ أنّك لم تقاتل مثلنا. أي لأنّهم كانوا أشجع اليهود وأكثرهم أموالا وأشدّهم بغيا، فلمّا قال يهود بني قينقاع هذا الكلام، أَنْزَلَ اللّهُ عزّ وجلّ فِي ذَلِكَ آيات بيّنات توضّح العلاقة بين المسلمين واليهود خلال الفترة القادمة، فقال تعالى في سورة آل عمران: ((قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ)). وأنزل الله فيهم من سورة الأنفال قوله تعالى: ((وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ)). فسار إليهم رسول الله صل الله عليه وسلم بجيشه فاستأصلهم وأجلاهم عن المدينة، وبذلك أزال رسول الله صل الله عليه وسلم بؤرة استيطانية كان المسلمون يعانون منها، واليوم كثيرا ما اعتدى الصهاينة على شرف المسلمات، كثيرا ما قتلوا من الأطفال والنساء والرجال والشيوخ، إنّ العداء بين اليهود والمسلمين هو عداء عقائدي، عداء وُجِدَ يوم بُعِثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإسلام الذي جعله الله خاتمة الرسالات، وجعله الطريق إلى دخول الجنّة في الدار الآخرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما من يهودي أو نصراني سَمع بي ولم يؤمن بي إلا دخل النَّار)). وليس غريبا على اليهود أن يعادوا الحقّ. فهُم على ما أكرمهم الله به من

الرسالات والفضائل. فقد ناصبوا اللهَ العداء قبل بعثة سيّدنا مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، فهم الذين عصوا وكفروا، وكان قَتْل الأنبياء شِيمة من شِيَمهم، والغدر من أبشع خصالهم، قال تعالى في سورة آل عمران: ((ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُواْ بِغَضَبٍ مِنَ الله وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)). والآيات في وصْف خُبث اليهود وعدائهم للإسلام. ولرسول الإسلام. ولأمّة الإسلام. كثيرة في كتاب الله، وقد حذّرنا الله منهم. ونهانا عن موالاتهم. أو التودّد إليهم. وجعل ذلك إنْ حصل منّا؛ طعْنًا في عقيدتنا. وميْلا إلى ملّتهم. قال تعالى في سورة المائدة: ((يَا أَيُّهاَ الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَتَّخِذُواْ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ الله لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ)).

أيّها المسلمون. وفي شوال من السنة الثالثة من الهجرة وقعت غزوة أُحُد تلك الغزوة التي كانت امتحانا شاقًا وعسيرا للصحابة الكرام رضي الله عنهم، حيث استُشهِد في هذه الغزوة سبعون رجلا من خيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. منهم سيّد الشهداء. أَسَد الله وأسد رسوله. عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم. سيّدنا حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه. وجُرح فيها وجه النبي صل الله عليه وسلم. وكُسرت رباعيّته اليمنى السفلى. وهُشمت البيضة على رأسه الشريف. فجعل صلى الله عليه وسلم يسلت الدّمّ عن وجهه ويقول: ((كيف يَفلح قومٌ شجّوا وجه نبيّهم، وكسروا رباعيّته، وهو يدعوهم إلى الله))، فأنزل الله تعالى في سورة آل عمران: ((لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ))، ونَشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم. ((وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا))، كل ذلك بسبب مخالفة الرماة أوامر رسول الله صل الله عليه وسلم. حيث اختار خمسين رامياً بقيادة سيّدنا عبد الله بن جبير رضي الله عنه. قائلا له: ((إنْضَحْ عَنَّا الْخَيْلَ بِالنَّبْلِ لَا يَأْتُونَ مِنْ خَلْفِنَا، إِنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا فَاثْبُتْ مَكَانَكَ، لَا نُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِكَ)). ثمّ قال للرّماة: ((إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَوَطِئْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ)). ولكنّ الله قضى وحكَم. ولا معقّب لحكمه. وهو السميع العليم، فإنّ الرماة لمّا رأوا هزيمة الكفّار. بارحوا أماكنهم، واشتغلوا بجمع الغنائم، وذكّرهم أميرُهم بلزوم أماكنهم، فكان ذلك سببًا في انهزام جيش المسلمين في أُحُد. ثم استعاد المسلمون تنظيم صفوفهم وطوّقوا قوّات قريش التي

اخترقت مواقع الرماة، وهو الأمر الذي حمل قريشًا على أن تعود أدراجها دون أن تحقّق أهدافها في تلك الغزوة، قال تعالى في سورة آل عمران: ((وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ))، هذه الغزوة هي مدرسة تعلّمنا أنّ ما يُصيب المسلمين من الحروب الظالمة، إلى الفتن المظلمة، إلى المصائب المجحفة، سببه الأساس هو مخالفة أوامر رسول الله صل الله عليه وسلم ، وتعلّمنا أنّ المسلم عندما يرتكب مخالفة لا يضر نفسه فقط؛ بل يضر مجتمعه ومَن حوله، والله عز وجل يقول في سورة الأنفال: ((وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)). وتعلّمنا أنّ المصيبة علامة على محبّة الله للعبد، ترفع من درجاته وتمحو خطاياه، ففي سُنن الترمذي عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ)). أيّها المسلمون. وبعد غزوة أُحُد وما أصاب المسلمين تجرّأ يهود مستوطنة بني النضير فواجهوا المسلمين بالخيانة والغدر، وقاموا بمؤامرة حاولوا فيها اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائد المسلمين، ولا شك أنّ ذلك هو أكبر خيانة للعهد الذي بينهم وبين رَسُول اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأكبر خَرْق للإتّفاق الذي بينهما، لأنّ اليهود لا يصلح معهم المفاوضات ولا يستجيبون لعهود ومواثيق. بل علاجهم الناجح ومعاملتهم الواجيهة هي القوّة. التي لا يعرفون غيرها ولا يؤدّبهم سواها، وقد نزل في إجلاء بني النضير سورة الحشر. التي يقال لها سورة بني النضير؛ فقد ثبت في صحيح البخاري عن سَعِيدِ بن جبيرٍ قال: قلت لابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: سُورَةُ الْحَشْرِ قال: قُلْ سُورَةُ النَّضِيرِ، فسار إليهم رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجيش من الصحابة فأجلاهم عن المدينة، وبذلك استأصل رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بؤرة استيطانية ثانية. فالصحابة رضوان الله عليهم لم يسمحوا لليهود حين حاولوا اغتيال النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونحن اليوم نرى الصهاينة يغتالون الإسلام كل يوم عسكريا في فلسطين، وإعلاميا عبْر المحطّات الفضائية ومواقع الإنترنيت، واقتصاديا عبر استنزاف ثروات الأمّة، وكنّا نكتفي عادة ببيانات الشجب والإدانة،

واليوم فلا شجب ولا إدانة؛ ولا دعْم ولا إعانة، لقد رضينا بالذل والإهانة، واستسلمنا للغش والخيانة؟ فيا للعار من هذه المهانة. أيّها المسلمون. وفي شوال من السنة الخامسة من الهجرة وقعت غزوة الأحزاب، تلك الغزوة التي تجمَّع فيها لإبادة المسلمين عشرة آلاف مقاتل، أَوْباش تشمل اليهود والمشركين، وجيش المسلمين ثلاثة آلاف مقاتل، فاقترح سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم حفْر الخندق. وتمّ حفْر الخندق على جناح السرعة. رغم الجوّ البارد. والمجاعة التي أصابت المسلمين؛ فبقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه شهرا كاملا، يحمون المدينة تحت ضغط هجمات المشركين. حتى كانوا كما قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ((إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الابْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)). وفي هذا الظرف الصعب خانت مستوطنة بني قريظة من اليهود العهد الذي بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم. فساعدوا الغزاة من المشركين ظنًّا منهم أنّ الإسلام قد انتهى، ويمكرون ويمكر الله، فقد أرسل الله تعالى على أحزاب المشركين ريحا شديدة قويّة. أسقطت خيامهم. وأطفأت نيرانهم. وأرسل عليهم جندًا من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرعب، فرحلوا لم ينالوا خيرًا. كما قال تعالى في سورة الأحزاب: ((وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا)). وأزاح الله تعالى عن المسلمين هذه الغمّة. التي تحزّب فيها الأحزاب. من عرب ويهود، ولو لا لُطْف الله وعنايته بهذا الدين مِنَّةً منه وفضلاً. لساءت الأحوال. وكان جلاء الأحزاب نعمة من الله على المؤمنين. كما قال سبحانه في سورة الأحزاب: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)). وروى البخاري في صحيحه عن سليمان بن صُرَد رضي الله عنه قال: سمعت النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم يقول حين أُجْلِيَ الأحزاب عنه: ((الآن نغزوهم، ولا يغزونا، نحن نسير إليهم)). وهكذا كان. حتّى فتَح الله عليه مكّةَ. فانسحبوا إلى بلدانهم تاركين وراءهم تلك المستوطنة الخائنة، فانتقم الله منهم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني قريظة بعد غزوة الأحزاب مباشرة،. فقَتل فيهم مَن قَتل وأَسر مَن أَسر، وبذلك استراحت المدينة من كيْد اليهود ومستوطناتهم. ((فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ)). أيّها المسلمون. وبانتهاء غزوة الأحزاب انتهت المرحلة الأُولى من

مراحل الدعوة الإسلامية في المدينة، فجاءت المرحلة الثانية وهي الدعوة جهرا وبقتال كل مَن يقف في سبيل انتشار الإسلام وكل مَن يعرقل إيصال الإسلام إلى الناس كافة، أو ما يسمى اليوم بـالحرب الاستباقية، أو الهجومية. وقد أشار لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال بعد انتهاء غزوة الأحزاب فيما روى البخاري: ((الآن نغزوهم. ولا يغزوننا، نحن الآن نسير إليهم)). وهكذا تظلّ سيرةُ رَسُول اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بأحداثها ودروسها معلِّماً هادياً. ودرساً بليغاً، وَعَتْهُ الأجيال المسلمة فيما مضى، وينبغي أنْ تَعِيَهُ في زماننا. فنسأل الله الكريم. ربّ العرش العظيم. بحرمة أحبّ الخلق إليه. وأكرمهم عليه. سيّدنا ومولانا محمّد صلى الله وسلم عليه. وبحرمة آله وأصحابه الذين اصطفاهم لصحبته. وأهّلهم لنصرته. أن يجعلنا ممّن إعتبر وادّكر بهذه السيرة. فتاب إلى ربّه واستغفره من كلّ صغيرة وكبيرة. اللهم واجعلنا من الراشدين. وتوفّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

06- لحظات مباركة مع سيرة الحبيب المصطفى أَطْيَب العالمين فرعًا وأصلا في المرحلة الإستباقيّة الهجوميّة من غزوة الأحزاب إلى انتقاله إلى الرّفيق الأعلى صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه السادة الأَجِلاَّ صلاةً تنوِّر بها قلوبَنا بنور سرّه الأجلى

الحمد لله الذي جعل في سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أحداثا رائعة. فكانت في جبين التاريخ مَعْلمة ناصعة. تستوجب منّا وقفات نُصلح بها ما فسد من أحداثنا الواقعة. فسبحانه من إله أكرم حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم بمقامات اليقين في سريرته. وبمكارم الأخلاق في سيرته. وبمظاهر النظافة والنقاء في صورته. وأوجب علينا الإقتداء به واتبّاع سنّته، حتى نُقدِّم الحجّة والبرهان على نُصرته ومحبّته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. جعل لكل شيء بداية. ولكل بداية نهاية. فطوبى لمن ختم دنياه بالهداية. وويل لمن لوّثها حتى النهاية بالغواية. نحمده تعالى ونشكره على نعمة الإسلام. ونستوهب منه عفوه

الجميل ممّا ارتكبناه من الآثام. ونطلب منه الهداية والدخول في زمرة مَنْ قال: ربِّيَ اللهُ ثم استقام. وأشهد أنّ سيّدنا محمدا عبد الله ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. أرسله بالدعوة الهادية. والشِّرعة الصافية. والملّة الباقية. والعصمة الواقية. والكلمة العالية. والمكرُمة الوافية. على مكارم الأُمم الماضية. فجاهد صلى الله عليه وسلم في الله بعزيمة ماضية. وسيرة راضية. حتى لانت الشكائم العالية. ودانت الخلائق لله في الدانية والقاصية. ثم استأثر اللهُ به ليكافئه. وخيّره فاختار الباقية على الفانية.

فبالله يا عشّاق وجهِ محمدٍ * ورؤيتِهِ أذكارَه لا تُوادِعُ

فميلوا إليه بالحَنِين وبالجَوَى * فما وُدُّ محبوبٍ لدى الصَّبّ ضائعُ

وصلّوا عليه بالدوام وسلِّموا * وسنّتَه الزَّهْرَاءَ مدى الدّهرِ تابعُ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمد. خيرِ مَن افتخرت بظهوره العصور والقرون. وعلى آله المنتَخَبِين من أطهر الأصلاب وأشرف البطون. وصحابته العاملين بأحكام الشريعة فيما يأتون وما يذرون. صلاةً تُوَفّي لنا بها الظّنون. وتقضي لنا بها جميع المآرب والشؤون. وترحمنا ببركتها عند انقضاء الأجل وحلول المنون. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أما بعد:** فيا أيّها المسلمون. لقد بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم هادياً إلى الحقّ داعياً، ولم يُبْعَث جابياً، وهو نبيّ الرحمة بالإضافة إلى أنّه نبيّ المَلحمة. وإنّ المتأمِّل في سيرته وحياته صلى الله عليه وسلم ومواقفه مع أصحابه وأعدائه لَيُدرك عظمة أخلاقه، ونُبْل صفاته، ولا يستغرب أفعاله، ولا يتعجّب من مواقفه، فهو صلى الله عليه وسلم أحلم الناس وأعفاهم عن جاهل، وكان حِلمه وعفوه دائماً عجيباً يفوق الحدّ الذي يتصوّره الإنسان، وصدق الله العظيم الذي يقول عنه في سورة القلم: ((وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)). ومتتبِّع لمراحل سيرته صلى الله عليه وسلم يدرك هذا جيّدا. إذ مرّت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمراحل أربعة: المرحلة الأُولى: الدعوة سرًّا بدون قتال، التي بدأت بقوله تعالى: ((اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ))، واستمرّت ثلاثة سنوات. والمرحلة الثانية: الدعوة جهرا وبدون قتال أيضا، التي بدأت بقوله تعالى في سورة الحجر: ((فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وأَعْرِضْ عنِ المشرِكِين))، واستمرّت عشر سنوات إلى الهجرة. والمرحلة الثالثة: الدعوة جهرا

مع قتال المعتدين والظالمين. التي بدأت بقوله تعالى في سورة الحج: ((أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، وَلَوْلا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً. وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)). واستمرّت من الهجرة إلى غزوة الأحزاب في السنة الخامسة وهي مرحلة الحرب الدفاعية. والمرحلة الرابعة: وهي الدعوة جهرا مع قتال كل مَن يقف في سبيل نشر الإسلام، وهي مرحلة الحروب الإستباقية أو الهجومية، والتي بدأت بعد غزوة الأحزاب حين قال النبي صلى الله عليه وسلم كما روى البخاري في صحيحه عن سليمان بن صُرَد رضي الله عنه قال: سمعت النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم يقول حين أُجْلِيَ الأحزاب عنه: ((الآن نغزوهم، ولا يغزونا، نحن نسير إليهم)). واستمرّت إلى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. إلاّ أنّ الحرب الاستباقية من رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها عدل ورحمة كما سنرى، والحرب الاستباقية في عالَمنا اليوم كلها ظلم ونقمة. أيّها المسلمون. والمرحلة الرابعة للدعوة الإسلامية في المدينة المنوّرة مرحلة الحروب الإستباقية أو الهجومية شهدت الأحداث البارزة التالية: ففي شعبان من السنة الخامسة على الراجح جاءت غزوة بني المصطلق حين عَلِم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ قبيلة بني المصطلق تجمع الجموع لمهاجمة المدينة المنوّرة، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمبادرة فهاجم قبل أن يُهاجَم، فحقّق الله له انتصارا باهرا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن هدفه الإستيلاء على الأرض، أو هتْك العِرض، كما هو حال حروب الصليبيّين والصهاينة اليوم، ولم يصادِر الأراضي. ولم يُطوّق القبيلة بالإستيطان، ولم يجعل من رؤسائها مجرمي حرب، ولم يَهدم المنازل. ولم يحرق الأشجار، ولم يُخلِّف وراءه مشرَّدين ولاجئين؛ كما فعل الصليبيّون والصهاينة اليوم، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحرب رسول السلام، وفي السِّلم منبع الحب والوئام، وهدفه صلى الله عليه وسلم هو فتْح القلوب للتحلّي بالإسلام، لا فتْح الجيوب لاستيلاب الأموال، ولا يمكن للقلب أن ينفتح قهرا وقسرا. وأبرز ما تميّزت به هذه الغزوة أمران: الأمر الأوّل: بعد انتهاء الغزوة تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم بجويرية بنت قائد القبيلة بعد إسلامها، فأصبحت من أمّهات المؤمنين، فتبوّأت بذلك منصبًا ما من امرأة من المسلمات إلا وكان هذا المنصب أمنيّتها. كانت أسيرة فحوّلها هذا الزواج المبارك إلى أميرة، فكان ذلك

فاتحة خير ويُمن وبركة لهذه القبيلة تتمثّل في مسألتين: الأولى: حين أطلق الصحابة ما بأيدهم من الأسرى قائلين: لأنّهم أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم. والمسألة الثانية: حين أسلمت القبيلة على بَكرة أبيها؛ لأنّ الإسلام دينٌ صَهَرَهم، قالت السيّدة عائشة رضي الله عنها: ((ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جويرية)). الأمر الثاني: مشاركة عدد كبير من المنافقين الذين يدّعون الإسلام في هذه الغزوة فكان ذلك سبب فتنة كادت أن تنال مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومِن أصحابه لولا لُطْف الله تعالى وعنايته! وهذه الفتنة تتمثّل في مسألتين: الأُولى: زرْع دواعي البلبلة ومحاولة إذكاء النزاع بين المهاجرين والأنصار، حتى تنادَوْا فيما بينهم بدعوات الجاهلية التي تفرِّق ولا تَجْمع، فقال المهاجرون: ياَلَلْمهاجرين! وقال الأنصار: ياَلَلْنصار! فكادوا يقتتلون فيما بينهم، لولا مبادرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لإطفاء نار الفتنة، فقال لهم: ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنّها منتنة)). والمسألة الثانية: اتّهام أُمّ المؤمنين السيّدة عائشة رضي الله عنها بالإفك وهي بريئة، فبرّأها من فوق سبع سماوات. وأنزل فيها عشر آيات كريمات في سورة النور، وَحْيًا يُتلى على مرّ الدّهور، وتعاقب العصور، يخلِّد ذكراها العطرة. ويزكّيها بتزكية الربّ الكريم، قال الله تعالى في سورة النور: ((إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيم. لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ. لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ. وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ. وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ. يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ. وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ. وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ. وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ. وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ

وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ. الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)). أيّها المسلمون. وفي شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه أنه هو وأصحابُه دخلوا المسجد الحرام مُحْرِمين، وفيها يقول الله تعالى في سورة الفتح: ((لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا)). ورؤيا الأنبياء حق؛ بل نوع من أنواع الوحي، فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة، فاستجاب الصحابة رضوان الله عنهم؛ ولكن قريشا منعوهم من الدخول إلى مكة، في مكان اسمه الحديبية، وبعد حوار ومفاوضات توصّل رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم إلى صُلح يُسمّى في السيرة بصُلح الحديبية، فوضعت الحرب أوزارها، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنوّرة، وبهذا الصلح أصبحت الطرق في الجزيرة العربية سالكة أمام دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأرسل صلى الله عليه وسلم الرسائل إلى ملوك العرب والعجم آنذاك، ودخل عدد كبير من قبائل العرب إلى الإسلام. ولنا في هذا الصلح النبوي وقْفة نتعلّم منها أنّ الإسلام ميّال إلى السِّلم؛ بل هو يدعو إلى الصلح والسلام بين المسلمين وغيرهم من شعوب الأرض، لكن السلام العزيز لا السلام الذليل، والله تعالى يقول في سورة الأنفال: ((وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ))؛ أمّا السلام مع عدوّ احتلّ أرضنا وهتك عِرضنا، ودنّس مقدّساتنا في فلسطين وغيرها إنّما هو استسلام وإذلال. أيّها المسلمون. وفي شهر محرَّم من السنة السابعة من الهجرة فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر وأزال ما بها من مستوطنات اليهود، تلك المستوطنات المدنّسة، التي تدنّس بكَيْدها ومكْرها أرض الجزيرة المقدَّسة. وفي رمضان من السنة الثامنة من الهجرة نقضت قريش الاتّفاق المبرَم بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحقّوا من أجل ذلك التأديب، فتوجّه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف مقاتل. انظروا رحمكم الله إلى هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الذي هاجر من مكة

وحيدا، ليس معه إلا أبو بكر الصدّيق، يعود إليها بعد ثماني سنوات، بعشرة آلاف من أتباعه. وهكذا فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة المكرّمة. ودخل أهلُها الإسلام بعد أن أصدر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم العفو الجماعي العام. إذ قال: ((اِذهبوا فأنتم الطلقاء)). هل سجّل تاريخ القرن العشرين اليوم قرْن التّشدّق بالديمقراطية وحقوق الإنسان، عفوًا جماعيًّا عامًّا كهذا العفو النبوي؟ فاسألوا الحروب التي أدارها الإنسان اليوم في جميع أنحاء الأرض، هل قال قائد يوما لأعدائه: اذهبوا فأنتم الطلقاء، فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سجّل للتاريخ العفو الجماعي العام فدعاة حقوق الإنسان اليوم سجّلوا للتاريخ الإبادة الجماعية العامّة، التي لا حدود لإبادتها، تبيد الإنسان والحيوان والأجنّة والمنازل والثروات. وبين عشية وضحاها ارتفع عدد المسلمين من عشرة آلاف جندي إلى اثني عشر ألف جندي، وبهم انتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة حُنين ففتح الطائف تلك المدينة التي كان النبيصلى الله عليه وسلم قد هاجر إليها قبل المدينة فطرده أهلها، وبعد عشر سنوات عاد إليها قائدا فاتحا فأذعن إليه أهلها. أيّها المسلمون. وفي رجب من السنة التاسعة من الهجرة توجّه رسول الله صلى الله عليه وسلم لغزوة تبوك حينما علم بأنّ الروم تجمّعوا لغزو المدينة المنوّرة، هذه الغزوة التي سمّاها القرآن الكريم ساعة العسرة؛ لأنّها جاءت في سنة الجفاف، وفي فصل الصيف، مع بُعد المسافة بين المدينة وتبوك، وعلاوة على ذلك فهي أوّل مواجهة بين الصليبيّين والإسلام؛ بل هي مواجهة أكبر قوّة في العالم قوّة الروم التي هزمت يومئذ الفرس وسيطرت على الشام ومصر وتركيا، وكانت عاصمتها قسطنطينية التي تسمّى الآن باستنبول. ورغْم ذلك لم يتردّد رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه المواجهة. فقاد إليها ثلاثين ألف مقاتل من الصحابة، ولم يلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها حربًا لأنّ الروم انسحبوا من الموقع قبل وصوله صلى الله عليه وسلم. وفي السنة العاشرة للهجرة وهي السنة الأخيرة من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم حج صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، فحج معه أزيد من مائة ألف من المسلمين! وخطبهم في عرفات تلك الخطبة التي تشمل أعلى سمة من سمات حقوق الإنسان. حيث حرّم صلى الله عليه وسلم الظلم والاعتداء على أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، وحرّم الربا، ودافع عن حقوق المرأة. فعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حجة الوداع ثمانين يوما، ثم اِلتحق بالرفيق الأعلى، وذلك ضحى يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، صلى الله

عليه وعلى آله وسلَّم. وشرَّف وكرَّم. ومجَّد وعظَّم. ووالَى عليه ذلك وأنعَم. أيّها المسلمون. ذلكم هو ملخَّصٌ من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم. فتأمّلوا رحمكم الله نجاح هذه الدعوة النبوية الشريفة في عشر سنوات، فماذا فعلنا نحن في عشرات السنين؟ لقد واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث قِوى شرّيرة: المشركون واليهود والمنافقون. فانتصر على الجميع، مع ما تتطلّبه تنشئة الدولة من العزم والحزم والعمل المتواصل. ومن هذا الملخَّص نتعلَّم أنّ الحرب في الإسلام ليست للتدمير وقتل البشر؛ بل إنّها تنساب عطفا ورحمة، إنّها تتألّق في سماء الإنسانية، وترتفع عن حضيض الغرور والأنانية، إنّها لمواجهة مَن يحمل السلاح ضدّ الأمّة، لقد حرّم الإسلام قتْل مَن لا يحمل السلاح من الرجال والنساء، روى أبو داوود أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قدّم وصية لجنوده. وصية تحمل آداب الجهاد الإسلامي. وقوانين الحرب في الإسلام. تلك الآداب التي تجعل الحرب في الإسلام رحمة. تلك القوانين التي لم يعرفها العلَم المتحضّر اليوم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((انطلِقوا باسْمِ الله وَبالله وَعَلَى مِلّةِ رَسُولِ الله، وَلا تَقْتُلُوا شَيْخاً فَانِياً وَلاَ طِفْلاً وَلا صَغيراً وَلا امْرَأةً، وَلا تَغُلّوا وَضُمّوا غَنَائِمَكُم وَأصْلِحُوا وَأحْسِنُوا إنّ الله يُحِبّ المُحْسِنِينَ)). وفي رواية: ((سِيُروا بِاسْمِ اللهِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ. قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ. وَلاَ تَمْثُلُوا، وَلاَ تَغْدِرُوا، وَلاَ تَغُلُّوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً)). انظروا رحمكم الله كيف كان الإسلام رحمة حتى في حربه، وقارنوا بين الحرب في الإسلام، والحروب التي أدارها اليوم دعاة الحضارة وحقوق الإنسان، الذين ينعتون اليوم المسلمين بالإرهاب، إنّهم لم يحسبوا في حروبهم أيّ حساب للأطفال ولا للنساء ولا للشيوخ ولا لرجال الدين عندهم، إنّهم هدّموا المستشفيات على مرضاها، وأحرقوا المحاصيل الفلاحية وحيواناتها. لقد أسفرت الحرب العالمية الأولى عن ضحايا تُقدّر بتسعة عشر مليون قتيلا أكثر من نصفهم مدنيّون. وأسفرت الحرب العالمية الثانية عن ضحايا تُقدّر بخمسة وستّين مليون قتيل، وأسفرت محاكم التفتيش التي أقامتها الكنيسة في العصور الوسطى في أوربا عن اثني عشر مليون قتيلا، وأسفرت الشيوعية في العالم عن ضحايا تُقدّر بثلاثين مليون قتيلا. بينما تتبّع العلماء غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم كلَّها على مدى عشر سنوات، فوجدوا أنّها لم تسفر إلا عن ألف وثماني عشرة قتيلا من كِلاَ الفريقَيْن، من الكفار والمسلمين معا، كلهم عسكريُون ليس فيهم مدنيّون ولا نساء ولا أطفال، ورغم ذلك أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم دولة، وأحيا أمّة، وأثبت العقيدة، وأصلح

المجتمع. قارنوا يا عباد الله بين هذا وذاك؛ لتدركوا كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة مهداة في حربه وسِلمه، ولتدركوا معنى قول الله تعالى: ((وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين)). واسألوا بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، حيث قوافل الشهداء إلى الله تترى، وفي مقدّمتها الأطفال الرّضّع، والشيوخ الرّكّع، والبهائم الرّتّع. أيّها المسلمون. لقد أثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم للجميع سواء في زمنه أو في زمننا هذا وإلى يوم القيامة أنّه صلى الله عليه وسلم لا يقاتل من أجل المال والغنائم والسبي والدنيا بكاملها، وإنّما يقاتل لأجل إعلاء كلمة الله عزّ وجلّ، ولأجل تعبيد الناس لرب العالمين. ولأجل الدفاع عن كرامة وحرمات الأمّة الإسلامية. وهكذا تظلّ سيرةُ رَسُول اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بأحداثها ودروسها معلِّماً هادياً. ودرساً بليغاً، وَعَتْهُ الأجيال المسلمة فيما مضى، وينبغي أنْ تَعِيَهُ في زماننا. فنسأل المولى عزّ وجلّ أن يعيننا على السير على خطاه صلى الله عليه وسلم، اللهم أحينا على محبّته. وثبّتنا على سنّته. وأمتنا على ملّته. واحشرنا في زمرته. وأكرمنا بشفاعته. صلى الله عليه وسلم، اللهم وأنِلنا شرف صحبته في عليّين، مع الذين أنعمتَ عليهم من النبيئين والصّدّيقين والشهداء الصالحين، وحَسُن أولئك رفيقا. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

فهرس الجزء الأوّل

الموضوع	الصفحة
السـيرة الـنّبـويّـة:	03
إرهاصات النبوّة:	04
01- الفرح والبشرى بسيّد الدنيا والأخرى الذي بشّر به الأنبياء فنعم البشرى والذكرى	06
02- دلائل وأعلام النّبوّة من بشائر وإخبار سَيْفِ بنِ ذي يَزَنْ ذي المُلك والفُتُوّة	11
03- الإرهاصاتُ الواضِحةُ الجلِيّةُ تمهِيدٌ لِبِعثةِ خيرِ البرِيّةِ	16
مراحل السيرة النبوية:	24
01- أسبقيّة النّور المحمّدي صلّى الله عليه وآله وسلّم	25
02- إبتهاج الوجود بمولد النبيّ المحمود شريف الآباء والجدود صلى الله عليه وآله وسلم	29
03- كمال السرور وإثلاج الصدور بمولد مظهر النور صلى الله عليه وآله وسلم	34
04- عناية ربّ البريّات بحبيبه سيّد الكائنات وما في تسميّته من أسرار وإشارات صلى الله عليه وآله وسلم	39
05- نيل الأوطار بمعرفة ما في قصّة رضاع النبيّ من أخبار ومعجزات دالّة على ما له عند الله تعالى من قدر ومقدار صلى الله عليه وآله وسلم	45
06- إكليل الأزهار المنتخب من سيرة النبيّ المختار وما وقع في طفولته من أحداث وإرهاصات عظيمة المقدار صلى الله عليه وآله وسلم	51
07- المغنمُ الرابحُ لكل سائل ولائح مدارسةُ سيرة النبيّ الفاتح والوقوفُ على بعض وقائع شبابه بالحقّ الواضح صلى الله عليه وآله وسلم	56
08- النزهة البهيجة في رياض سيرة الرسول والإستمتاع بقصّة زواجه من السيّدة خديجة الطاهرة أمّ البتول صلى الله عليه وآله وسلم	61
09- المقالةُ اللطيفةُ عن مكانة الكعبة الشريفة وتجديد قريشٍ بِنْيَتَهَا المَنيفة وتحكيمهم النبيَّ الأمينَ لمخالفةٍ بينهم عنيفة	68
10- الإرهاصاتُ الواضِحةُ الجلِيّةُ تمهِيدٌ لِبِعثةِ خيرِ البرِيّةِ	73
11- بدء بعثة النبيّ بنزول الوحي الجليّ من عند الربّ العليّ	80

12- أخذ العبر من قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ) وبدء النبيّ بالدعوة في السرّ واستجابة السابقين الأوّلين لهذا الأمر	86
13- التخطيط المُحكَم للنبيّ الأكرم في دخوله لدار الأرقم بن أبي الأرقم وإظهارُه الدعوةَ للأخصّ والأعمّ	92
14- صبرُ النبيّ وتحمُّله لأذى المؤذين سبيلٌ إلى العِزّة والتّمكين التي وعد بها ربّ العالين	99
15- إختبارُ الله الأبر للصحابة الغُرَر على صبرهم لإذاية أهل الكفر واعتزازُهم بإسلام سيّدنا عمر	105
16- إذنُ النبيّ لأصحابه بالهجرة إلى أرض الأحباش وكفايةُ الله له من المستهزئين به من الكفّار الأوباش	111
17- حِصَارُ المشركين للنبيِّ وقَوْمِه في شِعْبِ أبي طالب ونُصْرَةُ اللهِ لهم بتأييده القويّ الغالب	119
18- حكمةُ الله تعالى في توالي المحن والأحزان على نبيّنا سيّد ولد عدنان وما أعقبها مِنْ مِنْحةِ اللهِ ذي الفضل والإحسان برحلة الإسراء والمعراج العظيمة الشان	124
19- إزالةُ الران عن رجوع النبيّ من الطائف مهموم حيران وإيمانُ الجنّ به بعد استماعهم لقراءته القرآن	129
20- السرور والإبتهاج بالإعتبار والإستنتاج من نفحات قصّة الإسراء والمعراج	135
21- التّشريفات الرّبانيّة للحضرة المحمّديّة بالتّقريب والمكالمة والمشاهدة العيانيّة	142
22- فضل الله ذو المنّة على سادتنا الأنصار بسكناهم المدينة لسابق علمه لينصروا دينه	150
23- الفرحُ والإستبشار وابتهاجُ أهلِ المدينة سادتِنا الأنصار بقدوم نبيِّنا المصطفى المختار صلَّى عليه ربُّنا الغفّار	155
24- حلاوةُ السَّمَر لِأَخْذ الدّروس والعِبَر في حُسْن التوكّل وتسليم الأمر المستوحاة من هِجْرة سيِّدِ البشر صلَّى عليه الله الأبرّ	163
25- ابتهاجُ سادتِنا الأنصار بقدوم نبيِّنا المختار صلّى الله عليه وسلم	170
26- التّذكرة والتّبصرة في معايشة اللحظات الأولى لقدوم الموكب النبويّ للمدينة المنوّرة	175
27- ترسيخ خير البريّة لِأُسُس المواطنة الصّالحة السِّلْميّة من خلال وثيقة المدينة المنوّرة النّبويّة	182
28- الْمَوْرِدُ الأحلى في سلوة الحزين والثّكلى بأخذ العبرة الْمُثلى من	186

مصيبة انتقال النبيّ إلى الرّفيق الأعلى صلّى عليه اللهُ ذو العُلى	
مختصر السيرة:	198
01- لحظات مباركة مع الحبيب المصطفى وسيرته في ولادته وطفولته وشبيبته صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه صلاة نكونوا بها في معيّته	200
02- لحظات مباركة مع سيرة الحبيب المصطفى صاحب التاج من بعثته إلى الإسراء والمعراج صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه صلاة نسير ببركتها على أقْوم منهاج	207
03- لحظات مباركة مع سيرة الحبيب المصطفى سيّد أهل الدنيا والآخرة من بداية هجرته إلى استقراره بالمدينة المنوّرة صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه السادة البررة صلاة تحفظنا بها من الفتن الباطنة والظاهرة	215
04- لحظات مباركة مع سيرة الحبيب المصطفى شفيع العباد في بداية وتدرّج مراحل الإذن له بالجهاد صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه السّادة الأمجاد صلاة ننال ببركتها غاية المنى والمراد	221
05- لحظات مباركة مع سيرة الحبيب المصطفى طاهر الأنساب في المرحلة الدفاعية من بداية الجهاد إلى غزوة الأحزاب صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله والأصحاب صلاة نأمن بها يوم القيامة من العذاب	226
06- لحظات مباركة مع سيرة الحبيب المصطفى أطْيَب العالمين فرعًا وأصلا في المرحلة الإستباقيّة الهجوميّة من غزوة الأحزاب إلى انتقاله إلى الرّفيق الأعلى صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه السادة الأَجِلاَّ صلاةً تنوِّر بها قلوبَنا بنور سرّه الأجلى	233